الشرق الأوسط الديمقراطي

فصلية فكرية تحليلية تعنى بشؤون الشرق الأوسط

العدد 52 ـ آذار / مارس 2021م

محاور العدد

الاقتصاد في الشرق الأوسط

- دراسة تحليلية عن بناء التكتلات الاقتصادية وميل السياسة الدولية نحو تعدد الأقطاب
- مفهوم التكامل الاقتصادي في الشرق
- الأمن والاقتصاد والعملة بين صعودها وهبوطها

الحضارة في الشرق الأوسط

- مخطط تاريخي سوري
- الأخمينيون بين التأثير والتأثر
- تأثر الحضارة الغربية المعاصرة بالشرق

مواضيع متنوعة

- تقسيمات الاسلوب ونسق الحقيقة عند المفكر عبدالله أوجلان
- عن جديد التجاذبات الخارجية في الأزمة اليمنية
- الإدارة الذاتية بين الأنموذج الرأسمالي والاشتراكي

الشرق الأوسط الديمقراطي

مجلة فصلية فكرية تحليلية تعنى بشؤون الشرق الأوسط

العدد ٥٢ آذار / مارس ٢٠٢١م

إدارة المجلة

مجلس الإدارة

الاشراف العام

زياد محمد

رئيس التحرير

صلاح الدين مسلم

هيئة التحرير

روشن مسلم

عواس علي

أحمد دالي

مصطفى شيخ مسلم

الهيئة الاستشارية

السيد عبدالفتاح

ياسر شوحان

جاسم الهويدي

حسن ظاظا

هجار شكر

الإخراج الفني

يريفان عثمان

الآراء المنشورة تعبر عن رأي أصحابها وليس بالضرورة أن تعبر عن رأي المجلة

وسائل التواصل

يمكنكم متابعتنا والإدلاء بآرائكم ومقترحاتكم وإرسال مساهماتكم عبر وسائل التواصل التالية:

http://www.alawset.info

serqalawset@gmail.com

@AlawsetMagazine

@KovaraAlewset

@/alawsetmagazine

رقم الاعتماد
لدى نقابة الصحفيين العراقيين
١٤٨
رقم الإيداع
دار الكتب والوثائق ببغداد
٨٦٨ لسنة ٢٠٠٥

لدى وزارة الثقافة المصرية
دار الكتب والوثائق في القاهرة
رقم ٢٤٢١٧

مكتب القاهرة:
18 شارع ضريح سعد - القاهرة
ت: 27907104 / 01554349602

محتويات العدد

العدد :52 - آذار - 2021

كلمة العدد — رئيس التحرير — ٣

الاقتصاد في الشرق الأوسط

دراسة تحليلية عن بناء التكتلات الاقتصادية وميل السياسة الدولية نحو تعدد الأقطاب ..... د. أنمار نزار الدروبي — ٤ - ٢٤

نشوء مصطلح الاقتصاد في المجتمع واحتكار رأس المال للإقتصاد ..... اسماعيل خالد محمد — ٢٥- ٣١

مفهوم التكامل الاقتصادي في الشرق الأوسط ..... خليل القاضي — ٣٢ - ٣٧

الأمن والاقتصاد والعملة في الشرق الأوسط بين صعودها وهبوطها, وتأثير الحروب عليها ..... د. محمد عنبر — ٣٨ - ٤٢

الحضارة في الشرق الأوسط

مخطط تاريخي لسوريا ..... ترجمة: حسين إبراهيم — ٤٣ - ٦١

الأخمينيون بين التأثير والتأثر - أثر الحضارة الإيرانية على الشرق..... ولاء أبو ستيت — ٦٢ - ٧٠

تأثر الحضارة الغربية المعاصرة بالشرق ..... روشن مسلم — ٧١ - ٧٨

الغجر بين السماء والأرض ..... عواس علي — ٧٩ - ٨٧

الحضارة الإسلامية وتلاقحها مع الحضارات الأخرى ..... جميل رشيد — ٨٨ - ٩٥

الفنون في الشرق الأوسط

الفنون في الشرق الأوسط ..... أحمد دالي — ٩٦ - ١٠٢

جلجامش - السلطة والمدنية الأولى ..... صلاح الدين مسلم — ١٠٣ - ١٠٩

نمنمات صوفية أو الصوفية الثورية ..... ريما خليل — ١١٠ - ١١٨

مواضيع متنوعة

تقسيمات الاسلوب ونسق الحقيقة عند المفكر عبدالله أوجلان..... شيران زادة — ١١٩ - ١٣٤

الإدارة الذاتية بين الأنموذج الرأسمالي والأنموذج الاشتراكيّ ..... فادي عاكوم — ١٣٥ - ١٣٩

العباءة في ذاكرة الشرق ..... هشام مهنّا — ١٤٠ - ١٤٢

القبائل العربية الأصيلة اليهودية ..... جاسم الهويدي — ١٤٣ - ١٤٥

لقاء مع الكاتب المصري وديع فلسطين ..... هيئة التحرير — ١٤٦ - ١٤٧

عن جديد التجاذبات الخارجية في الأزمة اليمنية ..... عبدالله محمد الدهمشي — ١٤٨ - ١٥٠

دراسة في إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الشعوب الأصلية .... بيان محمد عيسى — ١٥١ - ١٥٢

كلمة العدد ٥٢

هيئة التحرير

كلمة العدد الثاني والخمسين

الاقتصاد والفنون والحضارة في الشرق الأوسط، هي محاور عددنا الثاني والخمسين. قد يسأل سائل ما الصلة بين هذه المصطلحات خاصة الاقتصاد من جهة والفنون والحضارات من جهة أخرى. لقد كان الاقتصاد هو المحرّك لكلّ الشعوب. فالبحث عن الكلأ والمرعى والطعام والصيد أدّى بالإنسان أن يقدّس القمح على سبيل المثال لأنّها رمز الخير. فظهرت الديانات. وأدّى ببعض التجّار إلى احتكار هذه المادّة على سبيل المثال إلى ظهور طبقة التجار والعبيد. والملوك. والأسياد والأشراف. وإلى تمجيد طبقة ما على حساب طبقة أخرى. فأدّى ذلك إلى الصراعات. وتجديد السلطة والاحتكار. وبالمقابل تجديد المقاومة والتكتّل المجتمعيّ.

كانت الفنون تعبيراً عن انزياح الإنسان إلى الروح وتفريغ الشحنات المقموعة. اجتماعيّا وسياسيّاً واقتصاديّاً. فبات الفن عنوان الدولة أيضاً للتعبير عن سطوتها وهيبتها. وبالتالي كان هناك ارتباط وثيق بالفن الذي يعدّ أداة للتعبير عن الواقع والثورة. أو الابتعاد عنها والولوج في عالم خياليّ بعيد عن الواقع والولوج في عوالم العبثيّة والهروب من الطبيعة.

بات هذا العدد مكمّلاً لأعدادنا السابقة التي حاولت بشتّى السبل التعبير عن قضايا الشرق الأوسط بطريقة حرّة وديمقراطيّة. وإن تعدّدت الآراء في المجلة لكنّها تنصبّ كلّها في خانة البحث عن حقيقة الشرق الأوسط. وسبل الوصول إلى الحلّ. على الرغم من تعقّد المشكلات وتفاقم الصراعات في الشرق الأوسط. إلّا أن غنى الشرق الأوسط بالميثولوجيا والأديان والتاريخ والفنون والحضارات يعزّز من فرص الوصولا إلى الحلّ. فقد بات العالم يفكّر بطريقة احتكاريّة فحسب. وتحوّل مصطلح الاحتكار إلى مصطلح الاقتصاد. وكذلك بات هذا الجنون الموسيقي فنّاً عند البعض. فعندما تتصفّح مواقع التواصل الاجتماعيّ وتقارن ما بين فنان عظيم وفنان هابط ترى الفارق الكبير في نسبة متابعة الجمهور.

نشكر في هذا العدد كلّ من ساهم في إغناء هذا العدد. ونحترم كدحه وفكره وثقافته في إيصال صوته إلى جمهور المجلة الذي يحاول أن يصل إلى الحلّ كما نفعل. فاعتمد محور الفنون في الشرق الأوسط على موضوعات قيّمة مثل: (الفنون في الشرق الأوسط. نمنمات صوفية. وجلجامش - السلطة والمدنيّة الأولى). أمّا محور الحضارات في الشرق الأوسط فقد توزّعت موضوعاته على الشكل التالي (الغجر بين السماء والأرض. أثر الحضارة الإيرانية القديمة على الشرق. تأثر الحضارة الغربية المعاصرة بالشرق. مخطط تاريخي لسوريا. الحضارة الإسلاميّة وتلاقحها مع الحضارات الأخرى). أما محور الاقتصاد في الشرق الأوسط فقد توزّع على المواضيع التاليّة:(مفهوم التكامل الاقتصادي في الشرق الأوسط. التكتلات الاقتصادية وميل السياسة الدولية نحو تعدد الأقطاب. نشوء مصطلح الاقتصاد في المجتمع واحتكار رأس المال للاقتصاد. الأمن والاقتصاد والعملة في الشرق الأوسط بين صعودها وهبوطها) وبالطبع كانت هناك مواضيع متفرّقة تهتمّ بشأن الشرق الأوسط. وهي قريبة من المحاور السابقة. وقد أغنت العدد مثل: (تقسيمات الأسلوب ونَسَق الحقيقة عند المفكّر عبد الله أوجلان. الإدارة الذاتية بين الأنموذج الرأسمالي والأنموذج الاشتراكيّ. القبائل العربية الأصيلة اليهودية. العباءة في الشرق. دراسة في إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الشعوب الأصلية. لقاء خاصّ مع الكاتب المصريّ القدير وديع فلسطين. التجاذبات الخارجية في الأزمة اليمنية)

دراسة تحليلية عن بناء التكتلات الاقتصادية وميل السياسة الدولية نحو تعدد الأقطاب

إعداد الكاتب والباحث السياسي
الدكتور أنمار نزار الدروبي

مقدمة

عرف المشهد السياسي العالمي العديد من التغييرات التي أدت إلى تحول اهتمام الدول من المجال العسكري الذي كان سائدا منذ الحرب البادرة إلى التركيز أكثر على المجال الاقتصادي كقوة مرنة تمكن الدولة من زيادة قوتها وفرض مكانتها على الساحة العالمية دون اللجوء إلى العمل العسكري. فالمجال الاقتصادي بات الأنسب لتحقيق المكاسب المرجوة والانتقال من النمط التصارعي التنافسي في العلاقات الدولية إلى النمط التعاوني التكاملي.

يعكف فقهاء وباحثو العلاقات الدولية في الوقت الراهن على دراسة النظام الدولي، ويدور السؤال الأساسي حول إمكانية استمرار نظام الأحادية القطبية في ظل التحولات الكبيرة والمتسارعة على الساحة الدولية. حيث يوجد العديد من المفكرين الذين يعتقدون أن نظام الأحادية القطبية أصبح عاجزا عن قيادة العالم، وقد حان الوقت ليتسلم نظما جديدا زمام الأمور. وعليه جاءت الدارسات بالعديد من الاقتراحات للأنظمة الدولية التي تستطيع أن تحل محل الأحادية القطبية. لقد أتسم النظام الدولي على مدى عدة قرون بوجود عدد

من الأنظمة، منها نظام التعددية القطبية الذي أستمر إلى فترة الحرب العالمية الثانية. ثم اتبعه نظام الثنائية القطبية بعد الحرب العالمية الثانية وانهيار العالم القديم، حيث ظهرت قوتان عظمتان هما، الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، استطاعتا بقوتهما العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية، السيطرة على العالم وعلى قسم من أوروبا الشرقية والغربية ليصبح العالم ثنائي القطبية إلى فترة الحرب الباردة. وفي عام ١٩٩١، تفكك الاتحاد السوفيتي وغرق في أزماته الكثيرة وكانت أبرزها الأزمة الاقتصادية، فصارت الولايات المتحدة هي القوة العالمية العظمى، بقوتها العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية من دون منافس، ليصبح العالم أحادي القطبية

وعند النظر إلى جميع تلك الأنظمة الدولية، نرى أن تصنيفها كان يعتمد بشكل أساسي على عوامل واضحة ومحددة يُمكن خلالها معرفة ماهية نوعية النظام الدولي، فالمعيار بالحكم على ماهية الأنظمة الدولية فيما سبق ارتكز على القوة العسكرية والاقتصادية، بيد أنه من كان يملك الجزء الأكبر من هاتين القوتين، كانت له الأفضلية في تسلم زمام الأمور وفرض سيطرته على العالم.

أهداف البحث

تهدف هذه الدارسة إلى الخروج برؤية شاملة للنظام الدولي متعدد الأقطاب في محاولة للإسهام في المجال المعرفي حول الموضوع. وكذلك أهمية فهم طبيعة النظام الدولي السائد وتوقع مناحي تغيره بالمستقبل، حيث أن كل دولة أو فاعل دولي يحاول الوصول إلى أفضل الخيارات المتاحة أمامه لتحقيق سياساته التي يرى أنها ستساعده بالاستفادة والبقاء لفترة أطول في حدود هذا النظام. لقد تميزت السياسة العالمية المعاصرة بالنضال الكبير لقوى التعددية القطبية من أجل تحقيق التوازن في العلاقات الدولية، في نفس الوقت الذي تسعى فيه تلك القوة الحالية أحادية القطبية بقوة للمقاومة وتقاتل من أجل الاحتفاظ بهيمنتها. ونتيجة لهذه النزاعات الشرسة في المنافسة حول التعددية القطبية فقد أصبح عدم الاستقرار العالمي سمة لهذا العصر الحديث، وسبب ذلك الدخول في بداية حرب باردة جديدة. وتسعى الولايات المتحدة بكل الوسائل للحفاظ على النظام العالمي الأحادي القطب الذي شيدته منذ نهاية الحرب الباردة القديمة.

مشكلة البحث

مثل انهيار الاتحاد السوفيتي ونهاية فترة الحرب الباردة نقطة تحول محورية في تاريخ العلاقات الدولية والنظام الدولي المعاصر، ومنذ ذلك الوقت وهناك حوار محتدم حول طبيعة النظام العالمي الجديد. كما كثرت بشأنه الأبحاث والدراسات، فهناك من يرى أن النظام الدولي يقوم على قطبية أحادية، ورأي آخر يذهب إلى القول بأنه نظام متعدد الأقطاب، أما الرأي الثالث فيرى أن النظام الدولي مازال في مرحلة مبهمة وتحول لم تتحدد معالمه بعد. وفي هذه الحالة، وجب معرفة ما هو النظام البديل الذي سيتشكل في الساحة الدولية ويكون له اليد العليا في التحكم بسير العلاقات الدولية. ويبدو أن النظر إلى النظام الدولي بالطريقة التقليدية، والتي ترى أن من يمتلك التفوق في شيء يمتلك التفوق والسيطرة في جميع الأشياء لم يعد كافيا، فقد أصبح عدد الفاعلين الدوليين القادرين على إحداث التأثير في سير السياسات في العالم أكثر بكثير من السابق، لاسيما أن كل من هؤلاء الفاعلين له أهدافه وخططه في السعي لتحقيقها من أجل خدمة أهدافه ومصالحه الخاصة.

منهجية البحث

ستكون منهجية البحث الأهمية في موضوع بناء التكتلات الاقتصادية وميل السياسة الدولية نحو تعدد الأقطاب وفق طريقة تحليلية لا تخرج عن المعيار الأكاديمي الذي يفرض على الباحث قيود الالتزام والدقة والحياد واعتماد مصادر موثوقة وتجنب الاقتباس من الدراسات المشابهة أو التي تخوض في مجال بناء التكتلات الاقتصادية ونظام التعددية القطبية ودوره في السياسة الدولية، حيث يجب أن يكون الموضوع جديد ولم يُكتب عنه سابقا أو أن يكون البحث فيه إضافة جديدة لبحث كُتب سابقا، من خلال

المقارنة وتحليل البيانات حول الظاهرة التي يتم دراستها، وتسجيل أهم التغييرات عن طريق الكتب ومقالات المجلات والمقابلات ومواقع الإنترنت ومشاركات المدونات والموارد الأخرى.

حدود البحث

سيكون البحث وفق النطاق الموضوعي للدراسة، أو ضمن النطاق الذي تفرضه طبيعة الدراسة، وذلك بعدم تجاوز الحدود أو الحواجز التي تخص عنوان الدراسة حصرا، وهو بناء التكتلات الاقتصادية وميل السياسة الدولية نحو تعدد الأقطاب.

أهمية البحث

تستمد الدراسة أهميتها بصفة عامة من النتائج التي سيتم الوصول إليها والتي ستعزز فكرة بناء التكتلات الاقتصادية وميل السياسة الدولية نحو التعددية القطبية الدولية. حيث تعتبر التكتلات الاقتصادية من الآليات الهامة التي تُسهم في دفع حلقات النمو والتنمية، إضافة إلى أن الجهود والتعاون في بناء كيان اقتصادي متكامل يكون له الدور الهام في ممانعة الأزمات قبل وقوعها. وبذلك يمكن أن تشكل هذه الدراسة إضافة مفيدة في تناول موضوع شائك ومؤثر على النظام السياسي الدولي، بعد أن شهدت الساحة السياسية الإقليمية والدولية تسيد الولايات المتحدة الأمريكية بالقرار السياسي العالمي وتحديدا بعد تفكك الاتحاد السوفيتي السابق وانهيار المعسكر الاشتراكي.

فروض البحث

استندت الدراسة إلى عدة معطيات واقعية وفكرية ساهمت في فرض القوة الاقتصادية والسعي نحو تشكيل النظام العالمي مستقبلا وفق نظام التعددية القطبية ومنها.

١.قيام الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، مما كان له الأثر الكبير والواضح للهيمنة الأمريكية حتى على مقررات المنظمات الدولية وتحديدا منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي.

٢. صعود الصين كقوة اقتصادية وعسكرية في العالم، حيث من المحتمل أن تحتل الصين وتحالفها

> **يعتبر الطابع التنظيمي للعلاقات بين الدول من بين أهم الملامح الرئيسية التي تميز بها القرن العشرين على أنه عصر التنظيم الدولي, خاصة بعد زيادة عدد الوحدات السياسية بعد الحرب العالمية الثانية، التي تبلورت فيها الإقليمية كظاهرة، إذ أن هناك العديد من التكتلات كالاتحاد الأوروبي التي تطورت فيه فكرة التكتل الإقليمي بشكل بارز**

مع بعض الدول لتشكيل قطب عالمي جديد بمواجهة الولايات المتحدة الأمريكية.

٣. احتمالية تفكك دول الاتحاد الأوروبي نتيجة للأزمات الاقتصادية التي تعاني منها بعض دول الاتحاد، بالإضافة إلى مشكلة الهجرة غير الشرعية التي غزت أوربا في الفترة الأخيرة.

٤.خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي.

خطة البحث

تم تقسيم البحث إلى فصلين، الفصل الأول التكتلات الاقتصادية في العالم، وتناول ثلاث مباحث، الأول، تعريف التكتل والتكامل الاقتصادي ومفهومه. والمبحث الثاني قد تناولنا فيه رؤية تاريخية عن نشأة التكتلات الاقتصادية في العالم. أما المبحث الثالث فقد تناول دوافع قيام التكتلات الاقتصادية وآثرها على الاقتصاد العالمي. أما الفصل الثاني فقد تناول أربع مباحث، المبحث الأول، عن مراحل تطور النظام السياسي الدولي، والمبحث الثاني، تطرقنا فيه إلى مفهوم نظام التعددية القطبية. أما المبحث الثالث،

فكان عن سمات نظام التعددية القطبية. وتناول المبحث الرابع أقطاب نظام التعددية القطبية.

الفصل الأول

التكتلات الاقتصادية في العالم

وسنتناول في هذا الفصل ثلاث مباحث:

المبحث الأول: تعريف التكتل والتكامل الاقتصادي ومفهومه.

المبحث الثاني: نشأة التكتلات الاقتصادية (رؤية تاريخية).

المبحث الثالث: دوافع قيام التكتلات الاقتصادية وآثارها على الاقتصاد العالمي.

المبحث الأول

تعريف التكتلات الاقتصادية

يعتبر الطابع التنظيمي للعلاقات بين الدول من بين أهم الملامح الرئيسية التي تميز بها القرن العشرين على أنه عصر التنظيم الدولي خاصة بعد زيادة عدد الوحدات السياسية بعد الحرب العالمية الثانية، التي تبلورت فيها الإقليمية كظاهرة، إذ أن هناك العديد من التكتلات كالاتحاد الأوروبي التي تطورت فيه فكرة التكتل الإقليمي بشكل بارز، خاصة في أوروبا، إذ برز بعد جدل دار حول ما سمي بالعالمية في مواجهة الإقليمية، حيث يرى أنصار التوجه العالمي، بأن إقامة تنظيم عالمي يشمل جميع الدول يعتبر من أفضل الطرق لتحقيق السلم و الأمن الدوليين، في حين أكد أنصار التوجه الإقليمي على أهمية إنشاء تنظيمات إقليمية لتحقيق ذلك، ومن هنا نشأت نظرية (السلام الإقليمي)، بعد الحرب العالمية الثانية. وما ساعد على بلورة الأفكار الإقليمية هو تطور التفاعلات على المستوى الواقعي بين الدول، وهو ما ساهم في تعجيل الاتجاه نحو التكامل الإقليمي في كل جزء من العالم (١).

لقد وجدت التكتلات الاقتصادية تعبيرها الفكري في نظرية التكامل الاقتصادي. وأصبح الاهتمام بها بعد الحرب العالمية الثانية من قبل عدة دول في العالم، حتى بات منتصف القرن العشرين يسمى بعصر التكتلات الاقتصادية. ويُعرف التكتل الاقتصادي» بأنه يعبر عن درجة معينة من درجات التكامل الاقتصادي الذي يقوم بين مجموعة من الدول المتجانسة اقتصاديا وجغرافيا وتاريخيا وثقافيا واجتماعيا. والتي تجمعها مجموعة من المصالح الاقتصادية المشتركة. يهدف تعظيم تلك المصالح وزيادة التجارة الدولية البينية لتحقيق أكبر عائد ممكن. ثم الوصول إلى أقصى درجة من الرفاهية الاقتصادية لشعوب تلك الدول. ويمكن تعريف التكتل الاقتصادي بأنه تجمع عديد من الدول التي تجمعها روابط خاصة بالجوار الجغرافي أو التماثل الكبير في الظروف الاقتصادية أو الانتماء الحضاري المشترك»(٢).

وفي تعريف آخر للتكتل الاقتصادي» بأنه عملية وحالة، فبوصفه عملية لأنه يتضمن التدابير التي يراد منها إلغاء التمييز بين الوحدات الاقتصادية المنتمية إلى دول قومية مختلفة، أما إذا تم النظر إليه على أنه حالة فإنه بالإمكان أن يتمثل في انتفاء مختلف صور التفرقة بين الاقتصاديات القومية. وبذلك فإن التكتل الاقتصادي هو عملية وحالة تستدعي اتخاذ الإجراءات اللازمة من أجل الحد من الحواجز التي تعيق هذا التكتل المتمثلة في التفرقة بين اقتصاديات مختلف الدول والتمييز بين الدول»(٣).

أما الاقتصادي السويدي (جونار ميردال)، فقد عرف التكتل الاقتصادي على» أنه عبارة عن العملية الاجتماعية والاقتصادية التي بموجبها تزول جميع الحواجز بين الوحدات المختلفة، وتؤدي إلى تحقيق تكافؤ الفرص أمام جميع عناصر الإنتاج على المستوى الإقليمي والعالمي، مع وجوب تحقيق التنسيق والتجانس في السياسات الاقتصادية»(٤).

١ ما هي التكتلات الإقليمية، الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية، ٢٠١٩م، https://www.politics-dz.com

٢ عبد الحميد، عبد المطلب، السوق العربية المشتركة، الواقع والمستقبل في الألفية الثالثة، الناشر، مجموعة النيل العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٣٠

٣ عمر، حسين، التكامل الاقتصادي أنشودة العالم المعاصر: النظرية والتطبيق، الناشر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٧

٤ عبد الرحيم عوض، إكرام، التحديات المستقبلية للتكتل الاقتصادي العربي العولمة والتكتلات الإقليمية البديلة، الناشر، مكتبة

وفي تعريف آخر "أن التكتل الاقتصادي هو عبارة عن إيجاد أحسن السبل للعلاقات الدولية والسعي لإزالة كافة العقبات والمعوقات أمام هذا التعاون. أي أن التكتل الاقتصادي هو وسيلة تجعل من العلاقات الدولية تتميز بالنمط التعاوني أكثر من النمط التنافسي ألصراعي الذي يميز العلاقات الدولية في فترات الحربين العالميتين»(٥).

وفي نفس السياق عُرف التكتل الاقتصادي» على أنه تجمع عديد من الدول التي تجمعها روابط خاصة بالجوار الجغرافي أو التماثل الكبير في الظروف الاقتصادية أو الانتماء الحضاري المشترك، هذا التجمع يكون في إطار معين كأن يكون اتحاد كمركي أو منطقة تجارة حرة»(٦).

من خلال التعريفات السابقة لمفهوم التكتل الاقتصادي، يمكن استخلاص تعريف إجرائي لهذا المصطلح من خلال القول بأنه» مصطلح عام ويشمل عدة أصناف من الترتيبات والإجراءات التي يتم بمقتضاها اتفاق دولتين أو أكثر على تقريب سياساتهم الاقتصادية لتحقيق أهدافهم ومصالحهم المشتركة، وذلك من خلال إزالة مختلف الحواجز والعقبات التي تحول دون تسهيل النشاطات الاقتصادية (كحركة رؤوس الأموال والأيدي العاملة والاستثمارات والسلع والمنتجات)، وإقامة التكتل الاقتصادي باختلاف أنواعه. كما أنها تسعى من خلال التكتل لزيادة قوة تأثيرها على الاقتصاد العالمي في ظل تزايد الفواعل الدولاتية وغير الدولاتية المؤثرة عليه»(٧).

المبحث الثاني

نشأة التكتلات الاقتصادية (رؤية تاريخية)

ترجع فكرة التكتلات الاقتصادية إلى أكثر من مائة عام، أي في ثلاثينات القرن الماضي، ففي هذه الفترة نشأ أو تكتل من هذا النوع في الولايات الألمانية قبل وحدة ألمانيا، ثم أعقبتها تكتلات أخرى مثل تكتل المستعمرات الإنكليزية مع الدولة الأم التي عُرفت باسم (سياسة التفضيل الإمبراطوري)، وكذلك تكتل فرنسا ومستعمراتها، وغير ذلك من التكتلات الأخرى. غير أن ما يميّز هذه التكتلات أنها كانت محاولة لربط الدول المستعمرة بمستعمراتها من أجل ضمان تواجدها في هذه الدول واستنزاف ثرواتها وضبط السيطرة عليها، وبالتالي فيمكن وصفها بأنها تكتلات إمبريالية أكثر مما هي تكتلات اقتصادية تراعي فيها مصالح جميع الأطراف. وعليه فإن ظاهرة التكتلات الاقتصادية ليست بالظاهرة الجديدة، إلا أن ظهورها كتجربة اقتصادية كانت بعد الحرب العالمية الثانية، حيث اتخذتها مجموعة الدول المتقدمة والنامية، اشتراكية ورأسمالية، لمواجهة التحولات التي شهدها العالم في تلك الفترة، وقد ظهرت التكتلات كنتيجة للقيود المفروضة في العلاقات الدولية وكمحاولة جريئة لتحرير التجارة بين العديد من الدول. والملاحظ أن التكتلات الاقتصادية التي كان تأسيسها بعد الحرب العالمية الثانية حتى نهاية القرن العشرين، أغلبها لم يحالفها النجاح فتعثرت أمام المشاكل والخلافات المتأصلة في العلاقات بين الدول. ولكن لم تقف عند حدها فتميزت بالديمومة والاستمرار في تطورها خاصة بعد اشتداد المنافسة العالمية في العقد الأخير من القرن العشرين، وأصبح من الصعب على الدول أن تدخل المنافسة منفردة فبدأت تتجمع في شكل كيانات اقتصادية، هذه الكيانات أضحت تعبر عن مطلبا دوليا مهما كنتاج لما تفرضه العولمة الاقتصادية وضرورة الاندماج في الاقتصاد العالمي. وبالتالي سعت الدول إلى بناء تكتلات اقتصادية استعدادا للدخول إلى مرحلة جديدة، يحل فيها الصراع بين القوى الاقتصادية الكبرى محل الصراع بين القوى العسكرية على الساحة الدولية، حيث أصبحت هذه التكتلات تشكل خارطة لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية (٨).

مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٤٤

٥ أبو ستيت، فؤاد، التكتلات الاقتصادية في عصر العولمة، الناشر، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٤م، ص٧

٦ عبد الرحيم عوض، إكرام، سوق الشرق أوسطية، الناشر، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ث٣٠

٧ عمارة، فاتح، دور التكتلات الاقتصادية في الحوكمة الاقتصادية العالمية مجموعة البركس أنموذجا، مذكرة مكمل لمستلزمات نيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية، الناشر، جامعة الحاد خضر، الجزائر، ٢٠١٤م، ص١١

٨ للمزيد راجع، عوض الله، زينب حسين، الاقتصاد الدولي نظرة على بعض القضايا الاقتصادية المعاصرة، الناشر، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص ٣١٠ وألجميلي، حميد، دراسات في التطورات الاقتصادية العالمية والإقليمية المعاصرة، الناشر، مجموعة

"التكتل الاقتصادي «عملية وحالة، فبوصفه عملية لأنه يتضمن التدابير التي يراد منها إلغاء التمييز بين الوحدات الاقتصادية المنتمية إلى دول قومية مختلفة، أما إذا تم النظر إليه على أنه حالة فإنه بالإمكان أن يتمثل في انتفاء مختلف صور التفرقة بين الاقتصاديات القومية؛ وبذلك فإن التكتل الاقتصادي هو عملية وحالة تستدعي اتخاذ الإجراءات اللازمة من أجل الحد من الحواجز التي تعيق هذا التكتل"

ويمكن أن نذكر بعض التجارب للتكتلات الاقتصادية:

أولا. أوربا:

لقد شهد النصف الثاني من القرن العشرين تجارب متنوعة هدفها تحقيق التكامل والاندماج الإقليمي في مناطق متنوعة من العالم، ولكن التجربة الأوربية هي وحدها التي استطاعت أن تفرض نفسها، إذ تعتبر عملية التكامل في أوروبا واحدة من أهم التطورات التي ميزت النصف الثاني من القرن العشرين، حيث أعادت هذه العملية تركيبة المنطقة سياسيا واقتصاديا، وأعادت بعثها من جديد لتكون فاعلا مؤثر في العلاقات الدولية، على الرغم من الخراب والدمار الذي لحق بها خلال الحرب العالمية الثانية.

إن وصول الاتحاد الأوربي إلى ما هو عليه اليوم، هو نتاج الجهود المبذولة لأكثر من خمسين عاما، والمتمعن في تجربة الاتحاد الأوربي يكتشف منذ الوهلة الأولى بأن أوروبا شكلت على مدار التاريخ أحد المناطق المهمة التي عرفت أعنف الحروب. إذ يعتبر الاتحاد الأوربي من أكبر التكتلات الاقتصادية القائمة حاليا والذي بلغ في تكامله الاقليمي مرحلة متقدمة، فهو نتاج عملية اندماج وتكامل بين دول تختلف شعوبها عن بعضها البعض في اللغة والثقافة والتاريخ القومي. كما تحتل التجربة الأوربية موقعا فريدا ومتميزا بين جميع هذه التجارب، ويرجع هذا التمييز إلى عدة أسباب، من أهمها، حجم الانجازات التي حققتها التجربة الأوربية، وكذلك خصوصية المنهج المستخدم في بناء العملية التكاملية ذاتها. ويكاد يجمع معظم الباحثين والمتخصصين، إن لم يكن جميعهم، على أن تجربة التكامل والوحدة في أوروبا تعتبر من أهم وأنجح التكاملات الإقليمية على الإطلاق، وذلك لأن هذه التجربة أكدت بالدليل القاطع المستمد من الممارسة العملية، على أن نقل نمط العلاقة بين مجموعة من الدول المتجاورة إقليميا وغير المتجانسة ثقافيا، من حالة التشتت والصراع إلى حالة التعاون والتكامل وصولا إلى الوحدة، هو أمر ممكن، بشرط توافر ظروف وعوامل دولية وإقليمية ومحلية، خاصة بعد أن استطاعت هذه التجربة أن تبتكر من الأدوات والتقنيات والآليات ما مكنها من مواجهة عوامل وظروف التنافر وعدم التجانس والتي كانت قد أفشلت الكثير من محاولات التكامل والاندماج الإقليمي في العديد من مناطق العالم، سواء من سبقت التجربة الأوربية أو التي جاءت بعدها.

لقد تطورت هذه التجربة الأوربية في التعاون والتكامل الإقليميين على مدى أكثر من نصف قرن إلى أن أصبحت على مشارف وحدة سياسية تضم غالبية الدول الأوربية، حيث كانت هذه التجربة في ختام حركات توحد بين العديد من الولايات الأوربية سواء بالتراضي أو بالضم القهري الذي تسبب في حروب متتالية. بعد اجتهد عدد من المفكرين في صياغة ما يرونه أفضل السبل إلى تحقيق وحدة أوربية (٩).

وعليه» فإن التعاون فيما بين الدول هو السبيل الوحيد لتحقيق غايات جميع الدول وضمان التفاعل الايجابي لإيجاد حلول حقيقية لما يُهدد الأمن

النيل، ١٩٩٨م، ص ٢٠

٩ للمزيد راجع، عبيد المبيضين، مخلد، الاتحاد الأوربي كظاهرة إقليمية متميزة، الناشر، دار الأكاديميون، الأردن، ٢٠١٨م، ص٦٥ص٦٦ ولاحقا

والاستقرار والتمنية المشتركة»(١٠).

ثانيا. أمريكا:

على غرار القارة الأوربية عرفت دول القارة الأمريكية اهتمام كبير بظاهرة التكتلات الاقتصادية، حيث أبرمت العديد من اتفاقيات التعاون بين دول القارة، ويمكن تقسيم أهم تجارب التكتلات الاقتصادية التي عرفتها المنطقة إلى ثلاث أقسام جغرافية وهي، أمريكا الشمالية، أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية. ففي أمريكا الشمالية تعتبر اتفاقيتها للتجارة الحرة ((NAFTA، أهم تكتل اقتصادي بين الولايات المتحدة وكندا، ثم انضمت إلى هذه الاتفاقية المكسيك سنة ١٩٨٩م. أما في أمريكا الوسطى فقد تم إنشاء السوق المشتركة لأمريكا الوسطى ((CACM، عام ١٩٩٣م، بالإضافة إلى اتفاقية التجارة الحرة التي وقعت بين(السلفادور، كوستاريكا، غواتيمالا، الهندوراس) مع الولايات المتحدة وجمهورية الدومنيكان في عام ٢٠٠٤م. أما في أمريكا الجنوبية، فقد تم تشكيل السوق المشتركة للجنوب عام ١٩٩١م، وكذلك مجموعة الثلاثة (G٣)، في عام ١٩٩٥م والتي ضمت كولومبيا والمكسيك وفنزويلا(١١).

ثالثا. أفريقيا:

تتعدد التجارب الإفريقية في التكامل الاقتصادي على نحو يصعب معه إيجاد دولة افريقية خارج أحد هذه التجمعات بسبب انتماء الكثير من هذه الدول الى أكثر من تجمع. وقد أدى هذا الواقع الى تعقيد عملية التكامل الإفريقية، بسبب تداخل العضوية والالتزامات، والافتقار الى التنسيق الأفقي بين هذه التنظيمات حيث تعمل بشكل منعزل، وهو ما يفسر الى حد كبير تواضع الانجازات التي حققتها التجمعات الإقليمية الإفريقية حتى الآن، سواء فيما يتعلق بالتجارة الإقليمية أو النمو الاقتصادي. وبالرغم من هذا لكن توجد هناك بعض التجارب التي حققت نجاحا ملحوظا، فقد حقق الاتحاد الجمركي لإفريقيا الجنوبية على سبيل المثال تقدما ملحوظا في تحرير حركة عوامل الإنتاج من خلال إزالة الحواجز الجمركية والتجارية بين دول الاتحاد، كما نجح الاتحاد الاقتصادي والنقدي لغرب إفريقيا في إنشاء نظام لسياسات الاقتصاد الكلي من خلال وضع هيكل للمحاسبة المشتركة تتم مراجعته بين الدول الأعضاء بانتظام، بالإضافة الى إنشاء سوق للأوراق المالية.

لقد شكل اعتماد خطة عمل لاجوس في عام ١٩٨٠م، بداية دفعة جديدة نحو تعزيز التعاون في جميع أنحاء القارة، وقد شجعت هذه التجربة على إتباع نهج إقليمي لزيادة التنمية الاقتصادية، وهو ما أدى في فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين الى انتشار منظمات التكامل الاقتصادي الإقليمي في القارة. لقد أيقنت التجمعات الاقتصادية الإقليمية بالقارة، والتي تعد اللبنات الأساسية لفكرة الجماعة الاقتصادية الأفريقية، ضرورة السير في الاتجاه ذاته لتحقيق هدف التكامل الاقتصادي الأفريقي، فسعت إلى بناء علاقات للتفاعل والتعاون مع الجماعة الاقتصادية الإفريقية. في هذا السياق، تم التوقيع على بروتوكول فبراير ١٩٩٨م، كأداة للتكامل بين الجماعات الاقتصادية الإقليمية، من ناحية، وبين الجماعة الاقتصادية الأفريقية والجماعات الاقتصادية الإقليمية، من ناحية أخرى. ومع الإعلان عن تأسيس الاتحاد الأفريقي في سبتمبر ١٩٩٩م، أخذ الاتحاد على عاتقه تفعيل الاتفاقية المؤسسة للجماعة الاقتصادية الأفريقية، وفقا لما أشارت إليه اتفاقيته التأسيسية، كآلية رئيسية لتعزيز التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالقارة، والتصدي بصورة أكثر فاعلية للتحديات التي تفرضها العولمة. كما استهدف الاتحاد تسريع عملية دمج وترشيد التجمعات الإقليمية القائمة في عدد أقل، والتي باتت تخلق أعباء على العمل الأفريقي المشترك، وتؤثر سلبا على مستقبل عملية التكامل بين دول القارة (١٢).

١٠ سرور، أحمد فتحي، العالم الجديد بين الاقتصاد والسياسة والقانون، نظرات في عالم متغير، الناشر، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٨٠

١١ Wash- Development And Integration Regional Schiff Maurice p6 ,2003 press ,ington

١٢ أبو العز، نهلة أحمد، تقييم مدى التقدم في تحقيق التكامل الإقليمي بالقارة الأفريقية- نحو سوق أفريقية مشتركة، الناشر، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، ص٢ص٣ ولاحقا، https://eg.edu.cu.scholar

رابعا. آسيا:

على غرار باقي القارات، عرفت قارة آسيا العديد من التكتلات الاقتصادية[١٣] فأقيمت في المنطقة تكتلات إقليمية لعل من أبرزها كان رابطة (دول جنوب شرق آسيا)، التي أصبحت فيما بعد من أهم التكتلات الاقتصادية في العالم وأهمها في القارة الآسيوية، والتي كان الهدف منها أن يكون لها من وراء ذلك موقف موحد إزاء القضايا الاقتصادية في المحافل الدولية، ويكون لها صوت مسموع ومؤثر في التكتلات الاقتصادية المنتشرة في أقاليم عدة من العالم والتعامل المتوازن معها. تأسست رابطة دول جنوب شرق آسيان منذ سنة ١٩٦٧م، من خمس دول (إندونيسيا وماليزيا، وسنغافورة، والفلبين، وتايلاند)، وتضم حاليا عشر دول، وجاء تأسيسها في إطار الحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك من أجل تقوية النفوذ الرأسمالي في منطقة جنوب شرق آسيا تحت رعاية الولايات المتحدة الأمريكية. وتمثل منطقة التجارة الحرة داخل الرابطة أكبر تجمع اقتصادي في العالم بأسره من زاوية عدد المستهلكين، وهو الأمر الذي يسهم كثيرا في تحقيق وفرات اقتصادية كبرى من خلال تخفيض نفقات النقل والتأمين، مما يسهل حركة انتقال السلع والأشخاص داخل المنطقة، ويزيد من القدرة التنافسية داخل تجمع الآسيان وخارجه (١٣).

خامسا. في المنطقة العربية:

منذ أكثر من نصف قرن كان التكتل الاقتصادي العربي يشغل اهتمام السياسيين والباحثين والمثقفين العرب حتى الشعوب العربية، وكان الدافع وراء إنشاء تكتل اقتصادي عربي موحد هو تعزيز القدرة التفاوضية للمنطقة في عالم الاستقطاب لا متناهي، وتحقيق مستوى معيشي أفضل للشعوب العربية. ومن أبرز التكتلات الاقتصادية في المنطقة العربية هو إنشاء (السوق العربية المشتركة)، عام ١٩٦٥م. فقد شعرت البلدان العربية منذ حصولها على الاستقلال السياسي أنها غير قادرة على متابعة نموها الاقتصادي وتطورها الاجتماعي ضمن الحدود التي رسمت لها، ولهذا تضمن ميثاق الجامعة العربية نصوصا تؤكد أهمية التكامل الاقتصادي بين الدول العربية المتحررة من الاستعمار. في الوقت عينه، واجهت الدول العربية المستقلة عقبات عديدة في عملية التطوير والتنمية، ومن هذه العقبات، انخفاض معدل نمو الدخل، ضيق السوق عن استيعاب الإنتاج الكبير، المنافسة بين المنتجات المتماثلة في الدول العربية، نزوح الفائض الاقتصادي من الدول العربية باتجاه الدول المتطورة، عدم الانسجام في توزيع الإمكانات والثروات العربية، ففي بعض البلدان تتوافر قوة العمل، وفي بعضها الآخر يتوافر رأس المال، وفي دول أخرى كميات واسعة من الأراضي الخصبة ومن الثروات الباطنية، بحيث أن بلدا واحدا، مهما اتسعت مساحته، لا يمكن أن يشكل وحدة اقتصادية متكاملة قادرة على تحقيق التنمية بمفردها، هذا ما دفع الدول إلى السعي لإنشاء تكتل اقتصادي، كان من نتائجه وكما ذكرنا، السوق العربية المشتركة(١٤).

تعقيب

من خلال استعراض نشأة التكتلات الاقتصادية كفكرة وكتطبيق على أرض الواقع، يمكن ملاحظة بأن هذه الظاهرة عرفت انتشارا واسعا في نهاية الحرب العالمية الثانية، كما لقيت هذه الظاهرة الاهتمام من طرف الدول النامية وكذلك الدول المتقدمة. ففي عالمنا اليوم بات من الصعب أن تعمل دولة بمفردها على تحقيق المكاسب المرجوة، وعليه أصبح من الضروري إنشاء مثل هذه التكتلات من أجل زيادة الاعتماد المتبادل وخلق جو من التعاون بين الدول بدلا من الصراع الذي كان قائما.

المبحث الثالث

دوافع قيام التكتلات الاقتصادية وآثارها على الاقتصاد العالمي

١٣ عبد الهادي، هويدا عبد العظيم، تأثير التكتلات الاقتصادية في شرق آسيا على التبادل التجاري الخليجي والتعاون الخليجي الآسيوي، ٢٠١٦م، sa.araa.www

١٤ مفهوم السوق العربية المشتركة، https://political-org.encyclopedia

إنّ انتشار التكتلات الاقتصادية بشكل متزايد يدفع إلى سؤال عن الدوافع والأسباب التي تؤدي الدول إلى طرح مبادرات الانخراط في مثل هذه التكتلات. وقد تنوعت أسباب قيام التكتلات ما بين أسباب اقتصادية تهدف إلى تجميع الإمكانيات الاقتصادية للدول الأعضاء وإزالة العقبات أمام انسياب حركة رؤوس الأموال والعمالة، لزيادة معدلات عوائد التجارة الخارجية التي تسهم في دفع عملية التنمية الاقتصادية، وأخرى غير اقتصادية تتمثل في نشر السلام والاستقرار وتسوية المنازعات بالطرق السلمية وعدم استخدام القوة العسكرية كما هو الحال في تجمع الآسيان، ومنها ما يجمع الجوانب السياسية والاقتصادية والسياسية والأمنية، كما في نموذج دول مجلس التعاون الخليجي ،وهذا ما سنناقشه في إطار هذا المبحث.

أولا. الدوافع الاقتصادية:

يعد العمل على توسيع الأسواق من أهم الدوافع الاقتصادية للإقامة التكتلات، حيث تؤدي زيادة حجم السوق إلى الاستفادة من مزايا التخصص كما تزيد من فرص الاستثمار. لقد كانت معظم الدوافع التي تم التركيز عليها لدخول الدول تكتلات اقتصادية في بداية الأمر ذات طابع اقتصادي بحت، وذلك من خلال البحث عن المكاسب الاقتصادية التي يمكن أن يحققها التكامل بين اقتصاديات الدول.

فهناك دول ترى أنها ستحصل على العديد من المكاسب المستمدة من نظريات التكامل الاقتصادي، وبعض الدول تركز على مكاسب التجارة العالمية، والبعض الآخر يهتم باتفاقيات السياسة التفضيلية. وقد يؤدي التكتل الاقتصادي إلى خلق مناخ ملائم للتنمية الاقتصادية، حيث يأخذ على عاتقه تهيئة الجو الملائم للتنمية، فهو يضمن التنسيق بين السياسات الاقتصادية واستقرار الأوضاع الاقتصادية للدول الأعضاء، والتنسيق أيضا بين مشروعات التنمية الإقليمية، من خلال استغلال الإمكانيات الاقتصادية للدول الأعضاء مستفيدة بذلك من أتساع السوق ووفرة العمالة وفرص التشغيل.

ومن بين الدوافع الاقتصادية الأخرى للتكتلات يمكن أن تؤخذ كضمانة ضد الأحداث الاقتصادية المستقبلية، فقد تلجأ الدول للانضمام إلى تكتل إقليمي وذلك من أجل مواجهة المخاطر والأحداث التي قد تتعرض لها في المستقبل، فيصبح التكتل بمثابة التأمين أو الضمان ضد الأحداث غير المتوقعة. لهذا يذهب البعض للقول» بأن الدول النامية تتحمس للانضمام إلى تلك التكتلات بغية أن تتجنب أي حرب تجارية مستقبلية يمكن أن تكون تلك الدول الخاسر الأكبر فيها، لذلك نجد اتفاقية (النافتا)، لم تخلو من هذه الدوافع، فإقدام كندا على إبرام ذلك الاتفاق كضمان لصادراتها ضد رسوم الإغراق والرسوم التعويضية التي كانت من المحتمل أن تفرضها الولايات المتحدة الأمريكية في حالة عدم وجود الاتفاق. وفي المقابل يعتبر ضمان الولايات المتحدة ضد السياسات الكندية في مجال الطاقة والتي كانت تتعارض مع المصالح الأمريكية»(١٥).

كما تدفع التكتلات الاقتصادية إلى تحسين مستوى الرفاه الاجتماعي، وكذلك يمكن أن تؤدي هذه التكتلات إلى تغيير وتحسين معدلات التبادل التجاري لصالح دول التكتل، بالإضافة إلى مختلف الدوافع الاقتصادية آنفة الذكر، هناك دوافع اقتصادية أخرى يمكن أن تدفع الدول للانضمام إلى تكتلات اقتصادية مثل تنسيق السياسات الضريبية والمالية، تنسيق السياسات النقدية، تنسيق السياسات الإنتاجية، وبناء اقتصاد قوي يقلل من اعتماد دول التكتل على غيرها، مع استقرار السياسات الاقتصادية وذلك من خلال توافر السلع والعمالة وانخفاض الأسعار(١٦).

١٥ الشافعي، محمد إبراهيم محمود، التكتلات الاقتصادية الإقليمية وآثرها على النظام التجاري العالمي، الناشر، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص١٦

١٦ للمزيد راجع، عبد الحميد، عبد المطلب، السوق العربية المشتركة الواقع والمستقبل في الألفية الثالثة، مصدر سابق، ص٣٢ص٣٣ والمسماري، أحمد، و، محمد الغول، الشريف محمد، التكتلات الاقتصادية في الدول الأفريقية، بحث، الناشر، الأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا والنقل البحري، جامعة الدول العربية،

ثانيا. الدوافع السياسية:

قد يكون الدافع وراء إقامة التكتل هو سياسي بالدرجة الأولى، كما حدث عندما أدرك زعماء أوربا خطورة تزايد الوزن النسبي للولايات المتحدة الأمريكية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ومن ثم أجمعوا على ضرورة إقامة تكتل اقتصادي أوربي يستطيع مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية. وكما فعلته أيضا الولايات المتحدة لضم المكسيك وكندا في منطقة تجارة حرة، وذلك للاستفادة من السوق المكسيكية الواسعة لكي تسد الطريق أمام أوربا واليابان للدخول إلى السوق المكسيكية، وكما هو الحال أيضا لقيام تكتل الآسيان، الذي كان الدافع السياسي من إنشاءه، هو لمواجهة التوسع الشيوعي.

فمن خلال أيضا تشابك العلاقات الاقتصادية التي تساعد على ارتباط الدول الأعضاء وزيادة الثقة بينهما في المنطقة التكاملية، فإن هذه الدول تتجنب الخطر السياسي، وخير مثال على ذلك حل الصراعات التي كانت قائمة بين فرنسا وألمانيا بعد تأسيس المجموعة الأوربية للفحم والصلب عام ١٩٥٢م، وقد تكون الوحدة السياسية هي الهدف الأسمى الذي تسعى إلى تحقيقه الدول المنظمة إلى تكتل اقتصادي، أي أن هذا الأخير يمثل تمهيدا لإقامة تكامل سياسي إلا أنه في المقابل قد يحدث من وراء التكامل أثر معاكس وبالتالي ترتفع درجة عدم الاستقرار والخلافات بين الدول الأعضاء نتيجة لمشاكل قد يخلقها التكامل الاقتصادي. لهذا تشكل الدول تكتلات لأسباب غير اقتصادية، وذلك لتعزيز الأمن القومي والسلام العالمي، والمساعدة في تطوير المؤسسات السياسية والاجتماعية. ولقد بحث علماء السياسة في استخدام الدبلوماسية التجارية من خلال سياق إقليمي، وتوصلوا إلى أن العلاقات التجارية قد تساعد على إنشاء علاقات سياسية بين الدول الأعضاء بتطوير وسائل التحكم في الصراع بينهما (١٧).

ومن الدوافع السياسية أيضا التي أدت إلى قيام التكتلات الاقتصادية هي، بروز مفهوم الحوكمة العالمية الذي أرسى مبادئ الشفافية في الرقابة والمساءلة والمشاركة السياسية. ومن خلال هذه المبادئ أصبح للدول شركاء يتقاسمون فيما بينهم الأدوار والمسؤوليات لتحقيق الرفاه الاقتصادي للشعوب، ومن بين هذه المبادئ التي أرستها الحوكمة العالمية هي، الانفتاح والشفافية، مما أدى إلى خضوع المؤسسات العامة بأن تكون أكثر انفتاحا على مختلف الفواعل وتقديم معلومات موثوقة ذات صلة بالأنشطة التي تقوم بها في الوقت المناسب والتواصل المستمر مع المواطنين حول أنشطتها وقراراتها. والمبدأ الآخر والمهم في مفهوم الحوكمة هو، المشاركة، إذ ينبغي على المؤسسات العامة تقبل الآراء من المواطنين وباقي الشركاء. ومن الأسباب الأخرى والمهمة في انتشار التكتلات الاقتصادية هي، موجة الديمقراطية التي عرفتها الكثير من الدول، ففي فترة الخمسينات والستينات من القرن الماضي كانت هناك عديد من الأنظمة التسلطية وقليل من الأنظمة الديمقراطية، هذا التنوع بين الأنظمة السياسية منع تحديد أهداف السياسة المشتركة بين الدول، بالرغم من أنه كانت هناك محاولات لتحقيق التكتل الاقتصادي، إلا أن معظمها كان مصيره الفشل. ويرى بعض الباحثون أن الضغوطات التي تمارسها القوى الكبرى على الدول خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، جعلت الدول الأقل قوة خاصة دول الشرق الأوسط تعمل على إقامة تكتلات اقتصادية وإبرام الاتفاقيات من أجل مواجهة الضغوط عن طريق توحيد سياساتها وتعزيز قوتها في المحافل الدولية (١٨).

ثالثا. الدوافع الأمنية:

يمثل الاستقرار الأمني كهدف» قد يدفع بعض الدول لعقد اتفاقيات إقليمية لهذا يكون الدافع وراء ضم دول معينة للتكتل دافعا أمنيا ورغبة

ص٨ص٩ ولاحقا

١٧ رميدي، عبد الوهاب، التكتلات الاقتصادية الإقليمية في عصر العولمة وتفعيل التكامل الاقتصادي في الدول النامية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية، الناشر، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التيسير، جامعة الجزائر، ٢٠٠٦م، ص٣٧ص٣٨

١٨ عمارة، فاتح، دور التكتلات الاقتصادية في الحوكمة الاقتصادية العالمية، مصدر سابق، ص١٠ص١١ ولاحقا

الحكومات في المحافظة على سيادتها بالتعاون مع دول أخرى. هكذا تم مع مجتمع الفحم والصلب الأوربي والمجتمع الأوربي. فالطريق غير المباشر لتقوية الأمن من خلال تكامل اقتصادي يعتبر خطوة أولية أساسية، وكذلك اتجاه الاتحاد الأوروبي لضم دول جنوب البحر المتوسط في اتفاقات ثنائية واتفاقات شراكة رغبة منه في تأمين الجنوب وتجنب المشكلات التي يمكن يصدرها له»(١٩).

الفصل الثاني

نظام التعددية القطبية

سنتناول في هذا الفصل إلى أربع مباحث:

المبحث الأول: مراحل تطور النظام السياسي الدولي.

المبحث الثاني: مفهوم نظام التعددية القطبية.

المبحث الثالث: سمات نظام التعددية القطبية.

المبحث الرابع: أقطاب نظام التعددية القطبية.

المبحث الأول

مراحل تطور النظام السياسي الدولي

قبل أن ندخل في موضوع نظام التعددية القطبية، من المهم أن نتطرق إلى مراحل تطور النظام السياسي الدولي، الذي سنوجزه في هذا المبحث.

مر النظام السياسي الدولي بمرحلتين تاريخيتين هما:

المرحلة الأولى: التي تبدأ منذ عقد معاهدة ويستفاليا عام ١٦٤٨م، التي أقامت النظام الدولي الحديث المبني على تعدد الدول القومية واستقلالها وتنتهي بقيام الحرب العالمية الأولى.

المرحلة الثانية: وتبدأ منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى ولا تزال مستمرة إلى وقتنا الحاضر.

المرحلة الأولى:

”لقد شهد النصف الثاني من القرن العشرين تجارب متنوعة هدفها تحقيق التكامل والاندماج الإقليمي في مناطق متنوعة من العالم، ولكن التجربة الأوربية هي وحدها التي استطاعت أن تفرض نفسها، إذ تعتبر عملية التكامل في أوروبا واحدة من أهم التطورات التي ميزت النصف الثاني من القرن العشرين، حيث أعادت هذه العملية تركيبة المنطقة سياسياً واقتصادياً، وأعادت بعثها من جديد لتكون فاعلاً مؤثراً في العلاقات الدولية“

كانت دلائل هذه المرحلة تتمثل في أن حجم التعامل الدولي كان محدودا ولم يكن قد تشعب وتعقد بالصورة التي نراها اليوم. فسياسة الدول كانت معظمها مبنية على اعتبار أن لكل دولة الحق في أن تفعل ما تشاء دفاعا عن وجودها وتحقيق مصالحها، بعيدا عن تدخل الدول الأخرى، بالإضافة إلى هذه الاعتبارات كان مبدأ الولاء القومي قد سيطر على مشاعر المواطنين الذين احتوتهم هذه الدول، بمعنى أن أي تمرد على هذا الولاء كان يُنظر أليه على أنه خيانة وطنية وقومية. وفي هذه المرحلة من تطور النظام الدولي لم تُعرف أسلحة الحرب النفسية والدعائية أو الضغط بأدوات الحرب الاقتصادية أو التغلغل والمعتقدات المذهبية في الدول الأخرى، لاسيما أن الصراعات والتوترات الداخلية لم تكن تتعدى حدود الدول، بمعنى أن تدويل النزاعات الداخلية لم يكن من سمات النظام الدولي. وعلى الرغم من وجود صراعات وخلافات بين الدول، إلا أن هذه الصراعات لم تكن ذات طبيعة إيديولوجية، بل كانت ترجع معظمها إلى الصراع بين العائلات المالكة.

١٩ رميدي، عبد الوهاب، التكتلات الاقتصادية الإقليمية في عصر العولمة وتفعيل التكامل الاقتصادي في الدول النامية، مصدر سابق، ص٣٩

وبهذا» فإن عدم وجود اختلافات أيديولوجية وفر للدول درجة عالية من المرونة والانسحاب من التحالفات الدولية حسب ما تقتضيه الظروف والمواقف. ولم يكن ينظر إلى تلك التصرفات على أنها غير أخلاقية. ولهذا يمكن القول إن اختفاء العائق الأيديولوجي من بيئة العلاقات الدولية في هذه المرحلة من تطور النظام السياسي الدولي جعل من عامل المصلحة القومية وحده المؤشر الذي يحدد للدول اتجاه حركتها في المجتمع الدولي كما بررت في إطاره كل أنماط السلوك الخارجي على عكس ما يحدث الآن»(٢٠).

المرحلة الثانية: أما عن خصائص المرحلة الثانية من تطور النظام السياسي الدولي فيمكن إيجازها على النحو التالي:

١.إن الحدود الجغرافية للنظام السياسي الدولي قد امتدت لتشمل العالم كله.

٢. ظهور العديد من المنظمات الدولية غير الحكومية التي تؤثر في أوضاع المجتمع الدولي.

٣. لم تعد الدولة القومية تمثل المصدر الوحيد للسلطة في النظام السياسي الدولي. فالمنظمات الدولية والإقليمية تعتبر مصادر جديدة للسلطة في هذا النظام.

٤. زيادة عدد دول الأطراف في هذا النظام كنتيجة لتحرر الكثير من المناطق من إطار الهيمنة والسيطرة الاستعمارية.

٥. التغيير في توزيع القوة على المستوى العالمي.

٦. التفاوت الضخم في إمكانات القوة وفي القدرة على التأثير التي تتمتع بها بعض الدول دون البعض الآخر.

٧. إن تأثير الرأي العام على تشكيل السياسة الخارجية أصبح أكبر بكثير مما كان عليه في الماضي.

٨. التضاعف في أهمية الأيديولوجيات التي استطاعت التأثير في السياسة الدولية بشكل لم يعرفه المجتمع الدولي في المرحلة السابقة.

٩. أصبحت الصراعات والنزاعات الداخلية لها دلالات دولية أي نطاق التأثير والانفعال بات يتعدى الحدود القومية إلى الدول الخارجية.

١٠. بروز نطاق واسع وشامل من أدوات الصراع الدولي، التي يتراوح مداها بين الحرب التقليدية المحدودة، والحرب التقليدية العامة، والحروب النووية التي تستخدم فيها الأسلحة النووية والاستراتيجية.

١١. لم يعد النظر إلى القوة على أنها مجرد التفوق في إمكانات العنف المسلح، كما كانت عليه في المراحل السابقة من مراحل تطور النظام السياسي الدولي، وإنما أصبحت القوة بمثابة المحصلة النهائية لعدد كبير من العوام المتداخلة التأثير مثل، القوة الاقتصادية، مستوى التطور الصناعي والتكنولوجي، كفاءة الأجهزة الدبلوماسية، كفاءة التنظيم السياسي والإداري، الجوانب النفسية والمعنوية، الثقافة والتعليم وكمية الموارد الطبيعية المتاحة (٢١).

المبحث الثاني

مفهوم نظام التعددية القطبية

يواجه النظام الدولي الراهن تحديات من بينها وجود مسافة لا تزال طويلة بين القطب الأمريكي والقوى الدولية الأخرى التي تسعى إلى الاقتراب من مستواه وردم الفجوة التي تفصل كلا منها عنه سواء في مجال القوة العسكرية التي لا تزال أطول وأضخم الفجوات القائمة بين الطرف الأمريكي والقوى الكبرى الأخرى باستثناء روسيا الاتحادية، أو في مجال القوة الاقتصادية وذلك من خلال تحقيق أكبر نجاحات القوى الدولية الأخرى في الاقتراب من مستوى القوة الأمريكية، أو في القوة العلمية والتكنولوجية، حيث تتعدد وتتنوع التحديات التي تواجه النظام الدولي في مرحلته الراهنة، لهذا انعكس ذلك الأمر على رؤية الاتجاهات النظرية للتغير، أو التطور في النظام

٢٠ مقلد، إسماعيل صبري، العلاقات السياسية الدولية دراسة في الأصول والنظريات، الناشر، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩١م، ص٥٠

٢١ للمزيد راجع، مقلد، إسماعيل صبري، العلاقات السياسية الدولية دراسة في الأصول والنظريات، مصدر سابق، ص٤١ص٤٢ ولاحقا

الدولي. فثمة اتجاه معارض لفكرة تأسس نظام دولي جديد، وهو اتجاه يوجد أساسا في بلاد العالم الثالث. أما في الولايات المتحدة فيتجه الفكر إلى الأخذ باتجاه أحادي يضع الولايات المتحدة، بالطبع منفردة، على رأس النظام الدولي. ويرى اتجاه ثالث أن بنية النظام الدولي لم تتغير، لأنه ظل ثنائيا، ولكنه تغير من ثنائية الشرق الاشتراكي والغرب الرأسمالي، إلى ثنائية الشمال المتقدم والجنوب المتخلف. والاتجاه الرابع يرى أن النظام الدولي أصبح متعدد الأقطاب، نتيجة تنافس عدد من القوى الكبرى، الأمر الذي أنهى مرحلة القطبية الأحادية. أما الاتجاه الخامس والأخير، فيرى أن التوجه الرئيسي هو التوجه نحو العالمية، من حيث القضايا (أجندة النظام)، أو الاعتماد المتبادل كأساس لحركة العلاقات الدولية الاقتصادية والثقافية (٢٢).

منذ تسعينات القرن العشرين، قامت الولايات المتحدة ومن خلال حرب الخليج والحرب الكوسوفية والحرب الأفغانية، وعن طريق تطوير اقتصاد المعلومات، بحشد المزيد من الثروات السياسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها، وظلت قوتها العظمى الوحيدة في تصاعد مستمر. غير أن الدول التي لا ترغب في إغاظة الولايات المتحدة حفاظا على مصالحها الخاصة، ازدادت شكوكها تجاه التعددية القطبية أكثر فأكثر لعدة أسباب أهمها، تمثل التعددية القطبية توجه استراتيجي موجه ضد عالم القطب الواحد، وكذلك إن التعددية القطبية تؤكد على دور الدول الكبرى والتزاماتها، دون أن تعطي وزنا كافيا لمطالب الدول النامية ومصالحها، والسبب الآخر هو، من الصعب عليها تحديد إي من النمطين، القطب الواحد أم التعددية القطبية، سوف يخدم أكثر مصلحة السلام العالمي واستقراره.

إن مواقف الدول من التعددية القطبية يتلخص بشكل أساسي في عدة محاور أولهما، الدول المعارضة لها بشكل حازم والمتمثلة في الولايات المتحدة وبريطانيا اللتان لا تحملان أي انطباعات حسنة تجاه التعددية القطبية، وتعملان على تزعم الولايات المتحدة للعالم، وترى كلاهما بأن في عالم القطب الواحد فقط يمكن ضمان السلام والحرية والديمقراطية. وثانيا، الدول مثل روسيا وألمانيا وفرنسا قاصرة القوة، على الرغم من أن فرنسا وألمانيا يميلان لاتجاه التعددية القطبية، إلا أنهما تقفا موقف الاعتراف والتأكيد على دور الولايات المتحدة، ولم يحدث لهما وأن أيدتا التعددية القطبية دون أي تحفظ. وأخيرا، الدول التي تقف موقف اللامبالاة أو التذبذب بين اليمين واليسار والمتمثلة في الدول النامية التي تعيش متذبذبة بين التيارين السابقين، فبالنسبة لهذه الدول لا ترى أي علاقة وثيقة لها بالقطب الواحد أو بالتعددية القطبية (٢٣).

وتشير التطورات السياسية إلى أن النظام الدولي الحالي يتغير نحو شكل جديد من أشكال النظام الدولي وصفته بأنه نظام متعدد النظم. ويقصد بنظام التعددية القطبية» وجود أكثر من قوتين عظميين في النظام الدولي تمتلك من مصادر القوة الاقتصادية، والعسكرية، والتكنولوجية، والحضارية، ما يؤهلها للمنافسة على الساحة الدولية. ويهيمن كل من التنافس والتعاون بين هذه القوى على السياسات في النظام الدولي وتشير التعددية القطبية، كمرحلة، إلى الحالة التي تتوفر فيها ثلاثة من القوى الدولية العظمى، أو أكثر، حيث يعتبر النظام الدولي في القرن التاسع عشر المثال التقليدي على تلك المرحلة»(٢٤).

وهناك من يرى أن التعددية القطبية هي» توزيع القوة العالمية حيث تتمتع أكثر من دولتين بمستويات مماثلة من النفوذ. وقد تكون التعددية القطبية أكثر استقرارا من القطبية الثنائية، حيث تكتسب القوى العظمى القوة

٢٢ علوي، مصطفى، القطب المنفرد الولايات المتحدة الأمريكية والتغيير في هيكل النظام العالمي، الناشر، المركز العربي للبحوث والدراسات، ٢٠١٥م، https://www.acrseg.org

٢٣ من التعددية القطبية إلى نظرية تعددية الأطراف، ٢٠٠٣م، www.arbsino.com

٢٤ شمسانة، أسيل، النظام الدولي منذ الحرب الباردة إلى اليوم دراسة في النظام الدولي الجديد في القرن الحادي والعشرين، رسالة ماجستير، الناشر، جامعة بيرزيت، فلسطين، ص٧٤

"التكتل الاقتصادي «عملية وحالة، فبوصفه عملية لأنه يتضمن التدابير التي يراد منها إلغاء التمييز بين الوحدات الاقتصادية المنتمية إلى دول قومية مختلفة، أما إذا تم النظر إليه على أنه حالة فإنه بالإمكان أن يتمثل في انتفاء مختلف صور التفرقة بين الاقتصاديات القومية؛ وبذلك فإن التكتل الاقتصادي هو عملية وحالة تستدعي اتخاذ الإجراءات اللازمة من أجل الحد من الحواجز التي تعيق هذا التكتل"

من خلال التحالفات التي لا تشكل تحدياً مباشرا للقوى الأخرى. ومن جهة أخرى، يمكن أن تعاني الأنظمة المتعددة القطبية من سوء التقدير للدول، وتعريض الأمن للخطر، وتخطئ في حساباتها للاستجابات المطلوبة في مواجهة التهديدات»(٢٥).

وذهب آخرون إلى تعريف نظام متعددة القطبية على أنه» وجود مجموعة من قوى تمتلك مصادر القوة القومية والنفوذ ما يجعلها تتبوأ مركزا هاما على قمة الهرم الدولي، وبالشكل الذي يجعلها متميزة عن غيرها، ومتكافئة نسبيا، إن لم تكن متعادلة تقريبا مع بعضها البعض، والتاريخ حافل بأمثلة عدة لهذا النموذج القطبي، ففي عام ١٧٠٠م، كانت القوى العظمى تتمثل بالإمبراطورية العثمانية وهولندا والنمسا وفرنسا وبريطانيا»(٢٦).

ويعيد نظام التعددية القطبية سياسات توازن القوى إلى الساحة الدولية والتي كانت موجودة في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وتتميز التعددية القطبية» أنها تعتمد على عامل الدبلوماسية بمعنى أن ما يتوجب عليك القيام به معي أهم من ماذا تستطيع عمله لي، لأنه لا يوجد أحد منا سيكون قادرا على القيام بشيء دون الآخر، ويعتبر التعاون في نظام التعددية القطبية أمرا هاما ينطوي على كيفية تصرف القطب الواحد ضمن أقطاب متعددة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن التعددية القطبية لا تسمح لأي قطب بتحدي قطب آخر في المنظومة. فالعلاقات بين الأقطاب تُبنى على الحاجة والفعالية والمصلحة. وتنتج عن التعددية القطبية نظام توازن قوى، وبهذا يسود نمط التوافق والمساومات بحيث لا توجد أيديولوجية واحدة أو أيديولوجية مسيطرة بل توجد مرونة تتسع لتنوع فكري كبير دون جمود إيديولوجي»(٢٧).

بناء عليه يمكن القول بان الفترة من العام ١٩٤٥م – ١٩٩٠م كانت فترة للثنائية القطبية المحكمة، من ثم في الفترة من ١٩٩١م – ٢٠٠٠م هي فترة الأحادية القطبية أو المركزية الأميركية، وبناء على العديد من المعطيات والتحولات الجيوسياسة والجيواستراتيجية الدولية تعتبر الفترة من٢٠٠١م، وحتى العام ٢٠١٥م، هي الفترة التي سقطت فيها أسطورة النظام القطبي الواحد، ليبرز نظام عالمي قطبي جديد هو مزيج يجمع بين أوهام القطب الواحد الذي لا زالت تشكله الولايات المتحدة الأميركية عبر قوتها الراهنة على الخارطة الجيوسياسة العالمية وخيالات ثنائية القطب بين هذه الأخيرة وروسيا التي لا زالت تحمل فوق كتفها حقيبة الإمبراطورية السوفيتية بكل ما تحتويه من قوة، وتحالفات فضفاضة سرعان ما تتغير بتغير المصالح الجيوسياسة، وبروز قوى دولية نطلق عليها بالمتنمرين الجدد الباحثين عن مكانة لهم على رقعة الشطرنج الجيوسياسة العالمية سواء كانت في الحدود الإقليمية أو القارية أو حتى

٢٥ تصور المستقبل القطبية الأحادية أم التعددية، ٢٠١٤م، ae.ac.ndc.www

٢٦ الهزايمة، محمد عوض، قضايا دولية، جامعة العلوم التطبيقية، عمان، ٢٠٠٥م، ص٢١

٢٧ علوي، مصطفى، القطب المنفرد الولايات المتحدة الأمريكية والتغيير في هيكل النظام العالمي، مصدر سابق

الدولية(٢٨).

والمتتبع لحال وواقع المشهد السياسي والجيوسياسي العالمي الراهن يلاحظ أن العالم مقبل على تراجع الهيمنة الأميركية، مع صعود نظام التعددية القطبية الفضفاضة والذي نتوقع استمراره حتى مطلع العقد الثالث من هذا القرن، حيث أن العالم مقبل على تخوم نظام عالمي جديد، وهو ما يطلق عليه بنظام حكم الكثرة أو نظام (البولياركي (والذي سيعيشه العالم وسيرزح تحت وطأته لسنوات طويلة من المحتمل أن تستمر الى نهاية هذا القرن. إذ أن القطبية المركزية أو حتى الثنائية القطبية التي ورثتها كل من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا لم تعد قادرة على إحكام قبضتها على رقعة الشطرنج الدولية، بل حتى أن العديد من القوى الإقليمية أن صح وصفها في أوربا وآسيا كالاتحاد الأوربي وتركيا وإيران والصين والهند على سبيل المثال لم تعد تملك أي نوع من الجذب القادر على بناء تكتلات محكمة تربطها مصالح مشتركة لوقت طويل، لكن من الممكن التعويل عليها لبناء تحالفات استقرار واتزان في هياكل البناء السياسي العالمي، حيث أن السلطة والقوة في منتصف العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين باتت سلطة متعددة الأبعاد ومبعثرة كثيرا بما لا يسمح بذلك النوع من قوة الجذب التي كانت تمارسها مراكز الاستقطاب القديمة أو الأطراف المهيمنة.

كما أن الحلفاء والأصدقاء في هذا النوع من الأنظمة العالمية وفي وضع ومكان وزمان معين هم أعداء وخصوم في مكان وزمان ووضع آخر، حيث علاقات الخصومة المتشكلة ستغلب على علاقات التحالف في العديد من القضايا من جهة، وذلك بسبب العدد الكبير من اللاعبين ونوعياتهم التي تجعل من النظام العالمي نظام فوضوي ومتناقض التركيب، سريع التقلبات والصداقات والعداوات، في ظل غياب شركاء تحالف يعول عليهم، مما يجعل من تشكيل التحالفات وديمومتها أمر بالغ الصعوبة، وبالتالي وبناء عليه فانه من المفترض أن يكون نظام حكم الكثرة المتوقع أن يبرز على رقعة الشطرنج العالمية مع مطلع العقد الثالث من القرن الواحد والعشرين سيكون النظام الأشد نزوعا للحرب والصراعات والاقتتال العابر للقارات، إلا انه لن ينطوي على حرب الجميع ضد الجميع نتيجة لوجود صلات التقاطع والتداخل بين الأمم، لذا ستتركز تلك الحروب والصراعات حول جيوب وبقع عداوة مفرطة بين أطراف أحادية أكثر منها عالمية مجتمعة وخصوصا تلك التي تغرق في بحر من ثقافة العنف والطائفية والحزبية والمذهبية والقومية المفرطة، ومن المتوقع أن يبرز ذلك بشكل أكثر وضوح في الشرق الأوسط والبيت السوفيتي القديم(٢٩).

المبحث الثالث

سمات نظام التعددية القطبية

يشير علماء السياسة الدولية إلى أن نظام التعددية القطبية يوفر نظاما أكثر استقرارا في النظام الدولي وذلك لسببين، الأول، تزداد أنماط التفاعل تعقيدا وتنوعا في عالم التعددية القطبية مما يقلل احتمالية تطوير أية أعمال عدائية من طرف ضد آخر، وثانيا، فإن ازدياد عدد الأقطاب يفرض على كل لاعب في هذا النظام أن يوزع اهتمامه بين جميع هذه الأقطاب. ويعتقد الواقعيون التقليديون أن استقرار النظام الدولي مرهون بتعدد أقطابه، حيث يضمن ذلك توزيع القوة بشكل مرن، مما يؤدي إلى تحالفات ناجحة. في الوقت عينه يرى بعض المفكرين أن تعدد الأقطاب يضمن الاستقرار الدولي، فالتعددية القطبية توفر فرصا أكبر للتفاعل بين الدول، ما يزيد من العلاقات الدولية السلمية. وتتشكل التحالفات بين الدول بما يتناسب وكل قضية على حدة، فتستطيع الدولة أن يكون لها تحالفا عسكريا مع دولة ما، وتحالفا اقتصاديا مع دولة أخرى، مما يؤدي إلى وجود علاقات متبادلة ومتشعبة ومتقاطعة بين الدول، وهذا بدوره يؤدي إلى تحقيق الاستقرار، إضافة إلى أنه يقلل

٢٨ الفطيسي، محمد بن سعيد، التاريخ الموجز للأنظمة القطبية، ٢٠١٦م، https://www.raialyoum.com

٢٩ العالم على تخوم نظام حكم الكثرة (البولياركي)، ٢٠١٥م، https://annabaa.org

من احتمالات تصاعد أي عداوة لتصل إلى حالة الحرب. وكذلك فإنه يُحجم سباق التسلح، بحيث أي زيادة في تسلح دول ما لن تُأخذ على أنها موجه إلى القطب المضاد، كما يحدث في الثنائية القطبية.

على الرغم من أن التسلح في نظام التعددية القطبية يعتبر أقل خطر من نظام الثنائية القطبية، إلا أن الخطر الذي يهدد استقرار نظام التعددية القطبية يكمن في انتشار الأسلحة النووية بين الدول. فالفكرة تقوم على توازن التحالفات والتنقل فيما بينها للوصول إلى توازن القوى المطلوب الذي يضمن السلم في النظام الدولي. وترى الواقعية التقليدية أن التعددية القطبية هي الحل الأمثل للحد من المنافسة في التسلح من خلال خلق بيئة دولية سلمية أكثر من غيرها من الأنظمة. فمواجهة ازدياد التسلح لدى دولة ما،لا يقتصر على الدولة المعارضة لها بل على جميع أطراف النظام. ويتميز نظام التعددية القطبية، بأنه نظام مرن يوفر العديد من الفرص التفاعلية بين أقطابه، حيث يوجد العديد من العلاقات الديناميكية الممكنة في هذا النظام. ويؤمن الواقعيون التقليديون أنه طالما توجد حرية في تنقل القوى من تحالف إلى آخر، ستفضل هذه القوى سياسات توازن القوى (٣٠).

إن من أبرز ملامح النظام الدولي الجديد هو» اتجاهه نحو التعامل (الكتلي). أي إلى الكتل والمجموعات الكبرى، حيث لم تعد الدولة مرتكزا أساسيا في رسم تصورات المستقبل مهما كان من حجم لهذه الدولة على المستوى السياسي أو العسكري أو الاقتصادي أو السكاني، ولذا فإن أنظمة الدول المستقلة لن تجد لها مكاناً بارزا إلا من خلال تكتلات كبرى بدت ملامحها من المجموعة الأوربية التي تشكل أقوى قوة اقتصادية إلا أن هذه التكتلات لا تتوقف عند نقطة المصالح الاقتصادية بل تمد نظرها إلى أفق بعيدة أرحب وأشمل للتحول بعد ذلك إلى كتل سياسية كبرى. ولعل نموذج الوحدة الأوربية واضح في هذا الأمر فالعصر القادم هو عصر التكتلات أو المجموعات السياسية الكبرى الذي تحتفظ فيه الدول القطرية بشخصيتها القانونية ومكانتها وسيادتها، إلا أنها تدور في فلك واسع هو الكتلة التي تنتمي إليها»(٣١).

ويقول مارتن كابلان" إن اللاعبين في نظام التعددية القطبية يحاولون أن يكونوا غير مختلفين عن المجموعة التي يتحالفون معها، حيث تسعى هذه الأطراف إلى ضمن نظام توازن القوى إلى زيادة قدراتها عن طريق عمليات التفاوض مع بعضها"(٣٢).

هكذا كان لتلك المتغيرات والتحولات العالمية المتلاحقة والسريعة التي تسيدت أيديولوجيا الصراع وفلسفة السياسة وأنظمة الحكم والعلاقات الدولية خلال العقد الأول من هذا القرن، انعكاساتها الاستثنائية على الصورة المتوقعة والمحتملة لبنية النظام العالمي للعقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، ومن أهم تلك التحولات والنتائج المتوقع تسيدها الخارطة الجيوسياسة العالمية بدء نشوء النظام ألتعددي، وتحديدا (التعددية القطبية الفضفاضة)، والتي ستكون السمة السائدة بشكل كامل خلال العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين.

ومن هذا المنطلق يؤكد فقهاء السياسة على بدء نشوء إرهاصات هذا النظام العالمي وتشكله مع مطلع العقد الثاني من هذا القرن. ولا ينشأ هذا النظام في اغلب الأحيان سوى في ظل التيارات السياسية العالمية الناجّة عن استراتيجيات القوى الرافضة للهيمنة الإمبراطورية، ويرى) سيوم براون)، أستاذ التعاون الدولي في قسم العلوم السياسية بجامعة (براندیز)، أن نظام التعددية القطبية الفضفاضة ينشأ على شكل

٣٠ شمسانة، أسيل، النظام الدولي منذ الحرب الباردة إلى اليوم دراسة في النظام الدولي الجديد في القرن الحادي والعشرين، مصدر سابق، ص٧٧ص٧٨

٣١ موسى، حسين خلف، النظام العالمي الجديد خصائصه وسماته، ٢٠١٥م، https://:democraticac.de

٣٢ Inter- in Process and System ,Kaplan .A Morton ,Politics national ,1957,Ltd Sons & Wiley John :York New) p66

تحالفات بدلا من تكتلات، وليس بالضرورة هنا أن تتشكل تلك التحالفات بين الأنظمة الدولية على أسس سياسية فقط، بل ربما تكون وراء ذلك دوافع اقتصادية أو عسكرية أو حتى أيديولوجية وثقافية، ولكن الهدف الرئيسي الذي لا يمكن أن يتغير، يدور حول محور رفض الهيمنة والغطرسة للدول الامبريالية، ويسعى للبحث عن تحالفات مستقلة وقوية تضمن لأعضاء ذلك التحالف المكانة والأمن والاستقرار، وقدرا لا باس به من الهامش السياسي الذي يمكنهم من خلاله متابعة سياساتهم الخارجية الخاصة(٣٣).

وعلى أثر التحولات التي يشهدها النظام الدولي على مستوى القوة والمكانة والأدوار بالنسبة للقوى الفاعلة فيه، فإن اتجاها جديدا برز في هذا الإطار يطرح تغير نمط التوازنات الدولية ويستند هذا الطرح الى نظرية مفادها» وجود دورة انتقالية منهجية للقوة أو تحول القوة، من شأنها أن تفضي الى مرحلة من التوازن بالتركيز على القوة وتفاعلاتها مع هيكل النظام. وعليه تركز دورة القوة على تطوير معنى الدور في السياسة الخارجية كونه معبرا عنها في التعامل مع بعدها سلوكا، والابتعاد عن الترابط بين السلوك والمعاني التي اكتسبها من الناحية النظرية والمؤسساتية. كما وترفض نظرية دورة القوة القول بان القيادة تستند الى التحكم من قبل الدولة الأقوى ومدى ارتباطه بالهيمنة. وعوضا عن ذلك، تمتاز مفاهيم (القوة والدور)، بالتعددية والشراكة أو توزعها على دول عدة رغم غياب التكافؤ بينها نتيجة لحدوث تغيير في معطيات البيئة الدولية والدور الدولي انطلاقا من قدرة الدولة على توظيف بعض المتغيرات لصالحها استراتيجيا»(٣٤).

وتطرح نظرية تحول القوة، أن الدولة العظمى بدلا من أن تمارس السيطرة على مسار التفاعلات داخل المنظومة، تؤدي دور القيادة بالشراكة مع دول أخرى قادرة على ممارسة دور مؤثر في الشؤون الدولية أو الدخول في تفاعلات القضايا الدولية بقدراتها أو المشاركة في إدارة القوة والتفاعلات، بيد أنه يتطلب تفاهمات بين هذه القوى على طبيعة القواعد وليس أن يتم فرضها من قبل هذه القوة. وهذا يبدو واضحا في بعض ملامحه في المرحلة المعاصرة بعد دخول روسيا بقوة في تفاعلات الشرق الأوسط الى جانب الدور التركي والإيراني وما يجري من تفاهمات على صعيد الترتيبات الأمنية. وتقوم النظرية على أن استقرار (النسق الدولي)، أو الحروب أو السلام، لا تشير الى نمط معين للنسق ولكن المهم هو التحول نحو نسق أخر. وهنا لابد من الإشارة الى وجود صعوبات في إيجاد حالة من الانفصال بين سلوك دولة ما عن النسق الدولي، معنى ذلك إنه مخرجات لتفاعل بين الدول الكبرى فيما يتعلق بالعدد والقوة النسبية والدور وتوازن القوة. بيد أن لو كانت الدولة الأكثر قوة تعاني من تراجع أو أفول، تستمر في مشاركتها في مسؤوليات حفظ النظام وتيسير مهمة تعديل دور هذه القوة أثناء تحول وفي المرحلة المعاصرة فأن النظام الدولي يمر بمرحلة العودة الى الوضع الدولي من جديد تمهيدا لمرحلة متغيرة ليتشكل على وفق الأحداث والمؤثرات الجارية من صعود قوى دولية ومدى تأثيرها في صياغة العلاقات والتفاعلات الدولية وقدرتها على إدارة القضايا الدولية مثل الدور الذي تمارسه روسيا في الأزمة السورية وتمدد نطاق نفوذها في الشرق الأوسط على سبيل المثال، كذلك الصعود الاقتصادي المضطرد للصين واسيا الصاعدة الى جانب التوجه نحو المشاركة في السياسة الأمريكية لتحمل الأعباء الدولية وشكل التوازنات الإقليمية الجارية في ظل تصاعد سياسات المحاور الاستراتيجية الجاري تأسيسها وفق تغير نمطية الصراع(٣٥).

٣٣ النظام العالمي القادم من الأحادية القطبية إلى التعددية القطبية، ٢٠١٠م، cc.wata.www

٣٤ حسين، حيدر علي، نحو قطبية جديدة في النظام الدولي، بحث، مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية، ص٢٤، iq.edu.uomustamsiriyan.mjais.www

٣٥ للمزيد راجع، كنيدي، بول، القوى العظمى. التغييرات الاقتصادية والصراع العسكري، ترجمة، علوب، عبد الوهاب، الناشر، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣م، س٦٩١ص٦٩٢، وثابت، أحمد، مكانة الولايات المتحدة في النظام العالمي. دور القوة والتوازن الدولي الجديد، الناشر، مجلة السياسة الدولية، ٢٠٠٨م، العدد ١٧١، ص٨

يمثل الاستقرار الأمني هدفاً «قد يدفع بعض الدول لعقد اتفاقيات إقليمية، ولهذا يكون الدافع وراء ضم دول معينة للتكتل دافعاً أمنياً ورغبة من الحكومات في المحافظة على سيادتها بالتعاون مع دول أخرى، هكذا تم مع مجتمع الفحم والصلب الأوربي والمجتمع الأوربي، فالطريق غير المباشر لتقوية الأمن من خلال تكامل اقتصادي يعتبر خطوة أولية أساسية، وكذلك اتجاه الاتحاد الأوروبي لضم دول جنوب البحر المتوسط في اتفاقات ثنائية واتفاقات شراكة

ولعل ذلك يبدو واضحا فيما يحدث في الشرق الأوسط من تحولات كبرى التي تقع ضمن العمليات المعقدة للانتقال إلى عالم ما بعد الغرب وأبرزها واقعيا، الانغماس العسكري الروسي في سوريا، وأوكرانيا، والتفاهم الروسي الصيني في الأمم المتحدة، هو جزء أصيل من عملية الانتقال إلى عالم ما بعد الغرب، كذلك الموقف اتجاه إيران من جميع الأطراف سواء الغربية أو من روسيا والصين، ونفس الأمر مع التحركات الصينية والروسية في إفريقيا، كلها تصب في هذا الاتجاه وتعززه.

الجدير بالذكر أن هذه الأحداث لم تكن غائبة عن رؤية مفصلة (لهنري كيسنجر)، في كتاباته للنظام الجديد، حيث يطرح رؤيته في ضوء التطورات الدولية، بالتزامن مع بروز معطيات دولية جديدة مثل الأزمات في بعض الدول العربية كالحرب في ليبيا، وتمدد نفوذ الجماعات الإرهابية في سوريا والعراق، وانتقال عدوى الإرهاب الى مناطق أخرى مثل مصر، وأوربا التي شهدت عدة دول فيها هجمات إرهابية، وكذلك الحرب الدولية وتحالفاتها ضد الإرهاب، وعودة التنافس والتوتر في علاقات الولايات المتحدة مع روسيا والصين، وتباطؤ نمو الاقتصاد العالمي، كل هذه المعطيات وضعت النظام العالمي في أزمة تستوجب إعادة التفكير في تأسيس نظام جديد يسعى للخروج من مأزق النظام الحالي بتصدعاته المختلفة. وفي إطار الحاجة إلى تشكيل نظام عالمي بصيغة تشاركيه، فان هناك حاجة حقيقية لإعادة النظر في النظام الحالي الذي تعرض لتصدعات متعددة أبرزها، اختراق منظومة الدولة على عدة مستويات، الصراع الاقتصادي السياسي، وعدم وجود آلية فعالية للتشاور بين القوى العظمى (٣٦).

المبحث الرابع

أقطاب نظام التعددية القطبية

بعيدا عن مزاعم القوة الأمريكية المنفردة وأوهامها على نحو ما يروج له بعض المفكرين، فما هي يا ترى الأقطاب الدولية التي يتوقع لها أن تحتل مكانتها في النظام العالمي الجديد لتتحول به مستقبلا من الأحادية القطبية إلى التعددية القطبية خلال السنوات القادمة، بيد أن معظم الأدبيات تتفق على وجود عدة أقطاب في نظام التعددية القطبية، وهي (الوليات المتحدة الأمريكية، والصين، وروسيا، والاتحاد الأوروبي، واليابان، والهند). ويتطلب نظام التعددية القطبية من الصين وروسيا والاتحاد الأوربي واليابان والهند، أن تبذل جهودا هائلة من أجل منافسة القدرات الأمريكية، حيث أن طبيعة استقرار نظام التعددية القطبية يعتمد على عدم قدرة أي قوة منفردة من السيطرة على الآخرين. ويتوقع من هذه القوى العمل على تغيير النظام الدولي، حيث أنها تظهر رغبتها في الحصول على مركز مرموق في النظام

٣٦ بالخيرات، حسين، مستقبل النظام الدولي: رؤية استشرافية بنائية، الناشر، المعهد العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية، القاهرة، ٢٠١٧م، https://www.eipss-eg.org و عارف، نصر، العرب وعالم ما بعد الغرب، https://www.ahram.org.eg.

الدولي، والوصول للقوة التي تمكنها من التأثير في السياسات الدولية.

سيتم فيما يلي إيجاز أقطاب نظام التعددية القطبية من خلال دارسة المجالات الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية والحضارية، وكذلك السياسة الخارجية التي يتبعها كل قطب، وهذه القوى هي:

أولا. روسيا:

تعتبر روسيا أحد أهم الأقطاب في نظام التعددية القطبية حيث تحاول استعادة مكانتها ودورها كقوة عظمى على مختلف الأصعدة، حتى أضحت من الأقطاب الدولية التي تستطيع التأثير في مجريات الأحداث على الساحة الدولية، في محاولة منها لإعادة توزيع القوة في النظام الدولي. شرع صناع القرار في روسيا منذ مطلع الألفية الثالثة في سياسة تشجيع التعددية القطبية العالمية ردا على نظام الأحادية القطبية الذي سيطرت عليه الولايات المتحدة، وقد اتخذت هذه السياسة عدة أشكال، منها، دعم المنظمات الدولية بهدف تقييد الأحادية القطبية الأمريكية، ومحاولة بناء تحالفات مناهضة للهيمنة الأمريكية بين الدول التي تشاركها عدم الرضا على هذه الأحادية القطبية. ففي المجال الاقتصادي تعتبر روسيا دولة غنية بالموارد الطبيعية مثل النفط والغاز، لاسيما أنها تحوز على (٣٥٪) من احتياطات الغاز الطبيعي. وقد اتبعت روسيا في الفترة الأخيرة سياسات اقتصادية تقوم على الليبرالية الاقتصادية واقتصاد السوق، وتبنت عدد من الإصلاحات المالية والإدارية لتتناسب والنفوذ الروسي المتصاعد الذي يتزامن مع نمو الرأسمالية الروسية وزيادة حجم الطبقة الوسطى في المجتمع الروسي. أما في المجال العسكري فتمتلك روسيا قدرات عسكرية هائلة، فقد ورثت الاتحاد السوفيتي المنافس الأكبر للولايات المتحدة على قيادة العالم أثناء الحرب الباردة بما يمتلكه من قدرات وإمكانيات، بالإضافة إلى مكانته الدولية التي تمثلت بمقعده في مجلس الأمن (٣٧).

أما من الناحية التكنولوجية، تتقدم روسيا في حقول التكنولوجيا الحيوية بشكل ملحوظ، ومنها مجالات التقنيات الحيوية الزراعية والبيئية، والتقنيات الحيوية الصناعية والغذائية، والتقنيات الحيوية المائية، يضاف إلى ذلك التقدم في مجال الطب والرعاية الصحية. وفي المجال الحضاري تحاول روسيا تحسين صورتها في المجتمع الدولي والانفتاح على الآخرين. فقد شهدت الأعوام الأخيرة تصاعدا كبيرا في استخدام روسيا للقوة الناعمة في سياستها الخارجية. وترى روسيا أن قوتها الناعمة هي، مجموعة من الأدوات الشاملة تقوم باستغلال إمكانات المجتمع المدني، والإعلام، والأنماط الروسية الثقافية، والتقنيات البديلة عن الدبلوماسية التقليدية والتي أصبحت عناصر لا غنى عنها في العلاقات الدولية الحديثة. وفي مجال السياسة الخارجية تهدف روسيا إلى الدفع نحو دور روسي أكبر في عالم متعدد الأقطاب، والعمل على استرجاع دورها في مختلف مناطق العالم. يشير تصور روسيا لسياستها الخارجية إلى أن العلاقات الدولية تتجه نحو تشكيل نظام دولي متعدد الأقطاب، فقد ارتكزت أوليات السياسة الخارجية الروسية على عدة أمور أهمها، اعتراف روسيا بأولوية المبادئ الأساسية للقانون الدولي كإطار تنظيمي للعلاقات بين الشعوب، والسعي نحو أن يكون العالم متعدد الأقطاب مع الرفض الواضح لعالم تسوده الأحادية القطبية، التي تجلب عدم الاستقرار وتهدد بالصراعات، والتأكيد على عدم الدخول في مواجهات مع أي بلد آخر، وإقامة علاقات ودية مع أوروبا، والولايات المتحدة، وأكبر عدد ممكن من البلدان»(٣٨).

ثانيا. الصين:

يتمحور النقاش حول صعود الصين منذ

٣٧ يوسف، أيمن طلال، روسيا البوتينية بين الاوتقراطية الداخلية والأوليات الجيوبولتيكية الخارجية، ٢٠٠٠م-٢٠٠٨م، الناشر، مجلة المستقبل العربي، ٢٠٠٨م، العدد ٣٥٨، ص٧٩ وذياب، أحمد، شراكة اقتصادية: محددات الدور الروسي في وسط شرق آسيا، مجلة السياسة الدولية، ٢٠١٤م، المجلد ٥٠، العدد ١٩٥، ص١١٣

٣٨ فريدمان، جورج، مبدأ ميدفيدف والاستراتيجية الأمريكية، الناشر، مجلة المستقبل العربي، ٢٠٠٨م، العدد ٣٥٦، ص١٢٣ص١٢٤

بدايات التسعينيات حول محورين، الأول، مدى سرعة نمو القدرات الاقتصادية والعسكرية الصينية، والثاني، كيف يتوجب على العالم الرد والتفاعل مع هذا الصعود. لقد طرأت تغيرات أساسية في نظرة الصين للمجتمع الدولي في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينات من القرن الماضي بسبب التطورات الداخلية التي أحدثتها فيما يتعلق في هويتها الوطنية وثقافتها الاستراتيجية، ومصالحها الأمنية، بالإضافة إلى إعطاء الأولوية الأكبر لتنمية اقتصادها الوطني.

فقد قامت الصين بالابتعاد عن موقفها الثوري تجاه المجتمع الدولي من خلال إعادة تعريف اهتماماتها الأمنية، وقد عمل هذا التغير على تركيزها على اهتمامات تعاونية أكثر تحافظ على الاستقرار والمشاركة في الاقتصاد السياسي العالمي من خلال المشاركة في المؤسسات الدولية المختلفة. ففي المجال الاقتصادي تعتبر الصين أكبر قوة اقتصادية في العالم. وتعد من الدول التي تشق طريقها نحو التطور، والثروة، والقوة وتقوم بإحداث تغييرات في الاقتصاد الدولي، وقد سجلت الصين أعلى معدل للنمو الاقتصادي منذ انضمامها لمنظمة التجارة العالمية فوصل ترتيب إجمالي الناتج المحلي الصيني في ذلك الوقت المرتبة الرابعة على مستوى العالم.

ونتيجة للتطور الاقتصادي الكبير، بدأت الصين بتقليل اعتمادها على الدولار الأمريكي، عن طريق اعتمادها على العملات المحلية في التجارة، وهو ما قلل من الرسوم التي تدفعها في عمليات تحويل الدولار. أما في المجال العسكري تحتل الصين المرتبة الثالثة في ترتيب الدول من حيث القوة العسكرية بعد الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، حيث تعطي الصين اهتمام كبيرا لزيادة التسلح والتطوير العسكري ويتزامن هذا مع محاولتها الهيمنة على إقليمها. فعلى سبيل المثال، على الرغم من كون منطقة بحر جنوب الصين منطقة نزاع بين كل من الصين، وفيتنام، والفلبين، وماليزيا، وسلطنة بروناي، إلا أن الصين تعتبر أن لها الأحقية التاريخية فيه. وفي مجال التكنولوجيا تركز الصين على استخدام التكنولوجيا في تطوير نظامها البيئي. وتؤكد السياسات الصينية الأخيرة على ضرورة دفع عملية التنمية وتركيز الجهود على تسوية المشاكل البيئية البارزة، وزيادة قوة حماية النظام التقني والتكنولوجي. وفي مجال السياسة الخارجية تحاول الصين تحقيق نهضة الأمة الصينية عن طريق زيادة احترام المجتمع الدولي لها من ناحية، وتركيز سياستها الخارجية على دول الجوار من ناحية أخرى. لقد اتبعت الصين استراتيجيات تعتمد على تبني تحالفات حقيقية لتنافس الولايات المتحدة، وقد قامت بتأسيس ما يقارب (٧٠)، شراكة إستراتيجية من ضمنها تحالفات مع حلفاء الولايات المتحدة، كبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا وايطاليا والتي اقتصرت على القطاع الاقتصادي. وتعمل الصين على وجود أربعة فئات من العلاقات الثنائية وهي، علاقة التعاون والصداقة مع روسيا ودول أخرى، والعلاقات العادية مع فرنسا وألمانيا، والعلاقة ذات الطابع الجديد بين القوى العظمى والولايات المتحدة، وعلاقة التنافس التي تصف العلاقات الحالية مع اليابان (٣٩).

ثالثا. الاتحاد الأوربي:

يعد الاتحاد الأوروبي أحد أهم اللاعبين المؤثرين في النظام الدولي بما يملكه من مقومات اقتصادية، وعسكرية، وتكنولوجية وحضارية وسياسات خارجية تعمل معا من أجل الدفع نحو نظام تعددي على الساحة الدولية. على الرغم من أن الاتحاد الأوروبي بدأ كاتحاد اقتصادي لكنه ما لبث أن تطور ليشمل المجالات السياسية، والمناخية، والصحية، والعلاقات الخارجية، والأمن. وينظر إلى التكامل الأوربي على أنه واضح لمشروع سلام يهدف إلى التغلب على عداوات الحروب ووضع الأسس لسلام مستقر.

لقد حُظي الجانب الاقتصادي باهتمام كبير

٣٩ للمزيد راجع، ناي، جوزيف، حتمية القيادة الطبيعية المتغيرة للقوة الأمريكية، الناشر، مركز الكتب الأردني، عمان، ١٩٩١م، ص١٢٦ص١٢٧ و ناي، جوزيف، المنازعات الدولية: مقدمة للنظرية والتاريخ، ترجمة، الجمل، أحمد، الناشر، دار الفجر، ص٦٤ص٦٥

في أروقة الاتحاد الأوروبي. وجاءت أولى خطواته لتعزيز التعاون الاقتصادي بين الدول الأعضاء، إذ أن الدول التي تربطها علاقات اقتصادية مع بعضها البعض تصبح مترابطة وتحاول تفادي حدوث صراع فيما بينهما. وقد تطورت فكرة الاتحاد لتشمل إنشاء قوة أوروبية مشتركة تدافع عن مصالح الأعضاء، وحماية أي عضو من أية تهديدات يتعرض لها بحيث أن قوة التكامل الاقتصادي والتجاري بين دول الاتحاد الأوروبي ستنعكس بشكل إيجابي على قدرته على تشكيل قوة عسكرية مستدامة.

ويقوم الاتحاد الأوروبي بتطوير موارده الضخمة وتوظيفها في مجالات الطاقة والمعرفة والتكنولوجيا المتطورة من أجل بقاءه كقوة حديثة مواكبة للتطورات الحديثة. أما في المجال العسكري، فعلى الرغم من أن أغلب دول الاتحاد الأوربي تنتمي إلى حلف شمال الأطلسي (الناتو)، وترتبط معها باتفاقيات دفاع مشتركة، إلا أنه يوجد توجهات جدية لدى الاتحاد الأوروبي للعمل على تقوية قوته العسكرية وتشكيل قاعدة عسكرية مشتركة لدول الاتحاد. وفي السياسة الخارجية يعتبر الاتحاد الأوروبي فاعلا رئيسا في الكثير من القضايا الدولية على الصعيدين الإقليمي والعالمي على الرغم من إشكاليته الأساسية والتي تكمن في عدم تشكله من دولة سيادية، ما يجعل تحرك كوحدة واحدة أمرا صعبا. لكن الاتحاد الأوربي يعالج القضايا الدولية بصوت واحد من منطلق سياسته الخارجية والأمنية المشتركة. تسعى السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي إلى الحفاظ على قيم الاتحاد ومصالحه الأساسية والأمنية وتعزيز الأمن والتعاون الدوليين (٤٠).

رابعا. اليابان:

تعتبر اليابان كأحد أقطاب نظام التعددية القطبية التي أصبحت قوة قيادية فاعلة في النظام الدولي. وتسعى اليابان لإيجاد مركز دولي مرموق لها من خلال المحافظة على تطور وتقدم اقتصادها، وتشكيل قوة عسكرية قادرة على حمايتها وتنفيذ أهدافها الاستراتيجية والمحافظة على أن تكون دائما للوصول إلى الابتكارات التكنولوجية. تسعى اليابان لكي يكون لديها القدرة على إدارة الشؤون العالمية من خلال مقوماتها التي تعطيها أفضلية على غيرها من الدول ليكون لها دور مؤثر في النظام الدولي. وقد نجحت اليابان في فترة الثمانينات من خلق نوع جديد من القوة العظمى بعيدا عن القوة العسكرية بالاعتماد على الاقتصاد، فقامت اليابان بالعديد من الإصلاحات الهيكلية في القطاع الاقتصادي من أجل تطويره وتقويته المواجهة المخاطر المتوسطة الأجل. وهناك العديد من العوامل التي تفسر قوة التجارة الخارجية اليابانية، ومنها، البنية التحتية المتطور فهي تمتلك أكبر الموانئ على مستوى العالم، وتشجيع الدولة للاستثمار الأجنبي وغيرها. وفي المجال العسكري بدأت اليابان تعكس توجهاتها الجديدة نحو تطوير قوتها العسكرية لتكون قطبا مؤثرا على الساحة الدولية. أما فيما يخص مجال السياسة الخارجية، تعمل اليابان إلى وضع إستراتيجية دبلوماسية تقوم على حماية أمن اليابان ومصالحها الوطنية الاقتصادية، والاستمرار في صيانة وتطوير نظام دولي يتوافق مع المبادئ اليابانية على أساس القيم العالمية، كالحرية والديمقراطية، وسيادة القانون، وحقوق الإنسان (٤١).

٤٠ بوب، أدريان، حلف الناتو والاتحاد الأوربي: التعاون والأمن، الناشر/ مجلة حلف الناتو، ٢٠٠٧م، https://gi.goo

٤١ الجازي، هايل، اليابان القوة التجارية الكبرى، ٢٠١٨م، https://gl.goo

نشوء مصطلح الاقتصاد في المجتمع واحتكار رأس المال للاقتصاد

والفرق بين الاقتصاد والملكية والاحتكار

إسماعيل خالد محمد

مقدمة :

يأتي دور الاقتصاد في دراسة حالة المجتمع الاقتصادية فيما إذا كانت على النحو الأفضل أو الأسوأ, الأمر الذي يتيح للحكومات والدول المجال في التدخل المباشر وإحداث تأثير في مدى توفير سلع ما في الأسواق (إن الإنسان يواجه الطبيعة كواحدة من قواه وهو يحرك ذراعيه وقدميه ورأسه ويديه بالقوى الطبيعية لجسده) لكي يمتلك منتجات الطبيعة في هيئة تتوافق مع احتياجاته. وهو بفعله هذا على العالم الخارجي وتغييره له يغير في الوقت نفسه طبيعته هو. أنه يطور قواه الهاجعة ويجبرها على أن تعمل طوع إرادته وهو بهذا يحاول إشباع حاجاته من خلال الإنتاج(١).

١ - ماركس – رأس المال – المجلد الاول – الجزء السابع – القسم الاول، ترجمة فهد كم نقش ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٣

إن الاقتصاد بذاته هو كل شيء يصلح موضوعاً للتغذية والمأكل . أما في الاقتصاد السياسي بما فيه رأس المال «لكارل ماركس» فأن الربح والسمسرة والربا والأجور المؤمنة عن طريق الإنتاج بموجب الأسواق, تشكل المواضيع الأساسية للاقتصاد(١).

إن للاقتصاد دوراً فعالاً في تفادي بعض المشاكل التي قد تأتي بها الأسواق الحرة إلى المجتمعات والدول؛ ويكون ذلك من خلال اقتراح سياسات تتخلص من كافة المشاكل التي تساهم في إخفاق الأسواق, ومن أهم هذه السياسات إعانة الخدمات العامة وفرض الضرائب السلبية الخارجية.

لذا تتجلى أهمية التشكيلة الاقتصادية – الاجتماعية في كونها تمنحنا الفهم الكامل لدراسة التاريخ باعتباره عملية مقننة لتطور الإنسانية ومراحل تطور الوعي في المجتمع الإنساني, على أساس حاجاته, وما تؤدي إليه من تغيرات بنيوية تفرض شكلاً جديداً للحضارة والثقافة كبنى فوقية, مما يجعل من العامل الاقتصادي واحداً من أهم المحركات في تاريخ التطور الإنساني عموماً منذ أول تأسيس اجتماعي. كذلك ينبغي التأكيد على أن العامل الاقتصادي في حالة استقراره يؤدي إلى ثراء في الحياة الاجتماعية, والعكس صحيح: فالأمم التي تتمتع باقتصاد جيد ومستقر تكون قادرة على أنتاج بنى ثقافية قادرة على التأثير بما حولها وتجعل الإنسان أكثر عطاء, وتقلل من الآثار السلبية للظواهر الاجتماعية كالجريمة, والإرهاب والسرقة والفساد المالي والإداري... الخ. **ومن أهم الظواهر والتأثيرات الاقتصادية السلبية التي تواجه المجتمعات هي :**

أولاً: ظاهرة الفقر والعيش الكفاف:

من التأثيرات الاقتصادية الهامة في المجتمع ظاهرة الفقر, ويعرّف علماء الاجتماع الفقر عن طريق تطبيق مفهومَي الفقر المطلق والفقر النسبي, ويرتبط مفهوم الفقر النسبي أساساً بفكرة العيش الكفاف, أي الشروط الأساسية التي ينبغي توفرها ليظل المرء على قيد الحياة في وضع صحي معقول. وتتضمن هذه الشروط الغذاء الكافي والمأوى والكساء(٢) .

وعليه فأن نوعية الحياة في البلد ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدخل الفرد, وكلما قلّ الدخل ارتفعت نسبة الفقر ووجد الإنسان نفسه أمام صعوبة سدّ حاجاته, وهذا ما يُلجئه في كثير من الأحيأن إلى الشذوذ وامتهأن الجريمة ليكون عامل تهديم بدل البناء, وتخريباً للحياة, فالجرمأن يولّد لدى الناس الإحساس بالمظلومية التي من شأنها أن تزيد من حدة التناقضات الاجتماعية وتؤثر في عملية التطور والنمو في المجتمع, ويقف الأفراد عن ممارسة حياتهم بشكل طبيعي, ونرى آثار ها في دول الشرق الأوسط كما في العراق وسوريا واليمن وغيرها .

وهذا ما يجعل لكل بلد خصوصية مختلفة عن الآخر, إن زيادة الفقر في أي بلد تعني زيادة الطبقات المهمشة اجتماعياً, وهذا القياس اقتصادي بحت ويؤشر خللاً اجتماعياً يمكّن في بعض الأحيان من خلق فوضى اجتماعية يكون الإنسان ضحيتها, والمجتمع بشكل عام, مما يعكس التدهور الكبير في الجانب الإنساني عموماً, ويرتبط العامل الاقتصادي بأهم ثالوث اجتماعي وهو الفقر والجهل والتخلف.

ثانيا: العمل وأهميته اجتماعياً:

إن العمل والحياة الاقتصادية تشكلان مساحة واسعة من نشاط الأغلبية الساحقة من الناس, وتعدّان من أكبر الاهتمامات لما للعمل من طابع القداسة, وفقدانه ذو تأثير نفسي كبير يؤدي بالكثير إلى الهروب والنكوص ويجعل من الحياة عبئاً لا يطاق.

والعمل يسبغ على شخصية الفرد طابعاً جدياً وهوية اجتماعية, وهذا كثيراً ما يرتبط بالإسهام الاقتصادي في تلبية احتياجات الأسرة و(تمثل الطبيعة المعقدة المركبة لتقسيم العمل واحدة

٢ - مانيفستو الحضارة الديمقراطية ، عبد الله اوجلان ، المجلد الرابع – الشرق الاوسط ، ص ٧٣

٣ -علم الاجتماع ، انتوني جيدنز ، ترجمة فايز الصياغ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،ص٣٧٣

من السمات المميزة للاتساق الاقتصادي في المجتمعات الحديثة(٤)

فعلى مدار الخمسين عاماً المنصرمة شهدت بلدان منطقة الشرق الأوسط تراجعاً في وتيرة النمو بل ركوداً، لا سيما تلك التي تعتمد على صادرات النفط والغاز، قد سجلت فترات من زيادة النمو، لكنها لم تواصل السعي حثيثاً للحاق بالركب، ويشير انتشار شرك البلدان متوسطة الدخل بين بلدان المنطقة إلى وجود اختلالات هيكلية شائعة تعوق النمو، وعلى وجه التحديد تفتقر هذه البلدان جميعاً إلى حيوية القطاع الخاص، وقد حال هذا دون تواصل نمو الإنتاجية، و هو ما يستحيل بدونه الحفاظ على تحسن مستويات المعيشة بوجه عام.

إن السبب في تراخي القطاع الخاص يكمن في عقد اجتماعي مضى عليه أكثر من ٥٠ عاماً، تكفل الدولة بموجبه إتاحة وظائف عامة في القطاع العام وتقديم دعم شامل في مقابل الحصول على الهدوء السياسي وغياب المساءلة، وبتخليص المواطنين من مخاطر الحياة الاقتصادية، يؤدي هذا العقد الاجتماعي إلى خنق روح ريادة الأعمال والابتكار، كما يضعف مستوى الخدمات العامة، ويذكي انعدام الثقة في الحكومة. لكن حكومات منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أصبحت اليوم عاجزة بشكل متزايد عن المحافظة على التزاماتها في هذا على خفض الإنفاق العام، فتصاعد مستوى المديونية يجبرها بفعل رئيسي للنمو الاقتصادي في المنطقة، وعلى بدء إلغاء الدعم الشامل للسلع والخدمات. ومع انحسار الأنشطة الاقتصادية والاستثمارات الأجنبية بسبب التوترات الجيوسياسية، تتزايد حالة عدم اليقين.

بعبارة أخرى، لم تسفر هذه التطورات في رأس المال البشري عن تسريع وتيرة النمو الاقتصادي، بل على العكس، تشهد منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بعضاً من أعلى معدلات البطالة في صفوف الشباب في العالم، وهو ما يؤدي إلى أكبر معدل لاستنزاف العقول في العالم مع هجرة الشباب المتعلم بحثاً عن فرص في الخارج، وأصبح من الصعب القيام بجملة أعمال دون الاعتماد على الآخرين، وهذا التغير دفع الفرد إلى الاعتماد على الجماعة في إشباع حاجاته وجعل الترابط المتعدد الأبعاد في عملية الإنتاج والتوزيع ضرورة لتعزيز التضامن والدخول في عملية عقد اجتماعي قيمي جديد.

وفي العراق وسوريا ولبنان يعد العامل الاقتصادي أحد المعوقات الأساسية في عملية التغيرات الحاصلة في عملية التحول السياسي والديمقراطي، وتأثيره أصبح أكثر وضوحاً بعد اتساع ظاهرة الفقر وازدياده، والتي استشرى إلى جانبها ظاهرة جديدة لا تقل خطورة عن الفقر هي الفساد الإداري والمالي وازدياد أعداد المهمشين (٥)

وفي المقابل، يمكن للأزمات والصراعات أن تحد بشكل دائم من القدرات على جانب العرض (خسائر في الإنتاج وفرص العمل)، و هو ما يمكن أن يؤثر على الإنتاج المحتمل على المدى المتوسط والطويل. وتظهر الدراسات أن هناك احتمالية كبيرة لحدوث الأزمة الطويلة التي يمتد تأثيراتها السلبية على الإنتاج المحتمل في المدى القصير، تليه عدم تكيف الاقتصاد مع مسارات النمو في مرحلة ما بعد الأزمة، وتعني «الخسارة الدائمة» في الإنتاج المحتمل أن الاقتصاد سيعود في نهاية المطاف إلى معدل نموه المحتمل قبل الأزمة، لكنه سيعجز عن استعادة جميع الناتج المفقود، ويتوقف الناتج الإجمالي على تقييم مختلف القنوات التي يمكن أن تؤثر الأزمة من خلالها على تطورات سوق العمل والاستثمار والإنتاجية.

وتعد منطقة الشرق الأوسط من أكثر مناطق العالم التي تندلع فيها صراعات، وأزمة اللاجئين السوريين من بين أسوأ هذه الأزمات منذ الحرب العالمية الثانية، فبقاء اللاجئين لفترة طويلة في المجتمعات المحلية المضيفة لم يؤدّ فقط إلى زيادة المخاطر على الآفاق الاقتصادية للمنطقة، بل أبرز أيضا التحديات الإنمائية طويلة الأمد المتعلقة باللاجئين، ومواجهة هذه التحديات الهائلة

٤ - علم الاجتماع ، انتوني جيدنز ص ٤٤

٥ - اقتصاد جديد لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، مجموعة البنك الدولي ، ٢٠١٨ ، ص ٢١-٢٢

تتطلب بذل جهود كبيرة (١)

ثالثا: ظاهرة الفساد المالي والاداري :

إن كل المجتمعات الشرق أوسطية تحتوي على قدر من الفساد والمفسدين، ولكن القضية تكمن في تحديد حجم الفساد ودائرته، وما يمكن أن يسببه من تعطيل يهدد مسيرة التنمية ومستقبل المجتمع، بعد أن تحول إلى ظاهرة أصبح معها محاربته قضية اجتماعية وأخلاقية تهدد بانهيار قيمي اجتماعي، بالإضافة إلى تهديدها جوهرياً كيان الدولة وعلاقة الفرد والمجتمع، ومدى جدية القانون، مما جعل التندر مجالاً يؤشر خللاً يرتبط بالسلوك الاجتماعي، وانحرافه يقتضي العمل على استئصاله، واجتثاثه قضية ملحة لإعادة المؤسسة (الحكومة، القانون) كمفاعيل في إنتاج القيم، بالإضافة إلى ما يؤدي إليه من آثار اقتصادية مدمرة، فالنهب للمال العام يولد مشاكل اقتصادية واجتماعية ليس من السهل التكهن بنتائجها، وهذا ما يصعّد من التناقضات الاجتماعية الأساسية.

يعتبر حقل الاقتصاد واحداً من الحقول العلمية التي يتمّ توظيفها في شتى ميادين الحياة، ويساعد هذا العلم على التنبؤ بالتوقعات المختلفة، والتي بدورها تساعد صناع القرار في معرفة النتائج المتوقعة، كما يساعد على تحقيق الكفاءة الاجتماعية في الدولة، وذلك عن طريق التوزيع الأمثل للموارد المختلفة في المجتمع، مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار كافة التكاليف والفوائد الخارجية والداخلية المترتبة على ذلك.

وإن اتخاذ القرارات يساعد علم الاقتصاد على توفير المعلومات والمعرفة الهامة واللازمة، والتي بدورها تساعد على اتخاذ القرارات الصائبة في الحياة اليومية، وذلك عن طريق انتقاء فرصة استثمار مجدية، ويمكن من خلاله احتساب تكاليف وفوائد الوظائف البديلة، وتحديد مدى التأثير الذي ينتج عن السياسات العامة على العديد من الجوانب، بما في ذلك الرعاية الصّحية الشاملة، بالسلع والخدمات من حيث الإنتاج والتوزيع، وكذلك الاستهلاك، وتحدد آلية انتقاء وتخصيص كافة الموارد المتاحة، لكي تكون قادرة على تلبية احتياجات المجتمع على جميع الأصعدة والحدّ الأدنى والأعلى للأجور والرواتب وغيرها.

إن جميع الحكومات في بلدان العالم تهتم بشكل خاص بعلم الاقتصاد، فهي القوى الأولى لتطوير جميع المجالات العلمية، العسكرية والسياسية، والبنية التحتية للبلاد تطور المجتمعات نحو الأفضل. لذلك للاقتصاد أهمية كبيرة، فالطبقة الغنية والمدعومة من قبل الدولة بشكل قوي تسيطر بشكل كامل على اقتصاد البلد ولا يتيح الفرص الاقتصادية في الداخل إلا عن طريق هذه الفئة، ومن هنا نرى التحول الاقتصادي من اقتصاد ناشئ لهذه البلدان إلى اقتصاد ضعيف وفقير لا يلبي الاحتياجات الأساسية لأكثر من ٨٠٪ من الشعب المتواجد في هذه الدول، وما يسمى (باقتصاد الخبز) ففي الظروف الاستثنائية، كحالة الحروب والأزمات التي تمر بها بعض بلدان الشرق الأوسط أو الكوارث الطبيعية، فإن الدول تفرض أسعاراً إلزامية للمواد منعاً لارتفاعها على نحو كبير، وفي معظم الأحيان تؤدي مثل هذه الحالة إلى أوضاع استثنائية تطرأ على حالة السلع، تتمثل في ندرتها بشكل خارج عن قوانين السوق، ومنها:

- اختفاء السلعة من السوق.
- توزيع السلعة بالبطاقة.
- السوق السوداء نتيجة عدم إشباع السوق وتلبية الطلب.

احتكار الرأسمال للاقتصاد :

يعتبر الباحث الاقتصادي البريطاني «آدم سميث» أول من نبّه إلى مخاطر الاحتكار،

حيث يقول «إن أرباب الصنعة الواحدة قلّما يجتمعون إلا وانتهى لقاؤهم إلى مؤامرة ضد

٦ - أزمة اللاجئين في منطقة الشرق الاوسط وشمال أفريقيا مواجهة تحديات التنمية، مجموعة البنك الدولي، ٢٠١٧، ص ٧

الجمهور, أو إلى خطة ماكرة لرفع الأسعار». وليس «سميث» استثناء في التحذير من الاحتكار, إذ تنبه إلى مخاطره كثير من الاقتصاديين والمفكرين من أرسطو وحتى «جون ستيوارت ميل».

وواقع الأمر أن المنافسة الكاملة هي حالة مثالية لا تتحقق كثيراً في الاقتصاد الواقعي, فالمنافسة الكاملة تعني تقارباً كبيراً في السلع المنتجة وتكاليف الإنتاج, وتخفيضاً مستمراً في الأسعار, وهو وضع يصب في مصلحة المستهلك من دون شك, إلا أنه لا يحقق ربحاً كبيراً للشركات وأرباب الأعمال. الربح فوق المعتاد يحدث مع الأوضاع الاحتكارية, بداية من المنافسة الاحتكارية, ومروراً باحتكار القلة (Oligopoly), ووصولاً إلى الاحتكار الكامل (Monopoly), ومعناه أن تسيطر شركة واحدة على النصيب الأكبر من السوق.

وعلى عكس ما يعتقد أغلبنا, فإن الرأسماليين وأصحاب الأعمال هم أشد الناس عداء للرأسمالية, ففي الظاهر يتشدق أرباب الصناعة والمشروعات بإيمانهم المطلق بالنظام الرأسمالي. وفي حقيقة الأمر, هم يؤيدون جوانب منه تتعلق بحرية النشاط الاقتصادي وقدسية الملكية الخاصة, ويبغضون ركناً رئيسياً فيه هو المنافسة المفتوحة.

الحديث هنا بالطبع عن كبار الرأسماليين وليس صغارهم, ذلك أن أصحاب المشروعات الصغيرة والمتوسطة يستفيدون من المنافسة, بل إنهم لا يستطيعون دخول السوق من الأصل إلا في ملعب مفتوح, وليس مغلق على الكبار وحدهم. أما هؤلاء الكبار من "الحيتان" فإن الاحتكار هو سبيلهم لتحقيق أرباح هائلة. فالسوق المغلق القائم على منتج واحد, أو اثنين أو ثلاثة, يتيح للشركات الكبرى المحتكرة تحديد السعر الذي ترغب, باعتبار أنها آمنة من المنافسة المحتملة.

إن أسوأ أنواع الاحتكار على الإطلاق هو ذلك الذي ينشأ بالتواطؤ بين كبار رجال الأعمال والحكومات, ولكن كيف يحدث الاحتكار؟ أصل الاحتكار أن تكون هناك حواجز تمنع دخول السوق إلا لقلة من الشركات, وربما شركة واحدة, وقد تكون هذه الحواجز طبيعية. مثلا: المياه والسكك الحديدية والبريد وشركات الطيران.. كلها تمثل مجالات ينشأ فيها الاحتكار بصورة طبيعية, السبب هو أن تكلفة تأسيس الشبكات التي تخدم هذه الأنشطة (وكل هذه المجالات ترتبط بصورة أو بأخرى بتأسيس شبكة كبيرة كخط سكك حديد أو محطة مياه أو كهرباء) تكون هائلة في البداية مقارنة بتكلفة منخفضة لتشغيلها, وحالما يتم إنشاء الشبكة, يصبح من غير المجدي اقتصادياً إقامة شبكات أخرى منافسة, ومن هنا يتحقق الاحتكار بصورة طبيعية في هذه الأنشطة أو حتى غيرها التي تتيح للشركات الاستفادة من "اقتصاديات الحجم الكبير" ـ كما هو الحال مع شركات البترول مثلاً ـ فهي بصورة تضع حاجزاً أمام الصغار يمنعهم من دخول حلبة المنافسة.

وبخلاف وضع الاحتكار الكامل لشركة واحدة في السوق, فإن هناك حالات ينشأ فيها الاحتكار من خلال تواطؤ الشركات الكبيرة للحفاظ على السعر المرتفع من خلال الاتفاق على ضبط كميات الإنتاج, وهذا ما يسمى بـ "الكارتل". وقد ينشأ الكارتل بين حكومات كما هو الحال مع منظمة الأوبك التي نشأت في ١٩٦٠ كآلية تنسيق بين كبار منتجي النفط من أجل الحفاظ على السعر من خلال الاتفاق على كميات الإنتاج.

والحال, أن اجماعاً تبلور منذ أوائل القرن العشرين بأن الاحتكار ضار بالمنافسة, ومن ثم بالمستهلك. ولكن في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ظهرت الاحتكارات الضخمة.

الفرق بين الاقتصاد والملكية والاحتكار :

إن الاحتكار هو الحالة القصوى أو الأعلى من الرأسمالية مع وجود بعض الاستثناءات, لكن تبقى فكرة وجود طرف أو موفر واحد فقط تقريباً لسلعة أو خدمة تجسيداً حقيقياً للفكر الرأسمالي الجشع, أو بمعنى آخر فإن الاحتكار

يعني غياب المنافسة وانعدامها ومن ثم السيطرة على السوق وبسط الهيمنة التي تحاول الحكومات مقاومتها, وهو يفسح الطريق أمام شركة أو كيان بعينه إلى بسط هيمنته وفرض منتجه مهما كانت درجة جودته وبالسعر الذي يريده, نظراً لعدم قدرة المنافسين على مواجهته. ومن ثم تتعاظم أرباح ذلك الكيان الذي قد ينافس نفسه في بعض الأحيان عن طريق شركات أخرى تعود ملكيتها له.

ولأن الاحتكار يهدد كيان الدولة فإن وضع القوانين الصارمة لمواجهته يعد أساسياً لخلق توازن في الأسواق وإبعاد فكرة السيطرة عن السوق وتضخم الثروات الفردية على حساب الطبقة الكادحة. لكن رغم ذلك تبقى "منطقة رمادية" يتمكن البعض من الإفلات عن طريقها من سلطوية القوانين مع وجود فساد إداري في عمل ممارسات احتكارية للسلع والخدمات. حتى إن هذا المنحى وقعت فيه الدول المتقدمة ذاتها, لكنه في النهاية لخدمة توجهاتها. ولمَ لا وهي حاضنة الرأسمالية ومروجة أفكارها؟.

هناك دول قد تمارس الاحتكار وهنا يطلق عليه احتكار عام مثل شركات الكهرباء والمياه, وتقوم بهذا الدور في مرحلة ما للحفاظ على تقديم خدمات بأسعار مناسبة حتى لا تتضرر فئات المجتمع المتوسطة وما دونها, أو لتضمن كفاءة واستمرار الخدمات. كما يوجد احتكار خاص متى انفرد به شخص أو مجموعة محددة. ويوجد أيضاً احتكار مطلق يتحكم من خلاله شخص واحد فقط في إنتاج وسعر سلعة أو خدمة واحدة. والذي ينبثق منه أو يتشابه معه احتكار القلة عندما تتفق مجموعة محددة من البائعين على تنسيق إنتاج سلعة ومن ثم توجيه تحرك سعرها. حيث يؤثر قرارهم بشكل كبير على السوق مثلما تفعل قرارات "أوبك" على سبيل المثال في سوق النفط.

كما يوجد أيضاً نوع من الاحتكار "القانوني" الذي يطلق عليه حق الامتياز أحياناً. حيث يعطي قانون الدولة لشركة أو كيان ما, الحق في تقديم خدمة أو إنتاج سلعة مثل حق لنقل ركاب بالقطارات. توزيع مياه. نقل كهرباء.

إن أبرز سلبيات الاحتكار يمكن تجسيدها فيما يلي:

-يساهم في تعظيم حجم ثروة المحتكر بشكل كبير وفي زمن قياسي مع تحكمه في الأسعار.

-يؤدي إلى ضعف المنافسة وانعدام وجود حافز مع عدم الاهتمام بجودة المنتج المقدم أو الخدمة.

-التحكم في حركة الأسعار يؤثر سلباً على التضخم ومن ثم القوة الشرائية للنقود وترك آثار سلبية على إنفاق الفئات الكادحة.

-ضعف أداء القطاع الذي يعمل به المحتكر وإمكانية حصوله على استثمارات جديدة تساهم في دعم الاقتصاد.

يؤكد تاريخ الديمقراطيات الغربية على الدور المركزي الذى تلعبه حقوق الملكية في النهوض بالتنمية الاقتصادية والسياسية, ومن الممكن استخدام الطريقة التي اتبعتها هذه الدول لحماية حقوق الملكية على مدى السنين الماضية كدليل لا يقدر بثمن للدول الأخرى التي تسعى إلى تطوير المؤسسات القانونية وغيرها من المؤسسات الأخرى, حتى تؤسس أنظمة قوية للملكية الخاصة, ولهذه النقطة أهمية خاصة بالنسبة للاقتصادات التي تتجه نحو اقتصاد السوق الحر, لأن نجاح إصلاحات السوق يتوقف على مدى تمسك الحكومة بالعناصر اللازمة لاستقرار الملكية الخاصة. أما المفاهيم والسياسات الحكومية الغامضة أو المتضاربة فإنها قد تعرّض عملية الخصخصة لمخاطر وانتكاسات كبيرة, ولذلك أصبح من المحتم أن تفهم هذه الحكومات طبيعة الملكية الخاصة وأنواعها, والقيود على تدخّل الحكومة في حقوق الملكية الخاصة.

وهناك مصطلح المشاركة في المنفعة حيث تبرز مسألة حقوق الملكية إلى المقدمة في الدول التي

تتحول إلى اقتصاد السوق الحر. لأن هذه الحقوق تعتبر من صميم خصخصة أصول الدولة, إلا أن هذه العملية معرضة للخطر في دول مثل روسيا حيث لا يتم اقتسام المنفعة على نطاق واسع مع المواطنين, فقد يكون إصدار الأسهم مثلاً لمن كانوا يعملون في مؤسسات كانت مملوكة للدولة مسألة تتماشى مع نص الخصخصة, ولكنه بالتأكيد يختلف مع روحها, وفي نفس الوقت, هناك دول أخرى تعرضت فيها بعض المؤسسات العامة للنهب بدلاً من إعادة توزيع الممتلكات, كما في كثير من دول العالم ومنها دول الشرق الأوسط.

ونظرا لأهمية حقوق الملكية, يعتبر الفهم الأساسي لأنواع الملكية ضرورياً لكي تتجنب الأسواق الناشئة الأخرى الوقوع في مآزق مماثلة(٧)

و الملكية كأداة ضمان تلعب دوراً رئيسياً في اقتصاد السوق لمساعدة الأفراد والمؤسسات على الحصول على تمويل, ويحصل المقرض على ضمان لحقه في الأرض المملوكة للمقترض حسب شروط العقد, وفي هذه الحالة تسمى هذه الأرض "الضمان الإضافي " . ويمكن ضمان القروض العامة بأي أصول يقبلها المقرض كالسيارات أو السلع . وكذلك يمكن استخدام الممتلكات الشخصية "المنقولات" كضمان إضافي. ويمكن تعريف المنقولات بصفة عامة على أنها ممتلكات ليست عقارية وتوصف في الغالب بالسلع. أما "الأموال المنقولة " فتعتبر ممتلكات شخصية مادية.

وفي حالة قروض الإسكان يتم ضمان القرض عن طريق "الرهن", والرهن هو قيد يفرض على ملكية المدين العقارية التي هي موضوع الدين, ويمكن أن يؤدي الفشل في التسديد وانتهاك عقد الرهن إلى حصول المقرض على حق الحيازة والملكية التامة للمسكن من خلال عملية إسقاط الحق والمصادرة.

٧ - حقوق الملكية فى اقتصاد السوق ، بروس ايه. ريزنيك، مركز المشروعات الدولية الخاصة ، مقال

و أصبحت القروض المضمونة أكثر انتشاراً في الدول التي كانت تنتهج النهج الشيوعي الاشتراكي, إلا أن بعض هذه القروض أثارت في روسيا موجة من الخلافات حول بعض حالات الخصخصة التي تمت مؤخراً والتي تمت هيكلتها كقروض بدلاً من شراء حقوق الملكية في الشركات التي كانت مملوكة للدولة ثم تم بيعها بدلاً من شراء حقوق الملكية .

خاتمة :

ما تزال القضايا الاقتصادية ومسألة سلطة الحكومة على الملكية والاحتكار حتى يومنا هذا خاضعة للتفسير والتعديل بصفة مستمرة, إذ أن استخدامها يختلف من دولة لأخرى في مختلف الأنشطة حتى ولو لم تكن الممتلكات مركزية أو كانت ملكيتها مشتركة مع كيانات وحكومات ودول أخرى, أو مع أطراف ثانية وثالثة, وتلعب الظروف الدولية المحيطة الدور الأكثر تأثيراً في حركة ونشاط الاقتصاد, وهي تتأثر بالاضطرابات والحروب والأزمات كما حصل في عام ٢٠٠٨ في منطقة الشرق الأوسط, وكذلك الانهيارات المتتالية لقيمة صرف الدولار أمام العملات المحلية في سوريا والعراق ولبنان وغيرها, وهنا تدخل الدول والحكومات والشعوب دوامة انعدام الاستقرار الاقتصادي غير محمود العواقب .

المراجع :

- ماركس — رأس المال — المجلد الاول — الجزء السابع — القسم الاول، ترجمة فهد كم نقش ، دار التقدم ، موسكو ، 1983م

2 - مأنيفستو الحضارة الديمقراطية ، عبد الله اوجلآن ، المجلد الرابع — الشرق الاوسط

3 - علم الاجتماع ،أنتوني جيدنز، ترجمة فأيز الصياغ،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت.

4 - اقتصاد جديد لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، مجموعة البنك الدولي ، 2018

5 - أزمة اللاجئين في منطقة الشرق الاوسط وشمال أفريقيا مواجهة تحديات التنمية، مجموعة البنك الدولي، 2017.

6 - حقوق الملكية في اقتصاد السوق ، بروس أيه. ريزنيك، مركز المشروعات الدولية الخاصة ، مقال

مفهوم التكامل الاقتصادي في الشرق الأوسط

خليل القاضي

يُعتبر الاقتصاد: المؤشر الفعلي وانعكاس عملي لتطور المجتمعات من عدمه، فكلما كان الاقتصاد قوياً ومتماسكاً نعِمَ المجتمع بالرخاء والرفاهية، وبالتالي يؤدي ذلك إلى منح الدولة ذات الاقتصاد القوي قوة وحضوراً فاعلاً في السياسة, حيث يرى المراقبون والباحثون أن هناك علاقة وثيقة بين السياسة والاقتصاد، فالدولة القوية اقتصادياً يمنحها مناعة من التدخلات السياسية وفرض أجندات لا تلائم توجهاتها، هذا على صعيد الدولة الفرد بوصفها شخصية معنوية وما يمنحها الاقتصاد القوي من مكانة، فما بالكم بمجموعة دول تنتمي إلى ذات المحيط الاقتصادي, وهناك نوع من التجانس السياسي فيما بينها ولو في حدوده الدنيا، وقبل الخوض في تناول التكامل الاقتصادي بين

مجموعة الدول وتحديداً في الشرق الأوسط لا بد لنا من الوقوف على تعريف الاقتصاد عموماً, ومن ثم التعرف على مفهوم التكامل الاقتصادي، لنتناول بعدها ما للتكامل الاقتصادي في الشرق الأوسط وما عليه.

فالاقتصاد علم من العلوم الاجتماعية يدرس السلوك البشري والرفاهية كعلاقة بين المقاصد والأهداف التي لها استعمالات بديلة، وبين الموارد المتاحة المحدودة والنادرة.

ومصطلح (اقتصاد) لغوياً يعني التوسط بين الإسراف والتقتير(جاء في مختار الصحاح: «القَصْدُ بين الإسراف والتقتير, يقال: فلان مُقْتِصدٌ في النفقة»)، وتعددت التعاريف لمصطلح (اقتصاد) إلا أن التعريف الأكثر رواجاً واعتماداً والأشمل لخصائص الاقتصاد الحديث المعاصر هو تعريف (ليونيل روبنز) في مقالة نشرها عام ١٩٣٢ حيث يقول: «الاقتصاد هو علم يهتم بدراسة السلوك الإنساني كعلاقة بين الغايات والموارد النادرة ذات الاستعمالات المتعددة».»

فالندرة: تعني عدم كفاية الموارد المتاحة لإشباع جميع الاحتياجات والرغبات الإنسانية, وغالباً ما يشار إلى الندرة بأنها (المشكلة الاقتصادية) وبمعنى آخر نجد أن المشكلة الاقتصادية هنا تدور حول الاختيار وما قد يؤثر بانتقاء هذا الخيار من محفزات وموارد.

ونظراً للتطور الذي يشهده العالم على الصعيد الاقتصادي، وبروز اقتصادات مغايرة للاقتصادات التقليدية التي ارتكزت على القطاعات التقليدية في الاقتصاد، إلا أن الاقتصادات الحديثة والتقليدية خلقا نوعاً من العلاقات الاقتصادية التي أصبحت تميز الاقتصاد العالمي، ونتيجة تطور تلك العلاقات برز اتجاه إلى أيجاد صيغة تقوّي تلك العلاقات؛ فكان الاتجاه نحو التكامل, وزيادة الترابط والتشابك بين الاقتصادات، والاتجاه نحو تشكيل تكتلات اقتصادية إقليمية، فكان قيام تجمعات اقتصادية مثل الاتحاد الأوروبي، ومجموعة البريكس وغيرهما من التكتلات الاقتصادية، إضافة إلى قيام تكتلات اقتصادية، سواء في إطار ثنائي أو شبه إقليمي أو إقليمي.

وعليه تعددت التعاريف التي تناولت التكامل الاقتصادي حيث لم يتفق المفكرون الاقتصاديون على تعريف واحد، لكن قبل التطرق إلى مفهوم التكامل الاقتصادي، لابدّ من التعريف بمصطلح التكامل والذي بدأ استعماله في سنة ١٦٢٠ في قاموس أكسفورد وتعريفه ب «جعل الأجزاء المتفرقة كلاً متكاملاً».

فالتكامل الاقتصادي يعرف: «بأنه عبارة عن عملية تحقيق اعتماد متبادل بين اقتصاديات مجموعة من الدول بدرجات مختلفة قائمة على أسس معينة، مستخدمة في ذلك مداخل مختلفة بهدف زيادة وتدعيم القدرة الاقتصادية والاجتماعية للدول الأعضاء».

وعرّفه الاقتصادي «بيلا بالاسا» بأنه «عملية إلغاء تام للحواجز الجمركية بين وحدات اقتصادية قومية مختلفة». ورغم التعدد والاختلاف في تعريف التكامل الاقتصادي إلا أنه برز اتجاهان حيال التكامل، الأول هو اتجاه عام يعرّف التكامل على أنه أي شكل من أشكال التعاون أو التنسيق بين الدول المختلفة دون المساس بسيادة أي منهما، ويُنتقد هذا التعريف لاتساعه. فيما الثاني هو اتجاه أكثر تحديداً, إذ يعتبر التكامل عملية لتطوير العلاقات بين الدول وصولاً إلى أشكال جديدة مشتركة بين المؤسسات والتفاعلات التي تؤثر على سيادة الدولة.

هنا تجدر الإشارة إلى أنه قبل الحرب العالمية الثانية لم نشهد قيام اتحادات جمركية بين الدول، ولكن بعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها شهد العالم قيام عدد من التكتلات الاقتصادية على طريق التكامل الاقتصادي في أوروبا وأميركا اللاتينية والقارة الإفريقية، وبدا غياب هذا المفهوم عن منطقة الشرق الأوسط واضحاً لجهة بذل جهد جدي لقيام مثل هكذا تكامل أو تكتل, واكتفى ميثاق جامعة الدول العربية بطرح الفكرة نظرياً على الورق دون جهد جدي في هذا

الخصوص, على الرغم من أن المكونات الأساسية لهكذا تكامل متوفرة.

فماهي أسس التكامل الاقتصادي؟

يحدد الاقتصاديون أسس التكامل الاقتصادي بتوفر مجموعة من المعطيات, ومنها استفادة التكتل من ميزة التخصص وتقسيم العمل الاقتصادي على أفراد المجموعة الاقتصادية (الدول). إضافة إلى توجه المؤسسات الإنتاجية الاقتصادية نحو الاندماج للاستفادة من مزايا الإنتاج الكبير, مما يشكل عاملاً ديناميكياً يوفر القدرة على تطوير الإنتاج وتحديثه ومواكبته للتطور التكنولوجي. وكل ذلك مستند إلى خطة واضحة تكون مشتركة من أجل التنمية تؤدي إلى استغلال كافة الموارد الاقتصادية وتوظيفها بما يخدم التكتل الاقتصادي. وبالتالي هذا سيؤدي إلى تذليل المعوقات التي يمكن أن تعترض تنفيذ المشاريع المشتركة.

إضافة إلى ذلك لابد من قيام التكتل بوضع مخطط اقتصادي يتلاءم مع احتياجات وإمكانيات الدول المنضوية في التكامل الاقتصادي. الأمر الذي سيؤدي حكماً إلى قيام صناعات واقتصادات متكاملة ومترابطة على أسس اقتصادية واضحة. ما سيسمح بإقامة مشاريع على أسس عصرية تعتمد على التكنولوجيا والمعرفة. ما سيعكس تطوراً متوازناً للقوى الاقتصادية والإنتاجية في الدول التي تشكل التكتل الاقتصادي.

وبالتالي فإن نجاح التكامل الاقتصادي بين دولتين أو أكثر يتوقف على كون هذه الدول ذات أنظمة اجتماعية واقتصادية متجانسة. وهذا الأمر متوفر في دول الشرق الأوسط عموماً. فما يجمع الدول الشرق أوسطية على الصعد الاجتماعية وحتى الاقتصادية الكثير من المقومات التي يمكنها إنجاح أي تكامل اقتصادي. ولكن قبل الخوض في تفاصيل النجاح والإخفاق لهكذا تكامل اقتصادي؛ يجب علينا بداية تحديد الأهداف العامة للتكامل الاقتصادي.

حيث إن أهداف التكامل الاقتصادي لا تختلف من حيث المبدأ بين الدول النامية والدول المتقدمة. إلا أن أهمية كل منها تختلف بالقياس إلى الدول النامية عنها بالنسبة للمتقدمة. وتجدر الإشارة إلى أنه و إن كانت الاعتبارات الاقتصادية أقوى ما تكون إلى تبرير التكامل الاقتصادي بالنسبة للبلاد النامية, فهناك جوانب غير اقتصادية. ويمكن أن نوجز أهم تلك الأهداف في ما يلي:

"يُعتبر الاقتصاد المؤشر الفعلي وانعكاس عملي لتطور المجتمعات من عدمه، فكلما كان الاقتصاد قوياً ومتماسكاً نعمَ المجتمع بالرخاء والرفاهية، وبالتالي يؤدي ذلك إلى منح الدولة ذات الاقتصاد القوي قوة وحضوراً فاعلاً في السياسة, حيث يرى المراقبون والباحثون أن هناك علاقة وثيقة بين السياسة والاقتصاد، فالدولة القوية اقتصادياً يمنحها مناعة من التدخلات السياسية وفرض أجندات لا تلائم توجهاتها"

إن تحقيق طفرات في الإنتاج تقف في مقدمة الدوافع الاقتصادية. وتزداد أهمية هذا الدافع بالنسبة لمستقبل التصنيع في الدول النامية, فاتساع حجم السوق يشجع على توجيه الاستثمارات توجيهاً اقتصادياً سليماً. وإعادة تكوين الحركة الحرة للسلع ورأس المال, والعمل من دولة إلى أخرى من خلال إزالة العوائق التي تحول دون ذلك.

_ الاستفادة إلى أقصى حدّ ممكن من المنافع الناجمة عن التخصص على صعيد المنطقة التكاملية. ومن ناحية أخرى لما كان

يتوقع أن ينجم عن اتساع نطاق السوق الذي يتحقق بفضل التكتل عن ازدهار التوقعات الاقتصادية بالنسبة للمستقبل. فإن من المتوقع أن يتمخض التكتل ليس فقط عن ارتفاع مستوى تشغيل المقدرة الإنتاجية بل ربما يؤدي ازدهار هذه التوقعات إلى دفع الاستثمارات الخارجية للولوج إلى منطقة التكامل الاقتصادي، ما سيؤدي إلى الارتقاء بمستوى الاستثمار.

كما أن التكامل الاقتصادي سيساهم في عملية التنمية الاقتصادية؛ كونها ستصبح أيسر وأسهل بالتزامن مع قيام التكامل الاقتصادي، وبالتالي الاستفادة من اتساع السوق ووفرة عنصر العمل ما سيؤدي إلى خلق فرص جديدة تعمل على النهوض بالإنتاج والاستثمار والدخل والتشغيل.

فالتكامل الاقتصادي سيؤدي إلى تنويع الإنتاج بطرق اقتصادية، وهذا سيحمي اقتصاديات الدول الأعضاء من بعض الانتكاسات والتقلبات والسياسات الأجنبية.

كما أن التكامل الاقتصادي سيرفع مستوى رفاهية المواطنين في دول منطقة التكتل الاقتصادي، و سيمكّنهم من الحصول على السلع الاستهلاكية بأقل الأسعار الممكنة نظراً لإزالة الرسوم الجمركية من ناحية وإلى تخفيض تكاليف الإنتاج الناجّة عن توسيع رقعة السوق من ناحية أخرى.

والتكامل الاقتصادي سيساهم في التقليل من اعتماد دول التكتل على الخارج, وبالتالي من تأثيراته الاقتصادية والسياسية, فالتكامل يؤمن الاستقلالية السياسية والاقتصادية، ولكي تتحقق أهداف التكامل الاقتصادي لا بدّ من توفر مقومات اقتصادية وسياسية وثقافية، و بخصوص المقومات الاقتصادية فإنها تتمثل في:

أ- توفر الموارد الطبيعية: حيث إن عدم توفر تلك الموارد بشكل كافٍ لدى بعض الدول قد يحفّزها للدخول في تكامل مع غيرها من الدول التي تتوفر لديها تلك الموارد .

ب- توفر عناصر الإنتاج اللازمة للعملية الإنتاجية: ويُبرز هذا الجانب أهمية عنصر العمل الاقتصادي والفني الماهر لأهميته بالنسبة إلى العملية الإنتاجية وتحقيق الكفاءة فيها.

جـ- توفر البنية الأساسية: ويُقصد بها الطرق ووسائل النقل والاتصال وغيرها ، ويُعدّ هذا المقوّم عنصراً مهماً في نجاح أي تكامل اقتصادي، وبدونه يبقى التكامل محدوداً.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك أشكالاً عدة للتكامل الاقتصادي هي:

١. منطقة التجارة الحرة: حيث تعمد البلدان الأعضاء إلى تحقيق الرسوم الجمركية والقيود الكمية بالتدريج حتى النزول بشكل تام و تحقيق حرية انتقال السلع. ولا تتضمن منطقة التجارة الحرة هذه بالضرورة حرية انتقال الأسواق والأشخاص، ويحتفظ كذلك بموجبها كل بلد بتعريفاته الجمركية تجاه البلدان غير الأعضاء.

٢. الاتحاد الجمركي: ويتميز بإلغاء جميع أصناف التمييزات والحواجز فيما يتعلق بحركة البضائع داخل نطاق الاتحاد، وتوحيد التعريفات الجمركية للدول الأعضاء تجاه العالم الخارجي, ولا يتضمن ذلك بالضرورة حرية انتقال الأموال والأشخاص.

٣. السوق المشتركة: التي تشكل درجة أعلى من السير نحو الوحدة الاقتصادية, لأن الإلغاء لا يشمل التعريفات الجمركية و القيود فقط؛ أي المبادلات التجارية, ولكن أيضاً القيود المفروضة على حرية تنقّل عوامل الإنتاج ورؤوس الأموال والأشخاص.

٤ـ الوحدة الاقتصادية: التي إلى جانب زوال القيود على انتقال السلع وعوامل الإنتاج تهدف إلى تنسيق السياسات الاقتصادية القومية بين الدول الأطراف بغية إزالة التمييز الناشئ عن اختلاف هذه السياسات.

ولنجاح هذه الأشكال لا بد من توفر عدة شروط تتلخص بالتالي:

تنسيق السياسات القومية الاقتصادية: يقتضي التنسيق في مسألة التعرفة الجمركية والنقدية والسياسة التجارية تجاه الدول خارج

التكتل وشؤون النقد، وبعض العناصر الضريبية والأوضاع الاجتماعية وسياسات الاستثمار، وتستدعي عملية التنسيق التشريعات والسياسات الاقتصادية القومية ووجود أجهزة متخصصة ومؤسسات تتمتع بالصلاحيات المطلوبة للعمل، مسايرة للظروف الاقتصادية الوطنية وسياساتها الاقتصادية.

توفر الأيدي العاملة المدربة: إذ يُعتبر من العوامل المؤدية إلى نجاح التكامل الاقتصادي، ويتيح للدول الأعضاء استخدام مواردها الإنتاجية بطريقة فعالة مستمرة، كما يمكنها في الوقت نفسه تنمية هذه الموارد وزيادة حجمها، وتكون النتيجة زيادة الإنتاج الكلي ومستوى المعيشة في الدول المتكاملة, وبالتالي زيادة التعاون الاقتصادي فيما بينها.

تجانس الاقتصاديات القابلة للتكامل:

يجب أن يكون التكامل بين الاقتصاديات ذات الهياكل المتجانسة والمتماثلة والقابلة للتكامل، وتكاملها يعني خلق فضاء حقيقي متضامن من حيث لا وجود للاختلافات الاقتصادية بين الدول الأعضاء، وإلا سيسيطر اقتصاد بلد ما على اقتصاديات الدول الأخرى.

وضع شبكة إقليمية ملائمة للنقل والموصلات: إذ إنه من الضروري توفر شبكة واسعة للنقل والمواصلات بين الدول الواقعة في إطار التكتل الاقتصادي، فتوفر هذه الشبكة يُعتبر عاملاً حاسماً في ضمان تأثير حقيقي لإلغاء الحواجز التي تعترض التبادل التجاري بين الدول المتكاملة.

ضرورة التدرج والآلية: يجب أن يكون التكامل تدريجياً وآلياً بشكل يسمح للاقتصاديات المختلفة التأقلم مع حجم السوق الجديد، لأن التحولات الداخلية للبضائع والأموال تخلق بعض المشاكل بحيث لا يمكن تجاوزها إلا في المراحل الأخيرة من التكامل، كما يجب الاتفاق على صيغة تدريجية وآلية تأخذ بعين الاعتبار الأوضاع الخاصة لكل بلد.

وتجدر الإشارة إلى أنه يتطلب نجاح التكامل

> **ومصطلح (اقتصاد) لغوياً يعني التوسط بين الإسراف والتقتير(جاء في مختار الصحاح: «القَصْدُ بين الإسراف والتقتير, يقال: فلان مُقْتِصدٌ في النفقة»)، وتعددت التعاريف لمصطلح (اقتصاد) إلا أن التعريف الأكثر رواجاً واعتماداً والأشمل لخصائص الاقتصاد الحديث المعاصر هو تعريف (ليونيل روبنز) في مقالة نشرها عام 2391 حيث يقول: «الاقتصاد هو علم يهتم بدراسة السلوك الإنساني كعلاقة بين الغايات والموارد النادرة ذات الاستعمالات المتعددة»**

بين الدول الأعضاء توفر الثقة بينهم، واقتناع الرأي العام والهيئات الاقتصادية القومية مثل الحكومات, بأن هذا التكتل سيحافظ على التزامه بأمانة في بذل الجهود المطلوبة لإنجاح التكتل.

التكامل الاقتصادي يمنح مزايا مختلفة للدول المنضوية فيه, إلا أنه ينطوي على عيوب وتكاليف، فتحقيق الاتحاد الشامل عملية صعبة وليست مجانية, بل تقتضي تحمّل العديد من التضحيات والمصاعب منها:

تحويل التجارة: وتتمثل في تبديل المستوردات ذات الأثمان المنخفضة من دولة غير عضو، بمستوردات ذات أثمان أغلى من دولة عضو.

- الآثار على ميزانية الدولة: قد يؤدي إلغاء الرسوم البينية إلى حدوث عجز على مستوى الميزانية العامة للدولة الناتجة عن خفض إيراداتها المتأتية من الرسوم الجمركية من شريكاتها، وتؤثر كذلك على سياستها المالية.

ـ توزيع المكاسب وتعويض الخسائر: المشكل الذي قد يقع بين الدول المتكاملة اقتصادياً هو كيفية توزيع الإيرادات المحصَّلة, وتطرح مشكلة عدم العدالة في تقسيم المكاسب وكذلك تحمّل بعض الدول خسائر ناجمة عن آليات التوزيع.

انتقال الأزمات: وفقاً لمبدأ الآثار التبادلية للتجارة الخارجية وتشابك الاقتصاديات, والتغذية العكسية للأزمات التي قد تتعرض لها دولة عضو على بعض الدول الأخرى, كما حصل خلال أزمة اليونان وانتقالها إلى دول الاتحاد الأوروبي.

ـ اختلاف درجة نمو اقتصاديات الدول الأعضاء: إن اختلاف درجة نمو اقتصاديات الدول الأعضاء وكذلك اختلاف المصالح الاقتصادية للمشروعات والصناعات المحلية لدول التكامل, يؤدي إلى اختلاف درجة الحماية الجمركية للمشروعات القائمة في كل بلد عضو, وعليه فإن إلغاء الحواجز الجمركية والتخلي عن سياسة الحماية لهذه المشروعات وفقاً لسياسات التكامل, يعرّضها لمنافسة خارجية قد تؤدي إلى القضاء عليها, وبالتالي يمكن القول إنه يصعب التخلي عن الحماية الجمركية لبعض المشروعات في بعض دول التكامل.

. مشاكل التعرفة الموحدة: من أهم الأمور الأساسية لقيام التكامل الاقتصادي بين مجموعة من الدول, هو إزالة الحواجز الجمركية مع الاتفاق مسبقاً على وضع تعرفة جمركية موحدة لمواجهة السلع الواردة من العالم الخارجي, إلا أنه من الصعب وضع تعرفة موحدة تُفرض على مجموعة الدول الأعضاء, وهذا يعود إلى صعوبة التوفيق بين المصالح المختلفة للدول الأعضاء في التكتل الاقتصادي.

وعلى الرغم من أهمية ظاهرة التكامل الاقتصادي كون الدول تحتاج إلى بعضها البعض, شرعت العديد من الدول إلى تشكيل تكتلات عديدة على أساس تحرير التبادل التجاري بين أعضاء التكتل, وتعزيز التعاون و التكامل الاقتصادي وتبادل الأفضليات التجارية وتنسيق القواعد التي تحكم التجارة فيما بينها, مثل الإجراءات الجمركية وقواعد المنشأ, و ذلك لتنال الدول العديد من الامتيازات الاقتصادية خاصة.

وعليه واستناداً إلى ما تقدم نجد أن التكامل الاقتصادي في الشرق الأوسط يملك المقومات النظرية لقيامه, غير أن هناك عقبات سياسية تحول دون قيامه على الرغم من اعتماد دول الشرق الأوسط الاقتصاد الحر وخصوصاً بعد انهيار الاتحاد السوفياتي, إلا أن هذا لا يكفي, خصوصاً وأن هناك فجوات اقتصادية بين الدول إضافة إلى التوزيع غير العادل نظرياً للموارد الاقتصادية, ما سيجعل بعض الدول عالةً على دول أخرى, ناهيكم عن التوجهات السياسية داخل الدول حيث لا يوجد توافق تام يدفع نحو التكامل, فالحسابات القومية مازالت تطغى وتتقدم على ما عداها, وبالتالي يصبح من الصعب قيام تكامل اقتصادي, أضف إلى ذلك وجود كيان غاصب في فلسطين المحتلة يعمل جاهداً لتعطيل أي تكامل اقتصادي شامل, ولا ننسى أن منطقة الشرق الأوسط هي منطقة غير مستقرة سياسياً وتشهد توترات على الدوام, والتكامل الاقتصادي يحتاج إلى استقرار, وهذا ما ينقص الشرق الأوسط, غير أن التكامل الاقتصادي إذا تم بشكل تدريجي وثنائي قد يؤتي ثماره, وهذا ما يجب على دول المنطقة العمل عليه, حيث إن التطور الاقتصادي في العالم يحتّم الذهاب إلى التكامل الاقتصادي, وإلا لن تكون لاقتصادات المنطقة مكن على رقعة الشطرنج الاقتصادية لا في الإقليم ولا في العالم .

الأمن والاقتصاد والعملة في الشرق الأوسط بين صعودها وهبوطها, وتأثير الحروب عليها

د. محمد عنبر
المملكة الأردنية الهاشمية

مقدمة :

إن من الشروط الأساسية للبناء الاقتصادي هو توفير الملاذ والجو المستقر و الأمن لأنه لا يمكن تأسيس اقتصاد ناجح ينمو ويفيد الدولة بدون أمن واستقرار , في حين أن الاقتصاد إذا نجح في تحقيق فوائد ملموسة فإنه يعد وسيلة للحفاظ على تعزيز الأمن وتقويته.

من هنا فإن العلاقة بين الأمن والاقتصاد تعد علاقة توأم حقيقي لا يمكن الفصل بينهما ولا يمكن لأحدهما البقاء دون الآخر فترة طويلة. غير أن الأمن يعد الأكثر أهمية فإذا انتكس الاقتصاد قد لا يؤدي إلى تدهور مباشر في الأمن, في حين إذا تدهور الأمن فسينتكس الاقتصاد كنتيجة مباشرة

للتدهور الأمني, لهذا فإن الأولوية الأمنية لا يسبقها أولوية, وكلما زاد الاقتصاد نمواً وارتفع المستوى المعيشي للسكان زادت رفاهيتهم .

فالبناء الاقتصادي لأي بلد لا يمكن أن يتم في غياب قاعدة أمنية صلبة قادرة على حماية الشعب ومصالحه وحفظ حقوقه. و لنا في سوريا و العراق والصومال وباكستان وأفغانستان وغيرها من دول الشرق الأوسط أمثلة .

إن مفهوم الأمن الاقتصادي وانتقاله من مجرد كونه قضية عسكرية محضة إلى كونه قضية مجتمعية شاملة, تتعلق بمدى قدرة الدول والمجتمعات على تنفيذ خطط وبرامج تنموية، واقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية، وتمتين بناها الذاتية، فالأمن ليس المعدات العسكرية وإن كان يتضمنها، وليس القوة العسكرية وإن كان يتضمنها، وليس النشاط العسكري وإن كان يتضمنه, إن الأمن هو التنمية، فمن دون التنمية لا يوجد أمن، والدول التي لا تنمو لا يمكن ببساطة أن تظل آمنة (١).

نتيجة لهذا التحول في المفهوم الدولي للأمن الوطني أو القومي من جهة، ونتيجة التحديات الاقتصادية المتفاقمة والمتجددة باستمرار التي يواجهها عالم اليوم، من جهة أخرى، اتجه الاستراتيجيون في العالم إلى اعتبار مسألة الأمن الاقتصادي للدول كفاعل أساس في توجيه السياسات والاستراتيجيات العالمية والعلاقات الدولية، من دبلوماسية أو عسكرية.

يعرّف الأمن بأنه الحالة التي يكون فيها الإنسان محميًا من خطر يهدده... ويعرّف أيضًا بأنه الإحساس بالطمأنينة التي يشعر بها الفرد، سواء بسبب غياب الأخطار التي تهدد وجوده، أو نتيجة لامتلاكه الوسائل الكفيلة بمواجهة تلك الأخطار في حال ظهورها.

إن مفهوم الأمن الإنساني، كما ورد في تقرير الأمم المتحدة الإنمائي حول التنمية الإنسانية الصادر في العام ١٩٩٤، هو حجر الأساس في الدراسات التي تلت حول هذا الموضوع، والذي ما يزال يثير الجدل في أن الأمن الإنساني أي «تأمين الإنسان»، يتطلب تحريره من الحاجة Freedom From Want، وتحريره من الخوف Freedom From Fear.

ولذلك، فإنّ توفير الصحة والأمن والاستقرار الأسري وامتلاك القوت اليومي، وقلة الوفيات وانعدام الخوف وزيادة الأموال والسكّان، تشير إلى توفر حالة من الأمان الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع.

وهنالك أيضًا تعريف شامل للأمن بأنه القدرة التي تتيح للدولة تأمين انطلاق مصادر قوتها الداخلية والخارجية والاقتصادية والعسكرية، في المجالات المختلفة، لمواجهة المصادر التي تهددها في الداخل والخارج، في السلم والحرب، واستمرار انطلاق تلك القوة في الحاضر والمستقبل، وفق الأهداف المرسومة.

يمكن توسيع مفهوم الأمن الاقتصادي للشعب ليشمل تدابير الحماية والضمان التي تؤهل الإنسان للحصول على احتياجاته الأساسية من المأكل والمسكن والملبس والعلاج والتعليم، وضمان الحدّ الأدنى لمستوى المعيشة. وقد حاولت الأمم المتحدة أن تجد معنى جامعًا يفسر هذا المفهوم فتوصلت إلى الآتي: «الأمن الاقتصادي هو أن يملك المرء الوسائل المادية التي تمكّنه من أن يحيا حياة مستقرة ومشبعة. وبالنسبة لكثيرين يتمثل الأمن الاقتصادي، ببساطة، في امتلاك ما يكفي من النقود لإشباع حاجاتهم الأساسية، كالغذاء، والمأوى اللائق، والرعاية الصحية الأساسية، والتعليم».

١ - علم الاجتماع ، انتوني جيدنز ، ترجمة فايز الصياغ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ٢٠٠٥ ، ص٣٧٣

إن تحقيق الأمن الاقتصادي يتطلب تأمين دخل ثابت للفرد عبر عمله المنتج والمدفوع الأجر، أو عبر شبكة مالية عامة وآمنة. وبهذا المعنى فإن ربع سكان العالم فقط هم ضمن هذه الفئة. وإذ تبدو مشاكل الأمن الاقتصادي أكثر جدية وخطرًا في الدول النامية، فإن الدول المتطورة كذلك، تشكو من مشاكل البطالة التي تشكّل عاملًا مهمًا في تسعير التوتر السياسي والعنف الطائفي والعقائدي وغيرها.

ولكن علم الأمن الاقتصادي لا يقتصر على هذا المفهوم الضيّق. فبإمكان هذا العلم معالجة مجال واسع جدًا من القضايا، مثل: مراقبة التدفقات المالية، مراقبة الاستثمارات الأجنبية، وضع وسائل وآليات لضمان حماية الصناعات الوطنية، خصوصًا في حال كونها حيوية و/أو ناشئة، تحقيق الأمن الغذائي والاكتفاء الذاتي في مجالات عدة، كذلك محاربة التجسس الصناعي والتجاري ومحاربة الجرائم الالكترونية، إلخ...

العملة في الشرق الأوسط بين صعودها وهبوطها :

تعاني بلدان منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا العجز في الميزان التجاري وكذلك الطلب على التوظيف والصحة والتعليم والحماية الاجتماعية. ومع ذلك، فإن حكومات هذه البلدان مستمرّة في تخصيص حصة كبيرة من النفقات الحكومية لدعم الاستهلاك إلى درجة أضعفت تخصيص استثمارات في خدمات عامة أخرى حاسمة, فإعانات الوقود التي تمثّل غالبية دعم الاستهلاك في مصر والمغرب وسوريا، تعود بالنفع على الأغنياء أكثر من الفقراء. ومع ارتفاع أسعار النفط وضيق المجال المالي (أي المجال المتاح للحكومة لاتّخاذ قرارات تتعلّق بكيفية إدارة ميزانيتها) لبلدان منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا منذ الارتفاع الأخير في الأسعار، أصبح عبء دعم الوقود على الميزانيات الحكومية أكثر حدّة, فقد قلّص الأردن وسوريا، وإلى حدّ ما تونس، الإعانات، لكن مصر والمغرب ما يزالان يتجنّبان الإصلاحات على هذا الصعيد. ومع ذلك، فإن إصلاح نظام دعم الوقود أمر لا مفرّ منه لأن المجال المالي لهذه البلدان لم يَعُد كافياً. وعن طريق تأجيل القيام بأي إصلاح، فإن واضعي السياسات يهدرون موارد ماليةً قيّمةً، وينخرطون في سياسات انكفائية، ويجعلون الآفاق الاقتصادية أكثر سوءاً.

يمكن وصف أعوام الأزمات السياسية في بلدان الشرق الأوسط بأعوام الانهيارات والمحطات الاقتصادية الصعبة في تاريخ بلدان الشرق الأوسط وخاصة لبنان وسوريا والعراق . بدءًا من فقدان السيولة بالعملة الأجنبية وتخلف المصارف عن تلبية زبائنها، وانهيار سعر صرف الليرة مقابل العملة الخضراء، وصولًا إلى الأزمات المحلية وتداعياتها

فالواقع بات كارثيًا، وقد أدى إلى إغلاق عدد كبير من الشركات والمحلات التجارية، وارتفاع نسبة البطالة التي تخطّت الـ٥٠٪، ووصول أكثر من نصف الشعب اللبناني وكذلك السوري والعراقي وغيرهم إلى ما دون خطّ الفقر..

وهكذا، يستمرّ دعم الاستهلاك في امتصاص حيّز كبير من الموارد الحكومية لبلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ويُزاحِم النفقات في مجالات رئيسة أخرى مثل الصحة والتعليم والبنية التحتية الأساسية. ففي مصر، بلغ الدعم نسبة ٨ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي في المتوسط، على مدى السنوات الأربع الماضية، وهو ما يعادل الإنفاق الحكومي الاستثماري ثلاث مرات. وخصّصت تونس والمغرب وسوريا في المتوسط نسبة ٣,٢ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي للدعم في العام ٢٠٠٩، فيما تجاوزت النسبة في الأردن أيضاً أكثر من ٣ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٩،

> **يمكن وصف أعوام الأزمات السياسية في بلدان الشرق الأوسط بأعوام الانهيارات والمحطات الاقتصادية الصعبة في تاريخ بلدان الشرق الأوسط وخاصة لبنان وسوريا والعراق ، بدءًا من فقدان السيولة بالعملة الأجنبية وتخلف المصارف عن تلبية زبائنها، وانهيار سعر صرف الليرة مقابل العملة الخضراء، وصولًا إلى الأزمات المحلية وتداعياتها**

على الرغم من أنها في اتجاه نزولي واضح. (٢)

حيث ينام المواطن في تلك البلدان على أزمة ويستفيق على أخرى. فمنذ بداية أزمات الربيع ، وهو يعيش قلق تأمين لقمة العيش لعائلته، ولكن القلق الأكبر سيكون لحظة الاستحقاق الكبير، لحظة أخذ القرار برفع الدعم عن المواد الأساسية (الطحين، الدواء، المحروقات...).

تعويم العملة الاقتصادية انتعاش أم انكماش؟

يؤدي التعويم عملياً إلى إحدى حالتين: رفع قيمة العملة المحلية أو خفضها، وكلتا الحالتين تؤثران في الأسعار وفي التجارة الخارجية وفي النمو الاقتصادي عامةً، وتختلف هذه الآثار بحسب طبيعة البلد الذي عوَّم عملته، إذ تختلف هذه الآثار في البلدان الصناعية المتقدمة عنها في البلدان النامية.

ففي حال أدى تعويم عملة ما إلى ارتفاع سعر صرفها مقابل بقية العملات، أي إلى ارتفاع سعر معادلتها مع العملات الأجنبية؛ فإن ذلك يؤثر سلباً في حركة الصادرات، لأن أسعار السلع المحلية تصبح مرتفعة للمستوردين الأجانب فينخفض الطلب عليها (وفقاً لدرجة مرونة الطلب)، ويؤدي ذلك إلى زيادة الواردات لأن أسعار السلع الأجنبية تصبح أرخص للمستوردين المحليين، مما يسهم في عجز الميزان التجاري، ويمكن أن تتشجع رؤوس الأموال المحلية للاتجاه نحو الاستثمار الخارجي لأنه أصبح في الإمكان مبادلة وحدة العملة المحلية بوحدات أكثر من العملة الأجنبية، وبذلك يتأثر ميزان مدفوعات الدولة تأثراً سلبياً، وتتأثر الصناعة المحلية بتعرضها لمنافسة الواردات، ويتباطأ النمو وترتفع درجة البطالة.

وفي حال أدى تعويم عملة ما باتجاه انخفاض سعر صرفها, أي انخفاض سعر تعادلها مع العملات الأخرى؛ فإن ذلك يؤدي إلى جعل أسعار السلع المستوردة أغلى بالنسبة للمقيمين، مما يُفترض أنه سيحد من شراء السلع القادمة من الخارج ويشجع الإقبال على المنتجات المحلية.

وإذا حصل ذلك، فنتيجته الطبيعية هي تراجع حجم الواردات, وبالمقابل تصبح أسعار السلع المصنّعة محلياً أرخص بالنسبة للأجانب، مما يُفترض أنه سيعزز القدرة التنافسية للمنتجات الوطنية ويرفع بالتالي من حجم الصادرات إلى الخارج.

وإذا تراجعت الواردات وتضاعفت الصادرات بما يكفي، فإن ذلك يعيد الميزان التجاري إلى حالة التوازن.

٢ - معالجة العجز في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: الحاجة إلى إصلاح آليات دعم الوقود
الحسن عاشي ، مركز مالكوم كير كارنيجي للشرق الأوسط بيروت ٢٠١٠ .بحث

مخاطر تعويم العملة :

إن الآثار الاقتصادية لتعويم العملات المذكورة أعلاه لا تنطبق تماماً ولا تصح في حالة البلدان النامية وذلك لعدة أسباب؛ أهمها أن الطلب العالمي على صادرات البلدان النامية في معظمه عالي المرونة، والجهاز الإنتاجي لديها ضعيف نسبياً وغير قادر على تلبية الطلب الخارجي، إن وجد، وهي تنفذ معظم تجارتها الخارجية بعملات أهم شركائها التجاريين، وليس بعملتها المحلية، وتقيّد على حركة العملة المحلية كثيراً.

وتشهد تجربة بعض البلدان في منطقة الشرق الأوسط مثل سوريا والعراق ولبنان على ذلك، فقد كان تخفيض قيمة العملة بهذه البلدان مصاحباً في أغلب الأحيان بتصاعد التضخم وتراجع الإنتاج.

إن منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بحاجة إلى تطبيق إصلاحات اقتصادية أكثر جرأة وعمقاً، ومن المتوقع أن يسجل نمو إجمالي الناتج المحلي في المنطقة ٠,٦ ٪ عام ٢٠١٩، وهي نسبة ضئيلة من المعدل المطلوب تحقيقه لتوفير فرص عمل كافية للسكان المتزايدة أعدادهم في سن العمل. وحتى في البلدان القليلة التي شهدت فترات من النمو الأعلى، لم ينخفض معدل الفقر، ما يشير إلى ضرورة استحداث إصلاحات لترسيخ المنافسة العادلة وتعزيز النمو الشامل.

إن المشهد يثير القلق؛ ليس فقط من الناحية الاقتصادية، بل من الجانبين السياسي والاجتماعي، فهناك دلائل تاريخية على دور الأزمة الاقتصادية التي تلت الحرب العالمية الأولى في صعود الفاشية واندلاع الحرب العالمية الثانية. وهناك حركات يمينية متطرفة حالياً تنشط من البرازيل إلى النمسا تستغل المخاوف الاقتصادية بين الشعوب.

خاتمة :

يدافع منظرو المدرسة النقدية في الاقتصاد والتيار الكلاسيكي الجديد في الاقتصاد بشراسة عن مفهوم تعويم العملة، إذ يزعمون أن تحرير أسعار صرف العملات بتركها للسوق يقوم بتحديد سعرها من دون أي تدخل أو توجيه من قبل الدولة يضمن دائمًا الوصول إلى حالة التوازن في الاقتصاد بحيث يتحدد السعر العادل، والوصول لهذا السعر نابع من اعتقادهم بكفاءة الأسواق وعقلانيتها التي ستوصل الجميع لتحديد هذا السعر.

بينما يعتقد معارضو التعويم أن العالم يعيش أيضًا حالة من عدم الاستقرار النقدي بسبب التقلبات المستمرة والكبيرة أحياناً لأسعار صرف العملات مقابل بعضها البعض والتي باتت محكومة بحركة المضاربة العالمية.

ما يزال اقتصاديو العالم عالقين في دوامة إشكالية آلية سعر الصرف العادلة التي تحقق الاستقرار للاقتصاد المحلي والاقتصاد العالمي على حد سواء، وإلى الآن الجدل قائم حول هذا الموضوع، في حين تبقى الحلول الناقصة هي الظاهر في عدم الاتفاق على آلية وسياسة معينة لسعر صرف العملات بحيث لا يضر العلاقات التجارية بين بعضها البعض .

المراجع:

1 - علم الاجتماع ، انتوني جيدنز ، ترجمة فايز الصياغ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 2005

2 - معالجة العجز في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: الحاجة إلى إصلاح آليات دعم الوقود ، الحسن عاشي ، مركز مالكوم كير كارنيجي للشرق الأوسط بيروت 2010 .

-3 الأمن الاقتصادي للإنسان العربي، الواقع والآفاق، إعداد حسين عبد المطلب الأسرج، مركز الشرق العربي

-4 برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2009: تحديات أمن الإنسان في البلدان العربية، نيويورك - الولايات المتحدة الأميركية، 2009، ص 117.

مخطط تاريخي لسوريا

المؤلف: روس بيرنز
ترجمة حسين إبراهيم محمد

"أوابد سوريا دليل تاريخي"

روس بيرنز هو مؤلف أربعة أعمال عن علم آثار وتاريخ سوريا والمنطقة. نُشر كتاب أوابد سوريا لأول مرة في عام 1992 ومنذ ذلك الحين تم نشره في سلسلة متوالية من الطبعات ذات الغلاف الورقي والمنقحة بما في ذلك طبعة باللغة الفرنسية. في عام 2009 نشرت دار نشر I B Tauris في لندن طبعة إنجليزية ثالثة منقحة. وفي عام 2005 ، تم نشر كتاب دمشق – تاريخ في دار نشر (روتليدج ، لندن) – وهو الشرح الوحيد المطول في كتاب باللغة الإنجليزية لهذه العاصمة العربية الرئيسية. هذا الكتاب متوفر الآن في طبعة غلاف ورقي. كما نشرت دار نشر (روتليدج ، لندن) كتاب حلب، تاريخ في عام بعنوان- أصول شوارع الأعمدة في مدن الشرق الروماني.

عمل روس لسنوات عديدة في السلك الدبلوماسي الأسترالي وقام بالعديد من المهام في الشرق الأوسط. كما رافق عدد من الجولات إلى سوريا ولبنان والأردن كمحاضر لصالح شركة السفر البريطانية مارتن راندال وشركة ملبورن الأسترالية للدراسة في الخارج. أكمل درجة الدكتوراه في المناظر الطبيعية الحضرية في الشرق الأدنى الروماني في جامعة ماكواري في سيدني في عام ٢٠١١. تبحث هذه الدراسة في دور السمة المميزة اللافتة للنظر التي تميز العديد من مدن المقاطعات الرومانية الشرقية - الطرق الطويلة المستقيمة التي تصطف على جانبيها الأعمدة التي تحدد شكل المدينة بأكملها في منظور واحد مسيطر.

مخطط تاريخي لسوريا

مقدمة

بالكاد تعطي سوريا الانطباع، وهي قطعة أرض تمّ الصراع من أجلها لآلاف السنين، بأنها جائزة مجزية. في الشكل، سوريا الحالية عبارة عن شكل رباعي مشوه، تم دفعه إلى الشمال الشرقي للاستيلاء على جزء صغير من نهر دجلة. والخط الساحلي قصير ومحصور بين تركيا ولبنان. يتصف جزء كبير من الأرض بأنه قاحل أو شبه قاحل تضاف إليه الصحراء السورية الوسطى (وهي عبارة عن سهوب صخرية، يتراوح ارتفاعها بين ٧٠٠ و١٠٠٠ متر) تنفتح نحو الصدع التاريخي الكبير في الصحراء العربية الواقعة إلى الجنوب. وعلى طول ضفّتي وادِيي العاصي والفرات، توجد بعض المراعي، لكن الكثير من المنطقة القريبة من الساحل التي تستفيد من أمطار البحر الأبيض المتوسط الشتوية، تشغلها الجبال شديدة الانحدار والصخرية، ممّا يخلف مساحة صغيرة للسهول الساحلية.

ومع ذلك، تقع سوريا داخل الهلال الذي أنجز معظم الإنجازات العظيمة في الحياة الزراعية والاقتصادية والاجتماعية التي أعطت زخمًا للتغييرات التاريخية الرئيسية التي حدثت في الستة آلاف سنة الماضية. يمتد هذا الهلال الخصيب من أراضي العراق المروية شرقاً إلى وادي النيل جنوباً ليأخذ في امتداده أطراف بلاد التلال في الجنوب الشرقي. يمتدّ هذا الهلال الخصيب من الأراضي المروية في العراق شرقاً إلى وادي النيل جنوباً، آخذاً في امتداده أطراف الريف الهضابي في جنوب شرق تركيا والجبال التي تعانق ساحل البحر الأبيض المتوسط بين أنطاكية والقدس. تقع المراعي والبساتين وحقول الحبوب في سوريا في الوسط منه.

إذا كانت هذه الأرض، والتي تعاني من إنهاك فرط التاريخ، تبدو اليوم في بعض الأحيان قاتمة وعنيدة، فإنها تحتل موقعًا استراتيجيًا ذا قيمة لا تضاهى.

ففي سوريا توجد بقايا آثار العديد من طرق القوافل، والطرق الرومانية، ومسارات الحج، والطرق السريعة التي تشهد على دورها كممر للتجارة بين الشرق والغرب. وعبر سهولها، كان نظام وادي دجلة والفرات الغني يرتبط بالعالم الخارجي الذي كان يبدأ بالبحر الأبيض المتوسط. فعبر هذه السهوب، ومع تطور الاستقرار والتجارة الآمنة، كان يتم تبادل البضائع من مناطق بعيدة كالصين والهند. عندما حطمت الفتوحات الفارسية في القرن السادس قبل الميلاد الحواجز بين الشرق والغرب إلى حدٍّ أبعد، عبر الإسكندر المقدوني سوريا في جهد منه لتطوير نظام جديد يقوم على مزيج من اليونانية والشرقية. وأصبحت سوريا خلال العصر الروماني والبيزنطي النقطة المحلية في الجهود المبذولة للإبقاء على إمبراطورية عالمية.

كانت السيطرة على سوريا أمرًا ضروريًا لأيّة قوةٍ ترغب في السيطرة على شرايين التاريخ. لكن المهمة كانت معقدة لأن سوريا تمتلك القليل من الحدود الطبيعية لضمان أمنها. فإلى الشرق، يعتبر نهر الفرات طريقًا سريعًا إلى بلاد ما بين النهرين لم يقم بإزعاج المعتدين المحتملين أبدًا. وإلى الجنوب الشرقي، كانت الصحراء العربية الضخمة تاريخياً توجه طاقاتها الزائدة باتجاه سوريا إلى الجنوب الشرقي، الأمر الذي تسبب في تغييرات سكانية ميّزت العديد من عصورها

التاريخية. وعلى نحو مماثل، كانت السهول الشمالية نقطة جذب للمتضرّرين، الذين همشتهم التغييرات المتتالية في تركيا. ركز الكثير من التوجيه التاريخي للقوات على شمال غرب سوريا في النقطة التي يمتد فيها الممر الطبيعي بين أوروبا وآسيا على السهول بعد عبور الأراضي المرتفعة ساحل آسيا الصغرى الملتف. هنا أقام الإغريق والرومان مركزهم الحضري الرئيسي، أنطاكية (والتي هي الآن مقاطعة هاتاي في تركيا)، وهنا هزم الإسكندر جيوش داريوس المحتشدة وأدرك الصليبيون أولاً ما الذي حصلوا عليه في تحديهم السيادة الإسلامية.

لكن باستثناء الممرّ الطبيعي في الشمال الغربي، فإن سوريا أرضًا مفتوحة من دون أبواب. لقد تعلمت البقاء على قيد الحياة بالاعتماد على ذكائها من خلال التجارة والكفاءة السياسية بدلاً من الانغلاق على نفسها كأرض حصينة. لقد كانت بمثابة الحاجز الكلاسيكي، وإن لم يكن ذلك الحاجز يعني وجود القليل من التماسك الجوهري الخاص بها، وبالتالي فإنها كانت على الدوام تحت رحمة الآخرين. لقد تعلمت نقل الموجات العرقية الأولى من السهوب والصحراء التي تقع إلى الجنوب بدلاً من منعها، وتعلمت تمرير الموضوعات والأفكار العظيمة التي انتقلت بين الشرق والغرب، كما تعلمت توفير موطئ قدم بين التيارات الدينية التي اجتاحت المنطقة.

نظرًا لأن هذه الدراسة معنية بالمباني والآثار التي لا تزال في حالة يمكن التعرف عليها، فسوف نعرج على دور سوريا في عصور ما قبل التاريخ ودورها المركزي في نشوء أساليب الزراعة، وتدجين الحيوانات، وتطوير الحياة الحضرية التي أخرجت هذه المنطقة لأول مرة من ظلام حضارة ما قبل المدن.

العصر البرونزي المبكر (٣١٠٠-٢١٥٠ قبل الميلاد)

عندما ظهرت أقدم السجلات المكتوبة في العصر البرونزي المبكر(الألفية الثالثة قبل الميلاد)، شاركت سوريا في تطوير دول المدن التي نشأت

"تقع سوريا داخل الهلال الذي أنجز معظم الإنجازات العظيمة في الحياة الزراعية والاقتصادية والاجتماعية التي أعطت زخمًا للتغييرات التاريخية الرئيسية التي حدثت في الستة آلاف سنة الماضية. يمتد هذا الهلال الخصيب من أراضي العراق المروية شرقاً إلى وادي النيل جنوباً ليأخذ في امتداده أطراف بلاد التلال في الجنوب الشرقي."

في الأراضي السومرية التي تقع إلى الشرق، على طول نظام دجلة والفرات في بلاد ما بين النهرين. على الرغم من اختلاف الأصول (السامية) عن السومريين، إلّا أنّ سكّان مدينة ماري في أواسط الفرات، أقاموا بناهم الاجتماعية على أنظمة مماثلة. فمعرفة القراءة والكتابة من خلال تطوير نظام الكتابة المسمارية (وهي علامات على شكل إسفين في الطين الطري)، حفّزت المهن القانونية والتجارية المعقّدة، إذ كانت تعتمد سلطة الحكام المحليين على فعّالية سيطرتهم على الري والتجارة. تزامنت نهاية مرحلة مملكة ماري المبكرة مع صعود الإمبراطورية الأكادية بين ٢٣٤٠ و ٢١٥٠ تحت قيادة سرجون الذي وصلت غزواته من بلاد ما بين النهرين باتجاه الخليج الفارسي، وقد قام ابنه نارام سن بتعزيز ساحل البحر الأبيض المتوسط.

وإلى الغرب، كانت ماري تتمتع بعلاقات وثيقة مع مركز تجاري آخر له أهمية كبرى ألا وهو إيبلا. كان سكانها ساميّون وبحلول عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد،

أقامت شبكة معقّدة من الروابط السياسية عبر معظم شمال سوريا، على الرغم من أنها كانت تفتقر إلى الأساس الذي كانت تمنحه السيطرة على الري لدول المدن الأخرى. احتفظت ماري تحت الحكم اللاحق لسلالة أور بدرجة من الأهمية في ظل سلالة شكاناكو بينما أصبحت إيبلا دولة فرعية.

العصر البرونزي الوسيط (من ٢١٥٠ إلى ١٦٠٠ قبل الميلاد)

بحلول عام ٢١٠٠ قبل الميلاد، أصيبت التجارب المبكرة في المجتمعات الحضرية بحالة من الاضطراب بسبب التحركات السكانية الجديدة التي جلبت الأموريين (وهم من أصل سامي) من الصحراء السورية إلى الأراضي المستقرة في الهلال الخصيب. أدت فترة التدهور والاضطراب الحضري في بادئ الأمر إلى وضع حد لكثير من نمط التجارة الإقليمية الذي ازدهرت إيبلا فيه وفقدت المدينة أهميتها. بعد الاضطراب الأولي الذي تسبب به غزو الأموريين، استوعبت العديد من المدن السكان الجدد وتم استئناف تطوير الحضارة المدنية. فأصبحت مملكة يمحاض (حلب) قوة رئيسية في هذه الفترة، وجعلت إيبلا تدور في مدارها. وتمتعت إيبلا ببعض الاستقلال في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد كمدينة عمورية. حكم الزعيم البابلي حمورابي في الجنوب، (وهو حاكم سامي آخر حكم في الفترة الممتدة من عام ١٧٩٢ إلى ١٧٥٠) بحماسة إصلاحية في الداخل (إذ أنه أصدر نظامًا قانونيًا مقنّنًا حمل اسمه) لكن هذا لم يشتت انتباهه عن تطوير رغبة في الغزو مما دفعه إلى الغزو، فهدم ماري حوالي عام ١٧٥٩ قبل الميلاد، وبذلك أنهى عملية التوازن غير المستقرة التي حافظ عليها حاكم ماري زمري ليم (حكم من ١٧٧٥ إلى ١٧٦٠) بين بابل وحلب.

حمل هذا العصر الذهبي الجديد معه ازدهارًا التجارة الدولية (في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد) إلى جزء كبير من شمال سوريا. إذ تمكنت الممالك الأمورية في الشمال من مقاومة الحكم البابلي المباشر ولكنها تاجرت على نطاق واسع إلى الشرق مع مملكة- يمخاض، وألالاخ (تل العشارنة في سهل العمق شرق أنطاكية) (حران) وقطنا (شمال المشيرفة شمال حمص).

العصر البرونزي المتأخر١٦٠٠c-١٢٠٠ BC)

جاء التغيير الرئيسي التالي في لعبة القوى الإقليمية من الشمال الغربي . كان الحثيون (وهم يرجعون في أصولهم إلى الهندو أوروبيون) قد نصّبوا أنفسهم وسط الأناضول ووضعوا حدًا للسلطة البابلية عام ١٥٩٥ ق.م. وإلى الجنوب، دخلت مصر في حالة من الفوضى لمدة قرنين أو أكثر نتيجة للآثار الثانوية لهذه الحركة. وتم دفع الهكسوس، وهم شعب لا تزال جذوره مجهولة ولكن ربما كان مرتبطا بالأموريين أو الكنعانيين سكان الجبال الساحلية في سوريا وفلسطين جنوبًا بسبب الضغط الهندي الأوروبي.

في تلك الأثناء كان هناك شعبٌ ساميٌ شمالي يدعى الحوريون وهو شعب (تربطه صلات بالهندو أوروبين) يتحرك إلى سوريا بأعداد كبيرة من الشمال. وسرعان ما وصلت موجة أخرى مماثلة، وهي عبارة عن شعب ميتاني، للاندماج مع الحوريين كي يشكلوا اتحاد للإمارات الحورية، مملكة ميتاني (القرنين السادس عشر إلى الرابع عشر قبل الميلاد)، وتمركزت في المحافظة الشمالية الشرقية الحالية حول نهر الخابور وكانت تربطها صلات بـ "أرض أمورو" إلى الشرق. ضغطت منطقتهم (ومن ضمنها تلك الممالك التابعة لمملكة يامخد وألالاخ) ضد منطقة سيطرة الحثيين في الشمال الغربي. لقد نصبوا أنفسهم بثبات كافٍ كي يشكلوا جزءًا من مثلث القوى الذي قاتل من أجل الهيمنة على سوريا في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد – مصر، والحثيين، والميتانيين - حتى أصبحوا دولة تابعة للحثيين بعد سلسلة من مصاهرات التحالف التي تمّت في أواخر القرن الرابع عشر.

سعت مصر بشكل مبدئي منذ أيّام المملكة الوسطى إلى توسيع نفوذها في سوريا خاصّة

لتشجيع المدن الساحلية للوصول إلى مصادر الخشب الداخلية المهمّة لبناء السفن. وبعد الاضطراب الذي حدث في فترة الهكسوس، عاد الفراعنة في ظلّ ذرائع أكبر قدمتها المملكة الحديثة في حملات تحتمس الثالث الكبرى (أوائل القرن الخامس عشر)، وتحتمس الرابع (أواخر القرن الخامس عشر)، وست الأول، ورمسيس الثاني (أوائل إلى منتصف القرن الثالث عشر). وبحلول القرن الرابع عشر، كان خصمهم الرئيسي في سوريا هو الإمبراطورية الحثية التي هيمنت على دول المدن المحلية (حيث تم الاستيلاء على دمشق عام ١٣٦٠) والتي كانت تبذل قصارى جهدها، مع ذلك، كي تمارس القوة ضد بعضها البعض. ساعدت فوضى فترة العمارنة في مصر على تحقيق هدفهم. في النهاية، حتى رمسيس الثاني المغرور التقى بنظيره عندما نصب كمين لسلاح الفرسان الحثي بقيادة حتوسيليس الثاني في قادش ١٢٨٨C.

في ذلك الوقت تقريبًا وإلى الجنوب، كانت قبيلة الإسرائيليين تتحرك إلى فلسطين من الشرق مع عواقب لم يتم حلها بعد ٣٠٠٠ عام.

تمتع ساحل البحر المتوسط بالإجمال بحياةٍ مزدهرةٍ وغير مضطربة بالاعتماد على طرق التجارة البحرية التي بناها الفينيقيون- وهم شعب من أصل سامي انتقل إلى المنطقة في بداية الألفية الثانية وأسس ثقافة مزجت بين تأثيرات بلاد ما بين النهرين والأناضول و بحر ايجة ومصر. تُركت المدن الساحلية أوغاريت، وجبالة (جبلة) وأرواد في هذه المنطقة من الازدهار النسبي ،لتباشر أعمال جني الأموال. ونجحت بعض الجيوب المنتشرة وعلى نحوٍ خاص أوغاريت، والتي استفادت من تجارة النحاس مع جزيرة قبرص المجاورة، في العمل لصالح كل من مصر والحثيين وضد بعضها البعض أو ضد طرف ثالث. حملت روابطها التجارية معها اتصالات على نطاق أوسع بما في ذلك مع ميسينا (بعد ١٥٠٠) ومع بحر إيجه. وواصل التقليد في الألفية التالية أحفادهم الكنعانيين في الجنوب، الفينيقيون، والذين عملت مستعمراتهم الخمسين المنتشرة

> **كانت ماري تتمتع بعلاقات وثيقة مع مركز تجاري آخر له أهمية كبرى ألا وهو إيبلا. كان سكانها ساميّون وبحلول عام 2400 قبل الميلاد، أقامت شبكة معقّدة من الروابط السياسية عبر معظم شمال سوريا، على الرغم من أنها كانت تفتقر إلى الأساس الذي كانت تمنحه السيطرة على الري لدول المدن الأخرى**

حول البحر الأبيض المتوسط على نشر الأبجدية في العالمين السامي واليوناني.

العصر الحديدي(١٢٠٠-٥٣٩ ق.م)

ومع ذلك، فإن رقعة الشطرنج العرقية والسياسية في سوريا تمت بعثرتها بوصول شعوب البحر حوالي عام ١٢٠٠ ق. م. أدى غزو شعوب البحر التي انتقلت من الغرب، ربما من بحر إيجه، إلى إنهاء مرحلة الأوج التي وصلت إليها أوغاريت وكذلك إنهاء الإمبراطورية الحثية، ولم يتم إيقافها إلا عند ضفة النيل من خلال حملات رمسيس الثالث البرية والبحرية حوالي ١١٩٨-١١٦٦ قبل الميلاد.

في ظل الارتباك الذي خلفه عبور شعوب البحر، وصلت حركة سكان سامية إضافية من الجنوب على شكل الآراميين ٣، وهم شعب بدوي تمركز في الشمال على نحوٍ خاص حيث نشأت حوالي عشرين إمارة سميت با»الحثيين الجدد» – حلب، وأرباد (٣٠ كم شمال حلب)، وتل برسيب، تل

> **تمتع ساحل البحر المتوسط بالإجمال بحياةٍ مزدهرةٍ وغير مضطربة بالاعتماد على طرق التجارة البحرية التي بناها الفينيقيون - وهم شعب من أصل سامي انتقل إلى المنطقة في بداية الألفية الثانية وأسس ثقافة مزجت بين تأثيرات بلاد ما بين النهرين والأناضول و بحر ايجة ومصر. تُركت المدن الساحلية أوغاريت، وجبالة (جبلة) وأرواد في هذه المنطقة من الازدهار النسبي، لتباشر أعمال جني الأموال**

حلف، حطينة، وحماة. وإن نحن استثنينا بعض الاستمرارية في اللبس واللغة، فلم يكن هناك، في الواقع، أي صلة بين الإمبراطورية الحثية والإمارات، والتي كانت قيادتها الأصلية ربما تتحدث اللغة اللووية (مصدرها جنوب آسيا الصغرى). وأدى وصول الآراميين من الصحراء إلى مزيد من المزج. يعكس فن شمال سوريا في الفترة التي أعقبت ٩٠٠ ق.م تنوع الأصول في محاولة خرقاء لمنافسة القوة الضخمة لخصومهم الآشوريين في الشرق. وفي الجنوب، قادت مدينة-دولة أرام- دمشق تحالفًا من القوات الذي كبح أطماع مملكتي إسرائيل ويهودا. وعلى الساحل، نجت المدن الفينيقية من عصر الظلام الذي تلى غزوات شعوب البحر وواصلت العمل كقناة للمنتجات والأفكار بين اليونان ومصر والبر الرئيسي الآسيوي. لكن، لم تفلح الدول الآرامية المجزأة من الحفاظ على استقلاليتها في مواجهة قوى جديدة وقوية من الشرق. سيطرت الإمبراطورية الآشورية (١٠٠٠-٦١٢) بقيادة شلمنصر على نحو دائم على أجزاء من شمال سوريا وفينيقيا بدأً من عام ٨٥٦ وقام تحالف الدول الآرامية بموجهتها في معركة قرقار عام ٨٥٣. وتحت حكم تيغلاث بيلاسر (٧٤٤-٧٢٧ قبل الميلاد)، توغل الآشوريون بقوة أكبر في سوريا وأنهوا استقلال دمشق عام ٧٣٢ ق.م. لكن تطلب الأمر المزيد من الإجراءات التي قام بها سرجون الثاني (حكم في الفترة الواقعة بين ٧٢١و٧٠٥ قبل الميلاد)، بعد تجدد الاضطرابات في سوريا وفلسطين، للتأكيد على خضوع دمشق.

فرض الآشوريون إدارة هيكلية في أراضيهم الغربية حيث كانوا يشعرون بالرضى إلى حد كبير للمكاسب النفعية ولعمل العبيد. زينت الغنائم والجزية التي كانت تأتي من غاراتهم قصور نينوا وخورش آباد التي فتنت علماء الآثار التاسع عشر إلى حد بعيد. وحتى أن مراكز مثل "أرواد" وصيدا في جنوب لبنان لم تستطع تجنب عنف طموحات الآشوريين المتأخرين، رغم أن صيدا قاومت حتى عندما انقض عليها آشور بانيبال " كذئب الحظيرة" سنة ٦٦٨. وفي نهاية الأمر سقطت صيدا، لكنها لم تسقط بيد الآشوريين، ولكنها سقطت في ٥٨٧ بيد نبوخذ نصر أحد أوائل حكام الكلدان الذين أعقبت هيمنتهم قصيرة الأمد في سوريا (٦٠٥-٥٣٩) هزيمتهم للآشوريين (استولوا على نينوى في (٦٢٠) بعد فترة طويلة من التنافس في أرض الوطن المشتركة في شمال بلاد ما بين النهرين.

الفترة الفارسية (٥١٩-٣٣٣ قبل الميلاد)

قام الفرس الأخمينيين بضم جزء كبير من سوريا كنتيجة لتحركهم غربًا وهزيمتهم للبابليين الجدد باستيلاء قورش على بابل عام ٥٣٩. جعل الإخمينيون سوريا مرزبانيتهم أو مقاطعتهم الخامسة (أبار نهارا - ما وراء النهر) ولربما كانت عاصمتها تقع في دمشق. ولقد أدركوا الانتشار الواسع للغة الآرامية والخط الفينيقي الجديد واعتمدوها كلغة مشتركة لإمبراطوريتهم، مما ضمن بقائها بحالة جيدة إلى الفترة الرومانية. جلب الفرس إلى مقاطعاتهم الثلاث وعشرون نظامًا إداريًا منتظمًا وخيرًا نسبيًا. لكن قبل كلّ شيء، أدى اندماج الساحل السوري في شبكة

من التبادلات التي كانت تربط شرق البحر الأبيض المتوسط باليونان إلى أول اشتباك كبير بين الشرق والغرب. ركز الفرس جهودهم على سوريا لإيجاد مجال نفوذ في شرق البحر الأبيض المتوسط، فواجههم الإغريق بمشقة (على سبيل المثال معركة ماراثون في عام ٤٩٠)، وأولى الفرس سوريا التركيز في جهد منهم للسيادة خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، الأمر الذي جلب عنصر فارسي فريد إلى الأرض والذي لم يتبق منه سوى القليل من الآثار (*عمريت).

الفترة الهلنستية (٣٣٣-٦٤)

تمّ حسم المنافسة اليونانية الفارسية في المعارك الكبرى (جرت الأولى في أسوس عام ٣٣٣) والتي هزم فيها الإسكندر الأكبر قوات داريوس الثالث. تقع إيسوس إلى الشمال من الممر الذي يقع في جبال الأمانوس (جنوب شرق تركيا) والتي تسمى البوابات السورية. بعد وفاة الإسكندر في بابل عام ٣٢٣، استغرق الأمر بعض الوقت لتسوية تقسيم أراضيه بين الجنرالات. كانت سوريا محط نزاع، حيث سقط شمال سوريا بيد سلوقس الثاني نيكاتور (والذي كان قد تم تعيينه بالفعل في بلاد ما بين النهرين) بعد انتصاره على أنتيجونوس في معركة إيسوس (فريجيا) عام ٣٠١. استولى بطليموس الأول سوتر، والذي كان قد تولى قيادة مصر بالفعل' على الجنوب (بما في ذلك دمشق) ومناطق لبنان وفلسطين. بدأت المملكة السلوقية على أساس منظم وعقلاني لكنها لم تنجح في القيام بلحم سوريا كقاعدة آمنة للسلالة المقدونية. بتطبيق مبادئ الحكومة والإدارة والتي كانت موجودة في أماكن سيطرة الإسكندر، تم إنشاء مقر ولايات جديدة- أنطاكيا، سلوقيا (الآن السويدية شمال نهر العاصي في تركيا) *أفاميا و لأوديسا (اللاذقية) كانت المراكز الرئيسية. شملت المراكز الفرعية المستقرة: «سيرهوس، وشالسيس، وبلوم (قنسرين)، وبروية (حلب)، وأرادوس (أرواد)، وهيرابوليس (ممبج)، و» دورا أوروبوس «. وكان الهدف من هذا المركز الأخير الدفاع عن الصلة بين المجالين السلوقيين الرئيسيين: سوريا وبلاد ما بين النهرين.

وفي حين أنه لم يتجاوز عدد الجنود اليونانيين ٥٠,٠٠٠، فإن عملية إضفاء الطابع الهيلينستي على المنطقة كانت قد بدأت. ومع ذلك، حافظ العديد من دول المدن على درجة من الاستقلالية، وعلى الرغم من أن دول المدن تلك قد تخلت عن سلالاتها الحاكمة المحلية كي تصبح جمهوريات تابعة للمملكة السلوقية، إلا أنها احتفظت بدرجة متزايدة من حرية المناورة وترافق ذلك مع ضعف السيطرة السلوقية على سوريا في القرن الثاني قبل الميلاد. وبحلول عام ١٩٨ قبل الميلاد فقد البطالمة سيطرتهم على جنوب سوريا عندما سقط في يد الملك السلوقي أنطيوخس الثالث ميغاس (الكبير) (حكم في الفترة بين ٢٢٣و ١٨٧قبل الميلاد). كان هذا الأمر بمثابة بداية عودة مؤقتة للسلالة السلوقية التي نجم عنها قيام الرومان (أسياد اليونان الجدد) بفحص قوات أنتيوكوس في مغنيسيا مما ألزمه بموجب شروط معاهدة أفاميا التي ووقعت عام (١٨٨) قبل الميلاد بالتنازل عن جميع فتوحاته التي قام بها عبر طوروس. تم إجبار خلفه، أنطيوخوس الرابع إبيفاني، (حكم في الفترة الواقعة بين١٧٥و١٦٤ قبل الميلاد) على الانسحاب من مصر، ومرة أخرى بعد التدخل الروماني (١٦٨ قبل الميلاد). أدت محاولات فرض سياسة الهيلينستية على اليهود (بما في ذلك تدنيس معبد القدس من خلال إنشاء بديل عنه لزيوس – وهي قضية «الرجس» المشار إليه في دانيال ٩,٧) إلى مقاومة شرسة شملت بما في ذلك دور المكابيين في رعاية عودة ظهور دولة يهودية في فلسطين بعد عام ١٦٦ قبل الميلاد. ومع اقتراب القرن الأول قبل الميلاد، كانت سوريا السلوقية تتدهور بشدة بفعل غزوات الأرمن من الشمال، والبارثيين من الشرق، والأنباط العرب إلى الجنوب.

سوريا الرومانية (٦٤ ق.م - ٣٩٥ م) (خريطة المواضيع)

أصبح الرومان، والذين أبدوا اهتمامهم بمصير سوريا منذ غزوهم لليونان، منخرطين بشكل متزايد بشؤونها. ففي عام ٦٤ قبل الميلاد، ألغى المندوب الروماني، بومبي، المملكة السلوقية

رسمياً وأنشأ المقاطعة الرومانية وكانت مدينتها الرئيسية (المدينة الكبرى) مقرها في أنطاكية. ولبعض الوقت، أصبحت سوريا جزءًا من الإعداد لصراع رهيب على القيادة أدى في نهاية المطاف إلى زوال الجمهورية الرومانية. لعبت المراكز الرئيسية لعبة تبديل الولاء بين أغسطس قيصر ومارك أنتوني باستمتاع ومع تغير الأحوال . فلقد استفادت سوريا من السلام الذي فرضه أوغسطس وفترة التعزيز والازدهار التي أعقبته بأن أصبحت واحدة من الولايات الرئيسية للإمبراطورية، وظلت تحت سلطة الإمبراطور، الذي يمثله محليًا مندوب يحمل رتبة قنصلية. ازدهرت أنطاكية بشكل خاص لتصبح المدينة الإمبراطورية الثالثة بعد روما والإسكندرية، لكن المراكز الأخرى مثل دمشق، وحلب، والمركز التجاري تدمر استفادت إلى حد كبير أيضًا. في عهد أغسطس، كانت تمركز أربعة فيالق في سوريا، وكان مستوى التهديد أقل بكثير، وعلى سبيل المثال، كان عدد الفيالق أقل من ألمانيا التي كان يعسكر في حاميتها ثمان فيالق.

حازت الإدارة الرومانية في سوريا تدريجيًا على المزيد من السيطرة المباشرة على دول المدن شبه المستقلة سابقًا مثل أرادوس وإميسا (حمص) وأعضاء الاتحاد الفضفاض الذي كان يسمى ديكابوليس (المدن العشر) (مثل أبيلا ودمشق وكاناثا (قنوات) والتي خضعت بهدوء للحكم المباشر بحلول أوائل القرن الأول الميلادي. كانت

تقسيمات المقاطعات الرومانية

يلخص الجدول التالي التقسيمات الإدارية التي حكمت منطقة سوريا الأعم في العصرين الروماني والبيزنطي. لم تتضمن مقاطعة سوريا الأصلية عددًا من الإمارات أو دول المدن التي سمح الرومان بالاستمرار فيها داخل حدود مقاطعاتها بما في ذلك مدن ديكابوليس (كاناتا (قنوات) ودمشق الحاضر في سوريا وإميسا. تم استيعاب الإمارات ودول المدن تدريجيًا تحت حكم أغسطس المباشر بدءا من الدائرة التي تدعى (برنسبيت) "principate"١ حتى دمج تروجان للمملكة النبطية عام ١٠٦

التاريخ	الامبراطورية	المقاطعات	العواصم
BC ٦٤	الجمهورية	سوريا	أنطاكيا
AD ٦٩	فيسبنيان	سوريا	أنطاكيا- يهودا - قيصرية
١٠٦	تروجان	سوريا - يهودا - شبه الجزيرة العربية	أنطاكيا - ايوليا كابيتولينا- بصرى
١٦٤	سيبتيموس - سيفيروس	كويل سوريا-سوريا فينقيا- شبه الجزيرة العربية سوريا فلسطين - بلاد ما بين النهرين	لاوديسا - لاحقاً أنطاكيا- - صور - بصرى - ايوليا كابيتولينا- نصيبين-
٢٩٥	دقلديانوس	شبه الجزيرة العربية - اوغوستا لبناني- فينيقية- سوريا كويل- اوغوست الفرات- اوسروين- بلاد مابين النهرين	بيترا - بصرى - صور - أنطاكيا - سيروس أديسا - نصيبين
حوالي ٣٩٥	أركاديوس	سوريا الأولى- سوريا الثانية - فينيقيا البحرية - فينيقيا اللبنانية - فلسطين - شبه الجزيرة العربية - بلاد ما بين النهرين - الفرات - أوسروين	أنطاكيا - أفاميا - صور - دمشق/ إيميسا ثلاث مقاطعات - بصرى - سيروس - أديسا

في حالات كثيرة، كانت المقاطعات تغطي أجزاء محدودة من سوريا يومنا هذا

ملاحظات: تم تغيير اسمها إلى سوريا في ١٣٥ عندما أصبحت القدس (أيوليا كابيتولينا) العاصمة. (٢) شملت المدن الرئيسية في جنوب سوريا - دمشق ، إميسا ، تدمر (٣) أنشأ جستنيان (منتصف القرن السادس) مقاطعة سورية ثالثة (ثيودورياس تكريماً لزوجته) خارج المنطقة الساحلية حول لاودكية. (٤) كانت المدن الرئيسية دمشق وإيميسا وهليوبوليس (بعلبك) وتدمر

العملية بطيئة الحركة في فلسطين حيث سمح مجلس الشيوخ للحشمونيين اللذين أبدوا تعاونًا باقتطاع مملكتهم تحت الحماية الرومانية جزئيًا على حساب الأنباط في جنوب سوريا. (تم طرد الأنباط أيضًا من دمشق وتراجعوا إلى وضع شبه مستقل في ,وضع البتراء الحصين (في جنوب الأردن)، واحتفظوا بالسيطرة الكاملة شمالًا حتى بصرى). تبع الحشمونيون خط هيرودس العظيم الأكثر صخبًا (ملك من ٣٩ إلى ٤ ق.م) لكن الرومان استغلوا فرصة موت ورثة هيرودس، أغريبا الثاني في ٩٢/٣ لدمج فلسطين في مقاطعة سوريا.

ازدهرت سوريا من الناحية الاقتصادية وأصبحت ليس فقط منطقة تجارية ذات أهمية مركزية في تجارة الكماليات بين الشرق والغرب (من الصين والهند وافغانستان وبلاد فارس)، ولكنها أصبحت أيضًا منطقة زراعية كانت حبوبها ونبيذها يزودان السوق الروماني بقسط وافر. ولخدمة هذه التجارة، تم تنظيم الطرق التجارية من خلال بناء الطرق، ومن ضمنها الطريق الشمالي / الجنوبي عبر ماريس وطريق نوفا تراينا والطريق الشرقي / الغربي عبر تدمر مما وفر الكثير من الوقت والجهد بالمقارنة مع الطريق الشمالي الذي كان يسير مع نهر الفرات. وتم دفع الأنشطة الاستيطانية والزراعية إلى مناطق جديدة مثل أفاميا، وتدمر، ولاودكية اتي تقع على البحر (اللاذقية)، وتمت معاملة قنوات وبصرى معاملة مماثلة. تم إعادة تخطيط المنطقتين الأخيرين بعد أن أدت سياسة تراجان التي اتسمت بعدوانية أكثر تهدف للسيطرة المباشرة إلى ضم حوران في ١٠٦ وإنشاء مقاطعة الجزيرة العربية (في المنطقة الواقعة جنوب دمشق وغرب فلسطين). اعتبرت روما سوريا مقاطعة ثمينة وكان يعتبر منصب المندوب بمثابة تعيينٍ قيم. جلبت زيارات العديد من الأباطرة مزايا خاصة إلى مدن مثل بصرى (عاصمة مقاطعة الجزيرة العربية الجديدة).

سوريا الرومانية ـ الطرق والجير

استندت السيطرة الرومانية على سوريا إلى نظام متطور للغاية من الطرق والحصون الحدودية التي كانت تعكس الاحتياجات الدفاعية والتجارية. بعد منتصف القرن الثاني، تمت إعادة تخطيط المحاور الرئيسية على نحو شامل ودقيق.

المسيحية

عندما اعترف الإمبراطور قسطنطين رسميا بالمسيحية بعد عام ٣١٣، وشجعها على نحو متزايد على أنها دين الدولة، كانت سوريا حقًا (وعلى وجه الخصوص أنطاكية) منطقة نشاطٍ مسيحيٍ مكثف يعود إلى إرساليات القديس بولس فيٍ منتصف القرن الأول. كانت المسيحية بمزجها بين التأثيرات اليهودية واليونانية في البداية عنصرًا إضافيًا لكنه كان عنصرًا قويًا في بوتقة الانصهار السورية. فقبل أن تصبح المسيحية جزءًا من الحياة العامة في القرن الرابع، كانت الكنائس مجرد مساكن معدلة (كما هو الحال في الكنيسة المنزلية التي تم اكتشافها في دورا أوروبوس). وبعد الاعتراف الرسمي بالمسيحية، اتخذت الكنائس شكل وحجم المباني العامة الرومانية. وانتشرت ظاهرة الحج التي رعتها والدة قسطنطين، القديسة هيلين، في وقت لاحق في سوريا بزيارتها للأماكن المقدسة في القدس في ٣٢٤، وتم استكمال ذلك بوصول تقليد الرهبنة (من مصر) وتبجيل الأماكن المرتبطة بالزاهدين والقديسين. وبحلول القرن الخامس / السادس، كانت سوريا تطفح بالقرى والكنائس الرهبانية ومراكز الحج الكبرى كتلك المخصصة لتكريم الزاهد، والقديس سمعان أو القديس سيرجيوس في شمال سوريا.

لكن المكونات المتنوعة للكنيسة السورية لم تكن أبدًا في حالة وئام تام مع بعضها البعض. إذ أصبح الجدل الفلسفي حول الموضوعات غامضًا، غموض الانقسام بين الطبيعة الجسدية للمسيح وطبيعته الإلهية، من المواضيع المهيمنة التي قسمت الكنيسة إلى شرقية وغربية (الوحدانية الشرقية مقابل الأرثوذكسية الغربية)، غالبًا ما كانت تصبح على ما يبدو جدالات مشفرة تخفي تحتها تيارات سياسية واجتماعية عميقة.

”إن رقعة الشطرنج العرقية والسياسية في سوريا تمت بعثرتها بوصول شعوب البحر حوالي عام ١٢٠٠ ق. م. أدى غزو شعوب البحر التي انتقلت من الغرب، ربما من بحر إيجه، إلى إنهاء مرحلة الأوج التي وصلت إليها أوغاريت وكذلك إنهاء الإمبراطورية الحثية، ولم يتم إيقافها إلا عند ضفة النيل من خلال حملات رمسيس الثالث البرية والبحرية حوالي ١١٩٨-١١٦٦ قبل الميلاد“

العصر البيزنطي (٣٩٥-٦٣٦)

إن اتخاذ بيزنطة كعاصمة ثانية للإمبراطورية تحت حكم قسطنطين والتي أعيدت تسميتها لاحقًا باسم (القسطنطينية) أنذر بالانتقال النهائي للعاصمة الرومانية إلى الشرق في عام ٣٩٦، والذي يعتبر بمثابة بداية العصر البيزنطي. تحت وفي ظل حكم ثيودوسيوس الثاني (حكم من ٤٠٨ إلى ٤٥٠)، جلب السلام الذي استمر لمدة ١٠٠ عام مع الساسانيين بعض الهدوء من الحروب الشرقية التي أنهكتهم، لكنها أصبحت مصدر تشتيت كبير للقوى مرة أخرى بحلول منتصف القرن السادس، واستنزفت الكثير من موارد عهد جستنيان (حكم من ٥٢٧ إلى ٥٦٥). وبرغم الاضطرابات على الحدود والانقسامات العميقة التي شقت الكنيسة (بدعة الأريوسية في القرن الرابع، والنسطورية في القرن الخامس، والجدل الذي كان يدور حول الأحادية والذي استمر من القرن الخامس إلى القرن السابع)، فقد شهدت سوريا ازدهارًا مستمرًا في الأجزاء من سوريا التي كانت تشهد استقرارًا أكثر. استمرت المنطقة الكلسية التي تقع غرب حلب (والتي أطلق عليها الرومان اسم بيلوس) في الازدهار، اعتمادًا على صادراتها من زيت الزيتون، وتم استغلال حوران بشكل مكثف؛ وظلت المدن مزدهرة. ازدادت المشاريع الكنسية وأديرة الرهبان وطور البناؤون السوريون مجموعة من الأساليب التي تكيفت مع النماذج الحضرية والكلاسيكية الجديدة ومزجتها مع عناصر من الشرق في كثير من الأحيان لبلوغ مزيج محلي غريب إلى حد ما والذي لا تزال بقاياه جلية بوضوح. في حقيقة الأمر، لا توجد منطقة في عالم البحر الأبيض المتوسط تحتوي على مثل هذه الثروة من الأدلة على هذه الفترة كتلك التي يمكن العثور عليها في العديد من الكنائس والقرى والرهبانيات في سوريا. برغم كل جهوده لمزاوجة العناصر الشرقية والغربية في المجتمع السوري، ومواصلة العملية التي بدأت حتى في ظل حكم الإسكندر، فإن الحكم البيزنطي بدأت تعوزه الحلول بحلول القرن السادس. أصبح الجدل حول الأحادية عنصرًا مزعجًا يثير استياءًا محليًا شديدًا ضد فرض القسطنطينية للأرثوذكسية. قام الفرس الساسانيون بغارات متزايدة في سوريا، وتخللت غاراتهم المدمرة سلسلة مدمرة من الزلازل. وعلى الرغم من جهود جستنيان والأباطرة اللاحقين لتحقيق الاستقرار على الحدود الشرقية بحلول أوائل القرن السابع، لم تكن سوريا قادرة فعليًا على مقاومة احتلال كسرى الثاني الذي دام لفترة طويلة والذي بلغ وجوده في أنطاكية ذروته بذبح ٩٠ ألف شخص. من سكانها. حاول البيزنطيون الدبلوماسية تحت حكم موريس (ص ٥٨٢-٦٠٢) لكنهم انقسموا فيما بعد بسبب صراعهم على القيادة. وعندما حشدوا أنفسهم لاستعادة سوريا في (٦٢٦)، كانت الحرب والمجاعات والزلازل والأوبئة ترهق البلاد التي بدت غير مكترثة بمصيرها تقريبًا. فبعد قرون من الحروب، وصل القتال بين العالمين الروماني والفارسي إلى طريق مسدود.

الفتح العربي (٦٣٢-٦٦١)

ملأت جيوش الإسلام الأولى هذا الفراغ. فبعد وفاة النبي محمد عام ٦٣٢، شجع خليفته في قيادة المؤمنين (الخليفة) أبو بكر قواته على القيام بالمزيد من الخطوات التي تجاوزت الحركات المترددة التي بدأها محمد نفسه لإيجاد منافذ جديدة في الشمال للطاقات العسكرية، والدينية، والتجارية للقيادة العربية الجديدة. أبدت قلة من المراكز السورية مقاومة كبيرة. واستسلمت دمشق مرتين، كانت المرة الثانية عام ٦٣٦ إثر الهزيمة الساحقة للقوات البيزنطية في اليرموك .اندمج المكون الصغير من السكان الجدد الذي جلبه عرب الصحراء تدريجيًا مع السكان الموجودين ذوي الأصول السامية، وأضفت عملية اعتناق دين الإسلام الجديد البطيئة المزيد من الضبابية على الفروقات بينهم. فعلى العكس من فرض الأرثوذكسية البيزنطية بالإكراه، اعتمد إدخال الإسلام على الحوافز الضريبية أكثر من اعتماده على الإكراه، وبالتالي أثار القليل من الاستياء النشط من السكان المحليين (ولقرون عديدة، ما زالوا مسيحيين في الأساس).

ظلت القيادة الجديدة متمركزة في المدينة المنورة وجنوب العراق لما يقرب من عقدين من الزمن. انتقلت الخلافة بعد أبو بكر إلى عمر (خليفة من ٦٣٤ إلى٦٤٤)، وعثمان (خليفة من ٦٤٤ إلى ٦٥٦)، ثم علي (خليفة من ٦٥٦ إلى ٦٦١) وهم الأربعة الذين يشكلون الخلفاء "الراشدين". لكن معاوية تحدى قيادة علي، ومعاوية هو زعيم الفصيل الأموي الذي اعتقد أن عليًا لم ينأ بنفسه عن قتلة عثمان على نحوٍ كافٍ. قتل علي مؤيد سابق ساخط. ومن بين نجلي علي، الحسن والحسين، لم يصر حسن على مطالبته بخلافة معاوية. كان معاوية قد استولى بالفعل على الخلافة وقرر على الفور نقل العاصمة إلى دمشق (حيث كان قد بنى قاعدة سلطته كحاكم).

الأمويون (٦٦١-٧٥٠)

حملت الخلافة الأموية معها ما قد يكون أكثر الفترات خصوبة في التاريخ السوري. حيث تم إعطاء البحث الدائم عن التوازن بين الشرق والغرب تفسيرًا جديدًا وقويًا في مزيج انتقائي من العناصر البيزنطية والفارسية وعناصر بلاد ما بين النهرين والعناصر المحلية. لم يتم استكشاف أو تفسير هذا التفاعل الناتج عن انهيار العالم القديم وصعود الإسلام بالكامل بعد، لكن اللقطة التي تقدمها لنا بقايا الفترة الأموية تشهد على تعقيد القوى العاملة في سوريا الأموية. قامت يد ماهرة بتأسيس سيادة اللغة العربية ومركزية الإسلام داخل الإمبراطورية. اتسمت الفترة بفضول فكري ازدهر في ظل جو من عدم التدخل في ظل قيادة معاوية الحكيمة وسياسته المعتدلة. استوعب الأمويون الأرستقراطيون المحاربون بيسر أفكار الثقافة السورية الغنية وكانوا يطمحون إلى أن يصبحوا خلفاء الرومان والبيزنطيون. أصبحت دمشق في ظل الأمويين مركزًا رئيسيًا (كانت مملكة الأمويين في نهاية المطاف تمتد من نهر السند إلى إسبانيا). وكانت نقطة إبداع سياسي وديني وفني محورية منحت المدينة ديناميكية نادراً ما تمتعت بها.

لكن تركيز الأمويين تحول تدريجياً من عالم البحر الأبيض المتوسط الأكبر. فهم لم يجدوا فقط محاورين جدد مهتمين بالتعامل مع القوة الجديدة (فأوروبا الغربية لم تكن قد بدأت حتى بالخروج من ليلها البربري، وكانت بيزنطة لا تزال تكافح من أجل الحفاظ على تماسكها فيما تبقى من أراضيها) بل توجب عليهم أن ويواجهوا اتجاها شرقيًا جديدًا يميل باتجاه شكل أكثر صعوبة من الأسلمة). تم بذر بذرة ذلك الشكل من الأسلمة في وقت مبكر من عهد معاوية (٦٦١-٦٨٠). إذ أدى تسنمه للسلطة إلى تفاقم الانقسام بين عشيرة بني أمية وأتباع علي، بقيادة نجل علي المتبقي، الحسين، عند وفاة الحسن عام ٦٦٩. وخلف معاوية ابنه يزيد (حكم ٦٨٠-٦٨٣). استجرت القوات الموالية ليزيد الفرقة الصغيرة من الحسين وأتباعه إلى معركة في كربلاء (جنوب العراق) في ١٠ محرم ٦١ هـ (٦٨٠ م)، حيث قتلت الحسين وجميع رفاقه باستثناء عدد قليل من أصحابه. ومن بين الذين تم أسرهم كانت زينب شقيقة الحسين. استعرت مأساة كربلاء لعدة

قرون. وفي نهاية المطاف، ستؤدي تلك المأساة إلى استمرار الانقسام بين أتباع الخلافة الأموية الأرثوذكس (الذين سيُطلق عليهم فيما بعد اسم السنة) وأنصار آل البيت (الشيعة). لقد حرف ذلك الانقسام الذي كانت بذوره تنبت في الشرق تدريجياً تركيز العالم الأموي تجاه التحديات التي كانت تواجه عدميته القومية.

لكن بعد أن تم إجبار المعارضة للخلافة على العمل السري، شرع الأمويون في فترة كانت الأكثر ثقة في إدارتهم. وقد تميزت تلك الفترة بمشاريع بناء ضخمة في الداخل ومناطق التوسع في الخارج خاصة في عهد عبد الملك (حكم من ٦٨٥ إلى ٧١٥). كان عبد الملك مسؤولاً عن مشروع الجامع الضخم في دمشق (*الجامع الأموي بدمشق) والذي لا يزال يشهد حتى بعد ١٢٠٠ سنة على ثراء وتنوع الإلهام الأموي.

بعد الهزيمة التي حلّت بمحاولات الأمويين الرامية لطرد البيزنطيين من آسيا الصغرى، نأت الإمبراطورية بنفسها بشكل متزايد عن محاولات البحث عن مكان في عالم البحر الأبيض المتوسط العدائي أو اللامبالي لمواجهة التحديات القادمة من الشرق. كان هشام ابن عبد الملك (حكم من ٧٢٤ إلى ٧٤٣) آخر الحكام الأمويين العظماء. تراجعت الأسرة الحاكمة من بعده، وقد أنهكها استياء الشيعة والغزوات العسكرية القادمة من آسيا الوسطى ومن بيزنطة وشمال إفريقيا. تلاشى خط السلالة الحاكمة كنتيجة لتولي سلسلة من الخلفاء الفاسقين أو غير الأكفاء، وكنتيجة للتوترات التي كانت تحصل في القصر والتمردات التي كانت تحصل في ولايتي فارس والعراق. ظهر أحد المطالبين بالخلافة، أبو العباس، في العراق وسار إلى دمشق عام ٧٥٠. وتمّ القضاء على الأمويين وفر حفيد هشام إلى إسبانيا حيث استمرت السلالة الأموية لمدة ٥٠٠ سنة أخرى.

تمثل سلالة العباسيين الجديدة التقليد الشرقي (الفارسي) ونسخة أكثر دينية من الخلافة، التي كانت ترفض عن وعي المحاولات الأموية المبكرة لمزاوجة المؤثرات الشرقية والغربية. ونقل العباسيون الخلافة إلى العراق (الكوفة) حتى تمّ تأسيس بغداد عام ٧٦٢) وأصبحت سوريا منطقةً راكدةً مهملة، إذ تمّت معاقبتها لموالاتها للخط الأموي الفاسد والمتراخي.

العباسيّون (٧٥٦-٩٦٨)

لم يضاه العباسيون على الإطلاق زخم وتوسع السلطة الأموية الإقليمي. لم ينفذ خلفائه الوعد الوارد في خطة الخليفة منصور بتشييد عاصمة جديدة على ضفاف نهر دجلة في بغداد (والتي شيدت وفقًا لمخطط دائري جريء). تمتع هارون الرشيد (الخليفة العباسي ٧٨٦-٨٠٩) فقط بموهبة إعطاء الخلافة مكانة أوسع. فلقد استقطب سفارة من شارلمان، وكسب الأخير من خلال لفتته حق حماية الحجاج المسيحيين إلى القدس.

لكن فشل العباسيون في منح زخمٍ مستمر لتطوير نظام حكمٍ إسلاميٍ موحد. وعلى مدى قرنين من الزمان، قام البدوُ الأتراك بغزو أطراف أراضي الخلافة على نحوٍ متزايد والذين أزاحوا النخب السياسية العربيّة الفارسية. وأصبحت الأنظمة التي تعتمد على القيادة الأجنبية هي الآن القاعدة والتي ميزت كل عصر من العصور حتى العصر الحديث. منعت عمليات التسلل التركية وغيرها من عمليات التسلل المتتالية عملية استعادة إمبراطورية واسعة في الشرق الأوسط (الوضع الذي انعكس مع صعود نظام المماليك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر). بدأت العملية في منتصف القرن التاسع مع تفكك المناطق العباسية بتولي سلالات مستقلة السلطة في مقاطعات مثل مصر (الطولونيون بعد ٨٦٨ والفاطميين بعد ٩٠٥) وبلاد فارس (الساسانيين بعد ٨٧٤). وأصبح الخلفاء أنفسهم رهائن في بغداد لـ "حماتهم" الأجانب مثل الأتراك السلاجقة منذ عام ١٠٣٧.

ومرةً أخرى تنازعت أطراف عدة على سوريا. واقترن النضال من أجل الهيمنة السياسية في هذه الفترة من الفوضى التي لم يسبق لها مثيل بعودة التوترات السنية الشيعية حيث قاتلت الفصائل

المختلفة لفرض وجهات نظرها على السكان المتأسلمين على نحوٍ متزايد. فنشأت طوائف متغايرة من جميع المعتقدات في هذه الأرض المحرمة على الإمبراطوريات كان الاتجاه السائد فيها هو الشيعة (وصيغتها الإسماعيلية) حتى في المدن (وخاصة حلب). انتشر التمرد والسخط وانسحب العديد من الطوائف ببساطة إلى الجبال والمناطق الصحراوية، وحافظوا هناك على هوية منفصلة تتجلى اليوم في التعقيد العرقي والديني للبلاد. (في ذلك الوقت، لجأت الطائفة المارونية إلى جبال لبنان، الأمر الذي يوضح أن التنوع والتشرذم ليستا خاصيتين حصريتين على المسلمين).

لا يمكن تتبع التاريخ السياسي لسوريا خلال هذه الفترة إلا على المستوى المحلي، حيث تم إنشاء خطوط منفصلة للخلافة السياسية في شمال وجنوب سوريا، اعتمادًا على درجة تعرضها للأحداث في مصر والعراق (خاصة الموصل؛ مركز السلطة السلجوقية) وبيزنطية وتركيا. حكمت السلالة الحمدانية حلب(من ٩٤٤ إلى ١٠٠٣) والتي أدت مغامراتها المثيرة فقط إلى أن تصبح حلب محمية افتراضية للبيزنطيين ولاحقًا للفاطميين. حكمت العائلة المرداسية البدوية المدينة اسميًا (من ١٠٢٣ إلى ١٠٧٩) في عملية توازن دقيق اعترفت فيها بالسيادة الفاطمية دون إثارة التدخل البيزنطي. استولى الأتراك السلاجقة الذين انتزعوا تفويضًا من الخليفة العباسي المفترض يقضي بحكم شمال سوريا فعليًا تحت قيادة السلطان ألب أرسلان (١٠٧٠-١٠٧٢). سعى البيزنطيون إلى الاستفادة من حالة عدم الاستقرار من خلال الاستيلاء على أجزاء من شمال سوريا بشكل متقطع تحت حكم الإمبراطورين نيسفوروس الثاني فوكاس (حكم من٩٦٣ إلى ٩٦٩) وجون الأول تزيميسيس (حكم من ٩٦٩ إلى ٩٧٦) لكن حملتيهما تلاشتا مع توقيع معاهدة قبول السيادة الفاطمية في سوريا في ٩٩٧.

شهدت دمشق مثلها مثل حلب فترة من الفوضى، ترافقت مع فترة حكم سلالة الإخشيديين في

"تمّ حسم المنافسة اليونانية الفارسية في المعارك الكبرى (جرت الأولى في أسوس عام ٣٣٣) والتي هزم فيها الإسكندر الأكبر قوات داريوس الثالث. تقع إيسوس إلى الشمال من الممر الذي يقع في جبال الأمانوس (جنوب شرق تركيا) والتي تسمى البوابات السورية. بعد وفاة الإسكندر في بابل عام ٣٢٣، استغرق الأمر بعض الوقت لتسوية تقسيم أراضيه بين الجنرالات"

القاهرة في القرن التاسع. و حل الفاطميون، وهم سلالة شيعية، محلهم في القاهرة بعد عام ٩٦١. وعلى الرغم من أن الإخشيديين أعلنوا عن ولائهم الاسمي للخلفاء العباسيين في بغداد، إلا أن الفاطميين أقاموا خلافة منافسة، وكانت دلالة استقطاب بغداد/القاهرة هي جعل سوريا ساحة معركة للتوترات بين المسلمين، وهو الوضع الذي ساد حتى أصبح مركز القوة فعالًا في توحيد الشرق الأوسط.

أدى استمرار صعود السلاجقة (التابعين اسميًا لخلافة بغداد) إلى نقل الصراع من أجل سوريا إلى مرحلة جديدة. وتم حسم سيادة الأتراك السلاجقة في معركة مانزكيرت (شرقي تركيا) والتي شهدت انتصارهم على القوات البيزنطية لرومانوس الرابع ديوجين عام ١٠٧١ والذي تم أسره. واصلوا استيلاءهم على معظم أجزاء سوريا، بما في ذلك دمشق عام ١٠٧٥ وبحلول عام ١٠٧٨ كانوا قد وصلوا إلى القدس. بحلول أواخر القرن الحادي عشر، وفي ظل حكم ألب أرسلان ومالك شاه الأول (سلطان من ١٠٧إلى١٠٩٢)، كان السلاجقة

يتمتعون بقوةٍ كافيةٍ في سوريا لإعاقة السلالة الفاطمية في جهدها الرامي للحفاظ على السيطرة على جنوب سوريا، على الرغم من تأرجح السيطرة على دمشق بين المركزين لمدة من الوقت. بدأ التفوق السلجوقي في قرع أجراس الإنذار في أوروبا، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار الضعف الظاهري للبيزنطيين، وكان في جزء كبير منه الحافز الذي أدى إلى الحركة الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر والتي دعت فإلى استعادة الجيوش المسيحية للأماكن المقدسة.

الصليبيون

جلب الصليبيون إلى سوريا بعد قرون من العزلة النسبية آخر صدامات العوالم الكبرى التي ميزت تاريخها. فبعد أن وجه البابا أوربان الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩) نداءه المؤثر إلى الجيوش في مجلس كليرمون فيران الذي عقد في ١٠٩٥، وجد الجيش المسيحي الذي تدفق إلى سوريا في عام ١٠٩٧ أن القيادة السلجوقية قد تفككت وأن البلاد كانت تفتقر إلى أي قيادة موحدة لمقاومة الجيش المسيحي. ولم يكن ذلك يعني أن الجيوش المسيحية كانت تتمتع بوحدة أكثر والتي كانت تمزقها مشاكل القيادة والخلافات على التكتيكات. فانقسمت الجيوش خلال فترة حصار أنطاكية الذي دام لتسعة أشهر والذي أدى إلى الاستيلاء الوحشي على مدينة أنطاكية (حيث لم تولِ الجيوش المسيحية احترامًا كبيرًا لسكان المدينة الأرثوذكس اليونانيين الذين كانوا لا يزالون موجودين فيها والذين كانوا يشكلون عددًا كبيرًا من سكانها). فاتجه بالدوين من بولوني شرقاً ليقيم إمارة منفصلة في الرها (جنوب شرق تركيا). وأصبح بوهيموند أميرًا لأنطاكية بينما توجه ريمون كونت تولوز إلى القدس مع البقية الباقية من الجيش المكون بجلّه من الغوغاء. أدى استيلاءهم في طريقهم إلى معرة النعمان إلى مذبحةٍ كبرى أخرى لكن لم يكن هناك وجودٌ لمقاومةٍ إسلاميةٍ منسقة.

سار الصليبيون من المعرة جنوباً على طول وادي العاصي ثم استداروا باتجاه الساحل مرة أخرى عبر فتحة حمص، واستولوا على الحصن الكردي الذي كان من المقدر له أن يصبح موقع القلعة الكبرى المعروفة الآن باسم قلعة الحصن. كانت طرابلس (التي تقع في شمال لبنان) هي الهدف الرئيسي التالي، لكن المدينة أبدت مقاومة شرسة وكان لا بد من تجاوزها بينما واصل الجيش طريقه للسيطرة على القدس في عام ١٠٩٩. استغرق الأمر بعض الوقت من الأمراء الصليبيين المختلفين كي يوطدوا سيطرتهم على المناطق الساحلية السورية. تم الاستيلاء على طرابلس أخيرًا في عام ١١٠٩ لكن المراكز الأصغر مثل * اللاذقية و * طرطوس وكذلك المنطقة الجبلية حول مصياف سقطت في وقت سابق. لكن المقاطعات الصليبية لم تكن في أي وقت من الأوقات كياناتٍ متراصة ومحكمة الدفاع. إذ تم تقسيم السيطرة بين عائلات مختلفة - فتم تثبيت كونت ريمون تولوز الآن في طرابلس،وتم تثبيت بوهيموند ولاحقًا تانكريد، في أنطاكية، وبالدوين في إديسا – لكن تنافسهم المتبادل ومشاريعهم المنفصلة بخصوص مملكة القدس وافتقارهم إلى جيوش دائمة محترفة أو جيوش كبيرة عنت أنه كان يجب تقديم العديد من التنازلات للبيئة السورية. كانت الانقسامات بين المدن والقيادات الإسلامية، وحقيقة أن الهوة الإسلامية / المسيحية كانت تتمتع في كثير من الأحيان بأهمية أقل من الإغراء المتمثل بإقامة تحالفات جديدة في سعيها وراء صراعات السلطة المحلية، والموقف الغامض للمجتمعات المسيحية المحلية - هذه العوامل وغيرها أضفت ظلًا من الضبابية على خط الصدع الكبير الذي كان يمتد نظريًا بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي.

لكن استمرت المواجهة لما يقارب القرنين من الزمان. فبالنسبة للمسلمين لم تحظ ذريعة الصليبيين للتدخل بالمصداقية. فنادرًا ما كان الرعايا المسيحيون في الدول الإسلامية يعانون من أي إجحاف، وكان يتم قبول الحجاج المسيحيين لفترة طويلة في الأراضي المقدسة. وهكذا كان يتم النظر إلى وجود الصليبيين على أنه غزو

مباشر كان يستخدم فيه الدين كغطاءٍ للدوافع الإقليمية.

بقي الفرنجة، كما كانوا معرفين لدى المسلمين، في معاقلهم، وسيطروا على بعض المناطق الريفية، وطرق الاتصال ، وجلبوا المجندين الجدد من خلال الحملات الصليبية المتجددة في أوروبا، وتزوجوا، وماتوا، وأقاموا القلاع والكنائس. على الرغم من تمسكهم بالشريط الساحلي النحيل ، إلا أن قبضتهم الداخلية (حتى عندما تم توحيدها بعد ١١٥٠ من خلال نقل القلاع الرئيسية إلى فرسان الإسبتارية وفرسان الهيكل) كانت متراخية نظرًا للنقص في القوى البشرية ونقص الدعم الشعبي في الريف. ونادرا ما تمكنوا من تهديد المراكز السكانية الإسلامية الرئيسية. حصلوا على القليل من المساعدة من المسيحيين المحليين - ولم يفعلوا سوى القليل لتعزيز موقفهم (كانت المساعدة تأتي عادة من الروم الأرثوذكس وبالتالي كانت بعيدة عن تطلعات الغربيين). بدأت عملية الاستنزاف البطيء لموقف الصليبيين عندما تم حشد القوات الإسلامية باتجاه مراكز السلطة السنية الجديدة في دمشق وحلب.

النهضة الإسلامية

كانت حلب أول مركز لتوحيد المسلمين في ظل حكم الأوصياء الزنكيين (الأتابك)، زنكي (حكم من ١١٢٨إلى١١٤٦) وابنه الثاني نور الدين (حكم من ١١٤٦إلى ١١٧٤). والذين كانا تابعين اسمياً للسلطان السلجوقي في الموصل ومن خلاله للخليفة في بغداد. واستمروا في نهج سياسة السلاجقة التي كانت تسعى لاستعادة الأرثوذكسية السنية، ودحر المكاسب التي حققها الشيعة بتشجيع من الفاطميين والإسماعيليين الذين كانوا يتلقون إلهامهم من الفرس. أصبح الإسلام السني نقطة الجمع الأكثر وضوحا ضد التهديد الأجنبي، وتجسدت مفاهيمه عن الشخصية الداخلية والحياة الصالحة في الشريعة (قانون الشريعة الإسلامية) وتم تنظيم الاسلام السني بفضل عمل القيادة الدينية المدنية والعلماء وبفضل شبكة تعليمية جديدة ومؤسساتٍ دينية. واستكمل الزنكيون توحيد دفاعات عوالمهم الروحية بتدعيم جاهزيتهم. فاستعادوا البؤرة الاستيطانية الصليبية التي كان مقرها في الرها (١١٤٤) وأزالوا الوجود الصليبي في وادي العاصي. و كانوا قد أخضعوا دمشق لسيطرتهم بحلول عام ١١٥٤، ووحدوا لأول مرة في جبهة واحدة المقاومة للصليبيين في سوريا، وبالتالي صقلوا مفهوم الجهاد.

لكن استغرقت عملية توطيد العقيدة وتطويق الصليبيين معظم القرن حتى تكتمل قبل أن يتم توحيد القوات الإسلامية في مصر وسوريا تحت قيادة واحدة (وبذلك حرم الصليبيون من القدرة على اللعب على سياسة القاهرة في مواجهة دمشق). أكمل نور الدين العملية، فقام بغزواتٍ على الوجود الصليبي في الجبال الساحلية السورية، لكن ابن أخيه صلاح الدين ذهب شوطًا أبعد من ذلك. على الرغم من كان تحت وصاية عمه، تمت دعوة صلاح الدين (كردي الأصل) لتولي الخلافة من ابن نور الدين الرضيع في عام ١١٧٦، بعد أن كان قد أنهى في وقت سابق (١١٧١) العصر الفاطمي في القاهرة باستعادة سلطة الخلافة العباسية اسميًا. لكن دمشق، والتي كانت لفترة طويلة قلب الخط الأمامي لمقاومة الوجود الصليبي في القدس كانت قاعدته الأمامية في مواجهة الصليبيين وفيها بدأت سلالة الأيوبيين (من ١١٧٦إلى ١٢٦٠ - باسم عائلته) والتي اتخذت فيما بعد شكل سلالتين منفصلتين في دمشق و القاهرة. من هناك أكمل توحيد سوريا، فسيطر على حلب بالكامل عام ١١٨٣، وبذلك حصل على عمق استراتيجي مكنه من شن حملة قوية ضد القوات الصليبية. وبحلول عام ١١٨٧ كان قد استدرج الملك غي من القدس إلى معركة حطين الكارثية في الجليل والتي شهدت الدمار الشامل للجيش المسيحي وأدت إلى سقوط القدس بأيدي القوات الإسلامية.

صمدت سوريا الصليبية أمام خسارة القدس. فنادرًا ما تمتع مفهوم الجهاد لتوحيد صفوف المسلمين بتأثير كبير خارج المناطق التي كانت

شهدت سوريا في القرن الرابع الميلادي ازدهارًا مستمرًا في الأجزاء من سوريا التي كانت تشهد استقرارًا أكثر. استمرت المنطقة الكلسية التي تقع غرب حلب (والتي أطلق عليها الرومان اسم بيلوس) في الازدهار، اعتمادًا على صادراتها من زيت الزيتون، وتم استغلال حوران بشكل مكثف؛ وظلت المدن مزدهرة، وازدادت المشاريع الكنسية وأديرة الرهبان.

تتأثر بشكل مباشر بنهب الصليبيين. فحتى حملة صلاح الدين الرائعة التي قام بها عام ١١٨٨ (انظر الإطار أدناه) لم تؤد إلى جهدٍ موحد لطرد الصليبيين من القلاع الكبرى في قلعة الحصن أو المرقب أو من طرطوس، أو اللاذقية، أو أنطاكية. وانتهى الإلهام بعد وفاة صلاح الدين. أدت الخلافات إلى تفتيت مملكته بين الأبناء المتنافسين واستغرق الأمر تسع سنوات قبل أن يقوم شقيقه العادل(سلطان دمشق من ١١٩٦إلى١٢١٨، وفي القاهرة من ١٢٠٠إلى ١٢١٨) بتجميع الأراضي الأيوبية مرة أخرى. وحتى أن أحد خلفائه في القاهرة، الكامل الأول نصر الدين (١٢١٨-١٢٣٨)، سلم القدس إلى الصليبيين بموجب معاهدة مع فريدريك الثاني بعد سقوطها في أيدي جيش الغزو التركي عام ١٢٤٤). وبحلول عام ١٢٦٠ تلاشت سلالة الأيوبيين، حيث أصيبت بالشلل بسبب الخلافات بين أحفاد جيش صلاح الدين، على الرغم من وجود إماراتٍ عرضية عن النشاط المحلي، على سبيل المثال حكم ابنه الثالث، الظاهر غازي، حاكمًا لحلب (من ١١٨٦ إلى ١٢١٥).

المماليك

انتقلت بؤرة تركيز الصراع الصليبي الإسلامي بحلول منتصف القرن الثاني عشر إلى مصر، والتي أصبحت هدفًا للحروب الصليبية اللاحقة. جاءت الصحوة الثانية الكبيرة للمسلمين من القاهرة بصعود قوة سياسية منفتحة، للمماليك (وهم حراس محترفون تعود أصولهم عادة إلى آسيا الوسطى أو تعود لأصول تركية) بانقلاب القصر الذي حصل عام ١٢٥٠. كانت أولى الغزوات المغولية لسوريا، تحت حكم هولاكو، هي التي دفعت المماليك إلى حشد القوى الإسلامية التي كانت تعاني من الوهن (معركة عين جالوت- «نافورة جالوت»- في ٣ سبتمبر ١٢٦٠) واستولت على دمشق من آخر حكام الأيوبيين، المالك النصر الثاني. منحت قيادة للسلطان المملوكي المالك الظاهر بيبرس التي تعوزها الرحمة (حكم من ١٢٦٠إلى ١٢٧٧) زخمًا جديدًا للقضية المناهضة للصليبين، وسرعان ما تم إزاحة الوجود المسيحي من أنطاكية في عام (١٢٦٨) ومعقلي قلعة الحصن وصافيتا القريبين عام (١٢٧١). وضعت الحملة المتزامنة ضد الشيعة الهراطقة القلاع الإسلامية في الجبال الساحلية تحت سيطرة الحكم السني (* مصياف). وتواصلت العملية تحت قيادة سلطان قلاون (حكم من ١٢٨٠ إلى ١٢٩٠) والذي هزم القوات الصليبية المتبقية بانسحابها المتعاقب من قلعة المرقب في (١٢٨٥) واللاذقية في (١٢٨٧) وطرابلس في (١٢٨٩) وطرطوس في (١٢٩١).

حملة صلاح الدين عام ١١٨٨

أمضى صلاح الدين بعد معركة حطين والاستيلاء على القدس موسم حملته التالية في شن سلسلة من الضربات العنيفة ضد المواقع الصليبية في سوريا. وتمثل همه الرئيسي في منع توغل الجيش الصليبي الألماني في طريقه عبر آسيا الصغرى واستكمال اتصالاته الدبلوماسية مع البيزنطيين بهدف تثبيطهم عن منح ألمانيا حرية الوصول عبر الأراضي البيزنطية. لم تتمثل أهدافه التكتيكية في دفع الوجود الصليبي

في سوريا إلى البحر ولكنها تمثلت في تقليل مساحة الأراضي التي يمكن أن توفرها للقوات الألمانية. وهكذا قرر أن لا يشن أي هجوم مباشر على التجمعات الصليبية الرئيسية حيث كانت تظهر مقاومة ولكنه بالأحرى ولكن بالأحرى أن يطوق مواقعهم ذات القوة البشرية الضعيفة في الداخل ويضييق الخناق على القوات المسيحية في المراكز الرئيسية – طرطوس وقلعة الحصن وقلعة المرقب وأنطاكية.

لاقت أساليبه نجاحًا باهرًا. أدى الاستيلاء على أكثر من ٥٠ موقعًا صليبيًا (الأمر الذي قلص في حينه مملكة القدس إلى جيب صغير حول صور) إلى إضعاف الوجود الصليبي على نحو مهلك، وحرمهم من السيطرة على أراضي واسعة النطاق والقدرة على اعتراض الطرق الرئيسية الداخلية الشمالية / الجنوبية. كان رد فعل الصليبي الضعيف على حملته بمثابة تبرير لافتراضاته حول قدرة قوة أجنبية على الحفاظ على وجودها في منطقة معادية. أظهرت آخر لفتة لصلاح الدين، والتي تمثلت في احتلال قلعة باغراس، والتي كانت تقع عمليًا تحت أنف أمير أنطاكية، بوهيموند، الضعف المطلق لقوات الفرنجة. ولعل الأمر الأكثر لفتًا للنظر هو أن الأمر استغرق من خلفاء صلاح الدين المسلمين ما يقرب من قرن آخر للاستفادة من هذا الإدراك وطرد القوات الصليبية المتبقية من الشرق.

على الرغم من حقيقة أن المماليك كانوا أجانب، لكنهم أقاموا بأنفسهم شبكات تحالفات مع العائلات الرئيسية والمؤسسات الدينية (العلماء) في المدن السورية الرئيسية. كانت فترة المماليك المبكرة عصرًا آخر من عصور دمشق الذهبية بفضل توجيهاتهم، وبفضل مساعدة الأوقاف التي كان حكامهم يمولوها في كثير من الأحيان. وبرغم أنها لم تكن مركز الممالك المملوكية (حيث بقيت القاهرة مركزها)، فلقد أصبحت العاصمة الثانية في أوائل القرن الرابع عشر. ولقد حظيت بحظوة السلاطين الأوائل كما هو موضح في مشاريع البناء التي بلغ عددها١٧١ مشروع بناء واتي تم تنفيذها خلال هذه الفترة. كان حكامها مرتبطين ببعضهم للغاية وكانوا في كثير من الأحيان فعّالين للغاية (وعلى الأخص الأمير تنكيز الحسامي حاكم دمشق من ١٣١٢ وحتى ١٣٣٩). وتم إنشاء سلاسل قيادة مفصلة للتأكد من أنها لم تنتحل سلطة مستقلة . كان المماليك قد حققوا كل ما شرعوا في تحقيقه إلى حد كبير بحلول عام ١٣١٢ وبدأوا فترة من الازدهار دامت معظم القرن. أدت سلسلة من الحروب الأهلية الكارثية في الفترة التي تلت عام ١٣٨٠، إلى إضعاف القيادة وتجدد التهديدات بالاعتداءات البدوية والتتار. لم يستعد سلاطين المماليك زخمهم بعد الغزو الأخير والأكثر كارثية بقيادة تيمورلنك في ١٤٠٠و١٤٠١. تم استبدال خلافة المماليك البحريين (استمرت خلافتهم من ١٢٦٠ إلى ١٣١٦ – وكانوا بشكل أساسي من الأتراك أو المغول) في عام ١٣٩٠ بسلالة شركسية إلى حد كبير من المماليك البرجيين (من ١٣٨٢إلى ١٥١٦). بدأت فترة التوحيد عام ١٤٢٢ وأدى حكم السلطان قايت باي الطويل إلى عودة الاستقرار إلى سوريا. لكن أبرز ما يذكر بالفترة المملوكية المتأخرة هو الأضرحة العديدة (يشيرإليسيف إلى أن المماليك، والذين عاشوا غير متأكدين مما سيحمله الغد معه، حاولوا على

قائمة الارتباطات الرئيسية

٤ تموز	معركة حطين
٢ تشرين أول ١١٨٨	سقوط القدس
٣٠ أيار	الوصول إلى قلعة الحصن.
٣-٨ تموز	نهب طرطوس- المرور بالمرقب- حرق بانياس
١٦ تموز	الاستيلاء على جبلة
٢٣ تموز	نجاح حصار اللاذقية
٢٩ تموز	سقوط قلعة صلاح الدين
١ آب	سقوط قلعة المهيلبية
٥ آب	سقوط باكاس
١٢ آب	سقوط جسر الشغور
٢٠ آب	الوصول إلى قلعة بُرزي
٢٣ آب	سقوط قلعة بُرزي
٢٨ أيلول	حصار باغرس (ممر بيلان)

الأقل تأمين ضريح لأنفسهم. وفي نهاية المطاف، انهار حكم المماليك نظرًا لعدم تمتعه بالشعبية (بسبب المطالب الابتزازية المفروضة على رعاياه السوريين) وكذلك بسبب الغزوات السريعة للتوغل التركي الجديد، و اتخذت هذه المرة شكل الجيش العثماني.

العثمانيون

استولى الأتراك العثمانيون بالفعل على جزء كبير من آسيا الصغرى (بما في ذلك القسطنطينية من البيزنطيين عام ١٤٥٣) قبل أن ينتقلوا إلى سوريا. احتشد العديد من الطبقة العليا بشكل تلقائي لصالحهم في عام ١٥١٦، وانسحبت حامية المماليك بهدوء من دمشق للسماح للسلطان الجديد بالدخول. وبعد فترة وجيزة، وفي ظل حكم سليمان الذي دام لفترة طويلة (المعروف لدى الأوروبيين باسم سليمان القانوني حكم من ١٥٢٠ إلى ١٥٦٦)، تمّ تنظيم إدارة سوريا، وإحصاء سكانها واستقرار إيراداتها. حملت الفترة العثمانية المبكرة معها زخمًا جديدًا لتطوير الأقاليم السورية الثلاث (ولايات) حلب ودمشق والرقة. ولعبت الوظيفة التي كانت تقوم بها الأقاليم السورية في إدارة وتأمين الحج السنوي إلى مكة المكرمة دورا كبيرًا للنهوض بالاقتصاد ونمت التجارة الخارجية. وبموجب أحكام معاهدات «الاستسلام» العثمانية مع القوى الأوروبية، أصبحت حلب قاعدة وجود تجاري خارجي هام، وهو دور لم تشاطره دمشق إلا إلى حد ضئيل.

كان الحكم العثماني تنظيمًا فضفاضًا إلى حدٍ ما، حيث تمّ منح سلطة كبيرة للحكام المحليين (والي يحمل رتبة باشا) طالما أنهم يزودون الخزائن المركزية بإيرادات الضرائب، ويؤمنون الحج ويحترمون المصالح الأمنية للإمبراطورية. قبل السنة على نطاق واسع دور السلطان كخليفة وساعدوا في إضفاء الشرعية على الحكم العثماني. وحاول العثمانيون قليلًا فرض هوية ثقافية تركية وما كان يتم استعارته من الأفكار والمشاريع من العاصمة غالبًا ما كان يتم تعديله وفق المواصفات المحلية. إذ كان يميل نظام الملل والذي كان يحكم مجتمعات الأقليات من خلال قادتها الدينيين إلى تعزيز القوى الموجودة والتي أقامت أحياء أقليات مميزة في المدن وجيوب في الريف. وازدهرت الأقليات إلى حد كبير في ظل الحكم التركي. فلعب المسيحيون على وجه الخصوص دور الوسيط في ظهور التجارة الخارجية برعاية عين القوى الغربية الساهرة. لكن، وبحلول القرن الثامن عشر، بدأت ثروات سوريا بالتناقص بفعل تزايد منافسة طرق تجارة الشمال أو الطرق البحرية المؤدية إلى آسيا. ومرة أخرى كان القرن التاسع عشر فترة مضطربة بالنسبة لسوريا. إذ أجبرت الحملة التي قام بها إبراهيم باشا ابن محمد علي عام ١٨٣١، والذي أقام قاعدة سلطته الخاصة في مصر كتحدٍ للسلطة العثمانية، القوات العثمانية على العودة عبر جبال طوروس. جلب الحكم المصري معه نظامًا أكثر تسامحًا شهد أول تواجدٍ لسكان أوروبيين في دمشق، وشجع المجتمعات المسيحية على لعب دور أكثر حسماً في الحياة العامة. وتمّ طرد إبراهيم باشا عام ١٨٤٠ وأعيد الحكم العثماني بمشقة. في عام ١٨٦٠ ، كنتيجة جزئية للاضطرابات الدرزية / المسيحية في لبنان ، اندلعت مذبحة مروعة في دمشق بعد هجوم مسلم على الحي المسيحي. استعاد العثمانيون الهدوء لكن الوضع أدى إلى نزول القوات الفرنسية على الساحل اللبناني. في هذه الأثناء، كانت سوريا منفتحة إلى حد كبير على النفوذ الأجنبي وبدأت المؤسسات التعليمية الأوروبية في العمل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لكن المبادرة فقدت زخمها الى حد بعيد بالفعل في مدن الساحل التي كانت تصبو إلى الخارج، ولا سيما بيروت.

وبناء عليه كانت دمشق بطيئة في تبني المشاعر القومية العربية التي تم تشجيعها في حالة القاهرة، من خلال تطوير الصحافة الناطقة باللغة العربية على سبيل المثال.)لم تكن هناك جريدة عربية في دمشق حتى عام ١٨٩٧). وكان بعض الحكام العثمانيين الإصلاحيين مثل مدحت باشا (١٨٧٨-١٨٨٠) متقدمين على معظم رعاياهم وقدموا بناء على مبادرة منهم تحسينات

مدنية عززت وسائل الراحة والصرف الصحي في المدن الرئيسية. إذ تم افتتاح أول طريق معبد لحركة المرور على عجلات منذ العصر الروماني بين بيروت ودمشق عام ١٨٦٣. وتم افتتاح خط سكة حديد من بيروت إلى دمشق وحوران في عام ١٨٦٤، وخط إضافي من رياق (في سهل البقاع في لبنان) شمالًا إلى حمص وحلب والذي اكتمل لاحقًا في عام ١٩٠٨، وتم بناء سكة حديد الحجاز الألمانية لربط دمشق بالمدينة المنورة.

توقعت سوريا صفقة جديدة لرعايا الإمبراطورية العرب مع الإطاحة بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩ على يد تركيا الفتاة. أعطت خيبة الأمل من استمرار الحكم التركي وفرض سياسات "التتريك" حافزاً جديداً للقومية العربية. وأصبحت دمشق مقراً للقوات الألمانية والتركية في سوريا، ولبنان، وفلسطين. كما أنها أصبحت قاعدة لتصاعد الشعور القومي العربي ضد الهيمنة ا اللتركية، وكان يتم التركيز على نحو خاص على تطلعات الأمير فيصل بن الحسين، شريف مكة، لتحرير المقدسات الإسلامية. كانت الحرب العالمية الأولى بمثابة فترة من الحرمان الشديد في سوريا ولبنان وترافق ذلك بلامبالاة تركية وسوء في الإدارة مما أدى إلى تفاقم آثار نقص الغذاء الذي أدى إلى المجاعة والأوبئة الخطيرة.

الانتداب الفرنسي

دخلت قوات الحلفاء (والقوميين العرب) دمشق في الأول من أكتوبر عام ١٩١٨، بعد أن كانت الحامية التركية قد هجرتها في اليوم السابق. تعارضت الانتخابات التي كان من المزمع إجراؤها لتشكيل حكومة سورية في العام التالي وتعيين فيصل ملكًا مع الطموحات البريطانية والفرنسية وتم نقضها من خلال تأسيس الانتداب الفرنسي في سوريا بموجب أحكام مؤتمر فرساي (جنبًا إلى جنب مع انتداب فرنسي مقابل في لبنان الموسع وانتداب بريطاني في فلسطين وعبر الأردن). وتم فرض الانتداب بقوة السلاح في عام ١٩٢٠ وتم قبوله على مضض بعد ذلك.

لكن لم يمض وقت طويل حتى واجهت فرنسا

"حكمت السلالة الحمدانية حلب من ٩٤٤ إلى ١٠٠٣م والتي أدت مغامراتها المثيرة إلى أن تصبح حلب محمية افتراضية للبيزنطيين ولاحقًا للفاطميين. وحكمت العائلة المرداسية البدوية المدينة اسميًا من ١٠٢٣ إلى ١٠٧٩ في عملية توازن دقيق اعترفت فيها بالسيادة الفاطمية دون إثارة التدخل البيزنطي. استولى الأتراك السلاجقة الذين انتزعوا تفويضًا من الخليفة العباسي المفترض يقضي بحكم شمال سوريا (١٠٧٠-١٠٧٢)."

سكانًا معاديين ومقاومة استنزفت قواتها في عام ١٩٢٥، فاندلعت ثورة خطيرة في حوران وامتدت إلى دمشق حيث لجأ الفرنسيون إلى قصف جماعي للمدينة. بعد أن حاولت تقسيم سوريا إلى أجزاء أكثر مرونة (تم الإعلان عن دول منفصلة في حوران ومنطقة العلويين وشمال سوريا)، خضع الفرنسيون للتحريض القومي المتصاعد فمنحوا استقلالًا دستوريًا محدودًا في عام ١٩٤٣، بحلول ذلك الوقت، تمّ إزاحة حكومة فيشي الفرنسية لصالح حكومة الفرنسيين الأحرار بمساعدة القوات المتحالفة. وانتهى الانتداب رسميًا في عام ١٩٤٥ بدخول سوريا إلى الأمم المتحدة، على الرغم من أن هذه النتيجة لم تمنع القوات الفرنسية من القصف النهائي لدمشق في الشهر التالي. وأخيرًا انسحبت القوات الفرنسية في أخيرا في ١٩٤٥.

الأخمينيون بين التأثير والتأثر

أثر الحضارة الإيرانية على الشرق

ولاء أبو ستيت

مقدمة:

لم تكن فارس القديمة هي نفسها إيران الحالية، التي تسعى لاستعادة أمجاد الدولة الفارسية عبر هيمنتها على الإقليم، واستعادة إمبراطوريتها الزائلة، التي حكمت أغلب دول العالم القديم، ومن منطلقها تتعامل مع أغلب جوارها بنظرة فوقية، باعتبار ألّا أحد من محيطها يضاهيها في التاريخ والحضارة، وبالمقابل تتعامل مع الدول ذات الحضارة والتاريخ التليد بشيء من التقدير والندية، رغم أنّ الحقيقة التاريخية تؤكد أن حضارات دول المنطقة كلها جاءت قبل حضارتها وسبقتها بقرون طويلة، بل إن حضارة فارس بُنيت في الأساس وتغذت على حضارات المنطقة التي مثلت الآباء الشرعيين لدولة إيران، فكانت الحضارة الميدية التي يعتبرها المؤرخون هي الأب الشرعي لإيران،

وأول حضارات إيران القديمة فعلياً، إضافة إلى حضارة عيلام أجداد الأحواز وأحد أصول الحضارة في المنطقة التي كانت تعيش فيها أعراق عدة منذ فجر التاريخ.

وما يجري الآن من نظام ولاية الفقيه في إيران يفتح الباب لتذكّر تاريخ حضارة فارس، والتي تُعدّ من بين المرتكزات التي تتحرك في سياقها الآن وفي إطار سعيها الحثيث للسيطرة والتوسع. لكن التبحّر في المراجع التاريخية المختلفة يشير إلى أن دولة فارس التي أثرت في العالم القديم ودوله ذات الحضارة، هي بالأساس تم تشييدها على أنقاض حضارات عدة عاصرتها في المنطقة انقضّت عليها وأبادتها وأنهت وجودها، وهو الأمر الذي يستدعي التمعن في تاريخ الحضارة وتأثيراتها وروافدها المختلفة على الشرق القديم.

وفي هذه الورقة تسعى الدراسة إلى البحث في تأثير الحضارة الإيرانية القديمة على الشرق، ومرتكزاتها وروافدها الحضارية المختلفة، وتتضمن تساؤلات فرعية حول الحضارة وآثارها الثقافية والسياسية، من أين جاء الفرس؟ وما الحضارة التي تأثروا بها؟ دولة الإخمينيين وأثرها في محيطها؟

واتخذتُ في هذا المجال دولة الإخمينيين كسياق للدراسة ومجالاً زمنياً باعتبار أنّ الإخمينيين شيدوا حضارة عالمية وصلت إلى حكم كافة دول العالم القديم ذات التاريخ والحضارة، واستمرت حتى جاء "الإسكندر» لينهي هذه السطوة التي امتدت شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً، وسيطرت ليس على الشرق الأدنى فحسب بل وصلت إلى اليونان وناطحت دول المدينة في حروب ضروس، وكذلك امتدت شرقاً وبسطت نفوذها على محيطها فاحتلت ميديا وليديا وبابل، سوريا وفينيقيا، غزة ومصر.

وفي هذا السياق فإن المنهج المتبع في هذه الورقة هو المنهج التاريخي، وفيه ينطلق سياق العمل أيضاً عبر المنهج الوصفي التحليلي لتناول هذه الحقبة التاريخية الممتدة من ٥٥٠ ق.م وحتى ٣٣١ ق.م عند هزيمة الجيش الفارسي الأخيرة أمام جيش الإسكندر، وفرار داريوش أمامه ،ما اعتُبر بمثابة تنازل عن العرش[١].

وتقسم الدراسة إلى أربعة أقسام:

الأول: الحضارة ـ مفهومها وروافدها

الثاني: حضارة فارس؛ من أين جاءت؟

الثالث: دولة الإخمينيين تغزو العالم.

الرابع: تأثير حضارة إيران القديمة على الشرق.

أولاً: الحضارة ـ مفهومها وروافدها

• مفهوم الحضارة

والحضارة مشتقة من التحضر والتمدن، وتعرف بـ: «مجموعة المنجزات الفكرية والاجتماعية والصناعية التي يحققها مجتمع ما في مسيرته لتحقيق التقدم والرقي، ويركز البعض على استخدام المصطلح ثقافياً، بينما يستخدمه آخرون على أنه سيادة العقل في المجتمع»[٢].

يعرّفها «ويل ديورانت» صاحب قصة الحضارة بأنها: «نظام اجتماعي يعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافي، تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، وهي مشروطة وفقاً لقوله بعوامل هي التي تشكلها وتعضض وجودها، وتتضمن: "عوامل جيولوجية، جغرافية، اقتصادية، جنسية، نفسية وثقافية"[٣].

ويُرجع معجم "أكسفورد» استخدام الحضارة إلى أواخر القرن الثامن عشر، وتشير التسمية

١ - هوما كاتوزيان، الفرس: إيران في العصور القديمة والوسطى والحديثة، ترجمة: أحمد حسن المعيني، بيروت، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، ط١، ٢٠١٤، ص ص ٥٩، ٦٠، ٦١.

٢ عبد الوهاب الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مج٢، ص٥٤٩.

٣ ويل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: د.زكي نجيب محمود، تونس، مركز الجامعة العربية، مج١، ج١، ص ٥، ٦، ٧

إلى: «فعل أو عملية التحضُّر».

وبينما يُرجع البعض التسمية إلى ابن خلدون الذي تحدث عن الحضر، وأشار إلى أن الدول في تطورها وارتقائها العمراني تبدأ من مرحلة البداوة وصولاً إلى حالة الحضارة، ثم تبلغ مرحلة الاضمحلال والفناء، ويعقبها عودة الدائرة بنفس المنوال.

وتُعتبر الثقافة هي مرآة الشعوب والتي يتحدد بها تاريخ المجتمعات الحضاري، ومن ثم جمع العلماء ـ خاصة علماء الاجتماع ـ بين الثقافة والحضارة باعتبار أن الأولى تفضي إلى الثانية، فكلما زادت الثقافة في المجتمعات تصاعدت مسيرة التطور الحضاري[٤].

أما «أرنولد» فيعرّف الحضارة في ١٨٧٩ بأنها: أنسنة الإنسان في المجتمع.

أما «باكل» فلا يتطرق إلى الحضارة بمعزل عن الحضارة المصرية باعتبارها أم الحضارات القديمة التي وصلت مرحلة التطور المتدرجة في عصر الأسرات، فيقول في ١٨٥٧ إنها تشكل مقابلة صارخة مع بربرية الأمم الأخرى في إفريقيا، وأما حضارة أوروبا فيراها تتميز بقدرتها على التطور الذي لم تعرفه هذه الحضارات التي نشأت من التربة[٥].

وتعددت التعاريف وصولاً للقرن التاسع عشر حيث أصبحت الحضارة مقولة جوهرية في المناقشات في الأنثروبولوجيا والتاريخ.

والواضح أن الحضارة هي تدرج ثقافي وتطور مجتمع ما على كافة مستوياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وهي تمثل مجمل منجز تلك المجتمعات الحضاري، وهو ما يتحدد بمجمل عوامل سبق التطرق إليها وهي أمور يعتبرها «ديورانت» أساسيات لنشأة المدنية، فتتدرج من الحياة البدائية وصولاً للتدرجات في جماعات تشكل قبائل أو تجمعات أسرية أبوية، وصولاً لتكوّن الدول وحضارتها التاريخية، ومثالاً على ذلك فإن الشرق الأدنى حفل بحضارات متعددة؛ من الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية)، إلى الحضارة الآشورية، وحضارة بابل، والميدية، وصولاً لحضارة فارس، ودولة المدينة الأوروبية من أثينا وأسبرطة وغيرها من حضارات الإغريق.

• الأسطورة كأحد روافد الحضارة

مثلت الأسطورة أحد أهم الأبعاد والروافد التي تستقي منها حضارات العالم القديم، وبرزت فيما تواتر عنها من ثقافة وتاريخ وملاحم بطولية سعت كل حضارة إلى تعزيزها في كتابتها لتاريخها.

وفي مجمل الكتابات القديمة برزت الأساطير المختلفة عن أبطال الحضارات المختلفة سواء كانوا حكاماً حقيقيين صُبغوا بهالة قدسية ومنحى أسطوري، أم عبر حكام متخيّلين لا وجود لهم على أرض الواقع فعلياً، أو عبر البطل الشعبي الذي يقف ليواجه طغيان الحاكم الظالم، وقد ظهر ذلك في ملحمة جلجامش الأسطورية، وفي جوانب من حياة حكام كالضحاك (أزدهاق) وأسطورة الحيّتين على ظهره وقصة قتل شابين يومياً ليطعم الحيّتين أدمغتهما على طول الحكاية حتى ظهور كاوا البطل الشعبي الذي أنهى الظلم، وكذا حالة القدسية التي وضعت على بعض ملوك الفرس الحقيقيين أو المتخيّلين من البيشداديين، والذين يذهب أغلب المؤرخين الغربيين إلى أنهم حكام متخيّلون.

وهنا عمدتُ إلى اختيار أمثلة تتماشى مع موضوع البحث الخاص بحالة حضارة إيران القديمة، وكلها تسير في منطلق تبنّي فكرة عدم وجود البيشداديين واعتبارهم حكاماً متخيلين للفرس الذين كانت أولى دولهم هي

٤ السيد حنفي عوض، فجر الثقافة في تاريخ الشعوب، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٥، ص١١٧.

٥ طوني بينت وآخرون، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت، المركز العربي للترجمة، ٢٠١٠، ص ٣٠٠.

دولة الإخمينيين، والتي جاءت في ظل ازدهار دولة الميديين (أجداد الكرد الأوائل وأصحاب أول دولة إيرانية قديمة في اعتقاد هيرودوت)، يذكرهم الفردوسي في الشاهنامة، وتكثر بذكرهم الكتابات العربية القديمة، ومن بين ما تذكره المصادر حول حكام هذه الفترة ما ذخر به كتاب الكامل في التاريخ[٦]، ومنه نقتصر بعض المرويات[٧]:

❖ بيشداد الأول

ويبدو أنه الذي سُميت على اسمه دولة البيشداديين، ويذهب صاحب الكامل في التاريخ إلى أنه أول من وضع الأحكام والحدود في تاريخ البشرية وكان أول من استخدم الجواري وأول من قطع الشجر وجعله في البناء.

❖ أوشهنج

جاء أوشهنج الذي قيل إنه ملك الأقاليم السبعة، ومن بعده جاء حكم طهمورث بن ويونجهان (أي خير أهل الأرض)، وقيل إنه أيضاً ملك الأقاليم السبعة وعقد على رأسه تاجاً، كان عدلاً في ملكه ومشفقاً على رعيته، وقيل إنه أول من اتخذ الصوف والشعر للبس والفرش وأول من اتخذ زينة الملوك من الخيل والبغال والحمير، وأمر باتخاذ الكلاب لحفظ المواشي وغيرها، وإنه كتب بالفارسية. وفي أول سنة من ملكه ظهر بيوراسب (أزدهاق) ودعا إلى ملة الصابئين.

❖ طهمورث

وقال ابن الكلبي إن طهمورث أول ملوك الأرض من بابل، وكان ملكه أربعين سنة وهو أول من كتب بالفارسية وفي حكمه عُرف الصوم لأول مرة، وكان السبب أن أقواماً فقراء لم يكونوا ليجدوا قوتهم فأمسكوا نهاراً وأكلوا ليلاً ما يمسك رمقهم، ثم اعتبروه تقرباً لله حتى جاءت به الشرائع.

❖ جمشيد

ونقل صاحب الكامل عن علماء الفرس قولهم إنه وبعد ملك طهمورث جاء جمشيد. (جم: القمر، و شيد: الشعاع.. أي شعاع القمر أو ضياؤه) ولقّبوه بذلك لجماله .وهو أخو طهمورث ملك الأقاليم السبعة، وعقد التاج على رأسه وكان أول من عمل بالسيوف والدروع وسائر الأسلحة والصناعة من الحديد، وصنف الناس أربع طبقات:

- **طبقة مقاتلين**
- **طبقة فقهاء**
- **طبقة كتاب وصناع**
- **طبقة حراثين ومنهم اتخذ خدماً.**

ووضع خاتماً لكل أمور الحياة، كتب على خاتم البريد والرسل الصدق والأمانة، وعلى خاتم المظالم السياسة والانتصاف، وعلى خاتم الحرب الرفق والمداراة.

❖ بيوراسب، ازدهاق (الضحاك)

تتغير الروايات حوله وحول نسبه هل هو شاه فارسي، أو أنه من بلاد اليمن، أو أنه ميدي بل وآخر حكّام الميديين، وعلى يده أفل نجم الدولة الميدية، ويقال إنه من بني مدن بابل وصور ودمشق، اغتصب الحكم وكان عهده عهد ظلم، حكم الممالك السبعة وكان الجور أساس حكمه حتى قضى عليه كاوا الحداد، واعتبروا يوم مقتله يوم عيد، وحتى الآن يحتفل بعيد نوروز.

❖ أفريدون

يقال إنه هو نوح وإنه هو الذي قهر الضحاك وسلبه ملكه، على قول علماء الفرس، كما أن

٦ اتخذت عمل ابن الأثير الكامل في التاريخ مرجع أساسي في استخلاص عدد من ملوك الفرس في فترة البيشداديين لأسباب منها تشابه المراجع في هذا السياق والأحاديث المتواترة بشأنها بما فيها فارس نامه لابن البلخي والتي يوصف فيها ملوك فارس ويقسمهم بين اربع طبقات: البيشداديون والكيانية (الاخمينيون) والاشكانيون والساسانيون.

٧ ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، مج ١، ط١، ١٩٨٧.

منهم من يقول إنه ذو القرنين صاحب إبراهيم الذي ذكره الله في كلامه.

ويقولون إنه سمي الصوفي وكان أول من نظر في الطب وكان له ثلاثة بنين (شرم، طوج، إيرج) وخاف أن يختلفوا من بعده فقسم الملك بينهم ثلاثاً: فصارت الروم وناحية العرب لشرم والترك والصين لطوج والعراق والسند والهند والحجاز لإيرج.

وكان هذا الثالث يحبه وأعطاه التاج والسرير وبالتتبع التحليلي يبدو أنه وإذا كان الضحاك هو فعلاً آخر حكام دولة الميديين فيكون هو بالمنطق كورش مؤسس الدولة الإخمينية على ما سنتناوله بالحديث لاحقًا.

ثانيا: حضارة فارس.. من أين جاءت؟

كثيرة هي الروايات التاريخية حول حضارة فارس ونشأتها، ومتعددة هي المصادر التي تتكئ عليها، ولكن الواضح أن الفرس كانوا قبائل أتت من روسيا واستوطنت فارس هرباً من برودة الطقس الشديدة، وقطنوا في إقليم فارس الذي منه ستكون انطلاقتهم ليعلنوا ميلاد إمبراطورية وصلت لتحكم العالم القديم، ولتقهر حضاراته وتنتهكها في احتلال امتد قروناً، وكانت من آثاره اندثار حضارات بكاملها وغيابها عن الوجود. لكن قبل ذلك يبقى التساؤل حول واقع المنطقة في فترة ما قبل قيام دولة فارس على يد قورش الكبير في ٥٥٠ ق.م.

والحقيقة أن هذه المنطقة شهدت قبيل الفرس قيام حضارات ودول متقاربة ومتجاورة كانت تتخذ من المواجهة والتوسع على حساب جاراتها مساراً لها، فكانت المملكة الآشورية وعاصمتها نينوى، ثم دولة الميديين التي شهدت صعوداً رهيباً وأنهت بوجودها الدولة الآشورية التي استمرت ٥٢٠ عاماً، وكذلك الدولة البابلية التي استطاعت أيضاً هزيمة الدولة الآشورية واقتطاع أرضها منها، لتكون بذلك

> **يعرّف أرنولد الحضارة بأنها: أنسنة الإنسان في المجتمع، أما "باكل" فلا يتطرق إلى الحضارة بمعزل عن الحضارة المصرية باعتبارها أمّ الحضارات القديمة التي وصلت مرحلة التطور المتدرجة في عصر الأسرات، فيقول: إنها تشكل مقابلة صارخة مع بربرية الأمم الأخرى في إفريقيا، وأمّا حضارة أوروبا فيراها تتميز بقدرتها على التطور الذي لم تعرفه هذه الحضارات التي نشأت من التربة**

هذه الحضارات المتجاورة التي تعيش فيما بينها بين نزاع ووئام وحرب وإغارة وغيرها من الأمور المتعارف عليها في وقتها. وفي عصر متأخر من ذلك وقبل دولة فارس تأتي الدولة الليدية من بين الدول التي برزت في الأناضول كالحيثيين وغيرهم، والتي سيكون للفرس جولة كبيرة معها لإنهاء وجودها فعلياً.

سبق طبعاً هذه الحضارات الدولة السومرية والأكادية، التي يُنسب لها الفضل في وضع أول أساسيات المدنية القديمة في أرض ما بين النهرين، وفق ما نقله الفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون[٨]، وبالمقابل كانت هناك دولة «عيلام» في جغرافية الأحواز الحالية، والتي يقال إن العيلاميين هم من شكلوا دولة ما قبل الإخمينيين الفارسية، لتكون أول حضارات ما قبل الدولة الإيرانية، ومن منطلق منطقة

٨ جوستاف لوبون، حضارة بابل وآشور، ترجمة: محمود خيرت المحامي، بيروت- بغداد، دار الرافدين، ب ت.

الأحواز خرجت دولة العيلاميين التي كانت هي الأخرى بين توسع لخارج جغرافيتها إلى انحسار وعودة لمحيطها، فواجهت الأكاديين وسعت لاحتلال أراضيهم حتى وصلت إلى عاصمة الدولة الأكادية «أور»[٩]. كما سعت لضم أراضٍ أخرى حتى بدأ عهد الدولة في الضعف والتراجع مع بروز غيرها من الدول الناشئة لتتلاشى هذه الحضارة ويقضي الإخمينيون عليها، وتبقى آثارها شاهدة على دولة امتدت قروناً طويلة وكان تاريخها مليئاً بالأحداث، ويبقى معبد إنتاش (جغا زنبيل)، الذي وضعته اليونسكوعلى قائمة التراث العالمي في نفس سنة قيام الدولة الإسلامية الإيرانية الحالية شاهداً حياً على هذه الحضارة التي نشأت، وبأبعاد متشابهة مع محيطها، وليبقى حتى اللحظة معلماً شاهداً على هذه الحقبة وتاركاً أسئلة كثيرة تحتاج لإجابات عليها.

- الدولة الآشورية

ظهرت الحضارة الآشورية لتصبح على مدار قرون حضارة مؤثرة في الشرق الأدنى، قامت على أساس القوة والغلبة، وكان أهلها يحيون حياة عسكرية شاقة، يقول «ديورانت» إن الأساس فيها هي القبائل الجبلية التي كانت تهددهم من كافة الجهات، لكن بالمقابل استطاعوا بقوتهم أن يتحولوا من الدفاع إلى الهجوم فانطلقت قواتهم في كافة الاتجاهات لتهاجم (سومر، أكاد، عيلام وبابل، وصولاً إلى فينيقيا ومصر).

ويصف «ويل ديورانت» في قصة الحضارة فترة حكمهم تلك قائلا: «ظلوا مئتي عام كاملة يسيطرون بقوتهم الوحشية على بلاد الشرق الأدنى، وكان موقف سومر من بابل، وموقف بابل من آشور كموقف كريت من بلاد اليونان وموقف بلاد اليونان من رمة، فقد أنشأت المدينة الأولى حضارة وتعهدتها الثانية وأتمتها وبلغت ذروتها وأضافت إليها من عندها وحمتها، وأسلمتها وهي تحتضر هدية منها إلى البرابرة الظافرين الذين كانوا يحيطون بها، ذلك أن البربرية تحيط على الدوام بالحضارة وتستقر في وسطها من تحتها متحفزة لأن تهاجمها بقوة السلاح أو بالهجرة الجماعية أو بالتوالد غير المحدود"[١٠].

وهنا يشير إلى دول آشور الأربع[١١]والتي شهدت عصوراً من القتل والوحشية والإبادة، حتى أنّ عنف ملوك الشرق يؤرخه العلماء مع الدولة الآشورية التي كانت نوذجاً حياً على ذلك، وهو الأمر الذي دعا «آشور بانيبال» يتباهى بوحشيته هو وجنده في التعامل مع العيلاميين، فيقول بنفسه إنه خرّب من بلاد عيلام "ما طوله مسيرة شهر وخمسة وعشرين يوماً، ونشرتُ الملح والحسك لأجدب الأرض وسقتُ من المغانم إلى آشور أبناء الملوك وأخوات الملوك وأعضاء الأسرة المالكة في عيلام صغيرهم وكبيرهم، كما سقتُ منها كل من كان فيها من الولاة والحكام، والأشراف والصناع وجميع أهلها من الذكور والإناث كباراً كانوا أو صغاراً (...) وأخمدتُ في حقولها صوت الآدميين.."[١٢].

ومع حالة الانتشار الكبير التي حكم بها الآشوريون أرجاء واسعة من الأرض، وكانت دولتهم في مراحلها المختلفة دولة حربية بامتياز، إلا أنّ النهاية جاءت عبر تحالف الجوار، حيث تحالف البابليون بقيادة «نبوخذ نصر» مع الميديين، وأنهوا الدولة الآشورية التي اختفت من التاريخ بعد موت آشور بانيبال بقرابة أربعة عشر عاماً، ليكون للميديين عظيم الأثر في تدمير دولة آشور وتحطيمها، وكان لهم (الميديين) سياستهم العسكرية التي استقوا جوانب منها من الدولة الآشورية.

٩ - للمزيد_ علي ظريف الأعظمي، تاريخ الدولة الفارسية في العراق، لندن، مؤسسة هنداوي، ط2، 2017.

١٠ - ويل ديورانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢،، ص٢٦٤.

١١ - جوستاف لوبون، حضارة بابل وآشور، مرجع سابق، ص72.

١٢ - ويل ديورانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

- الدولة البابلية

وتبقى دولة بابل وحضارتها أحد أهم الحضارات البارزة في التاريخ القديم. ومن «حمورابي» الذي به تبدأ المرحلة المتأخرة من العصر البابلي القديم[١٣]، إلى نبوخذ نصر، الذي يرتبط اسمه بالسبي البابلي ومعه انتهت حكم الدولة أيضاً. امتدت قصة حضارة الدولة البابلية التي كان لها دورها في تقدم الطب وإنشاء علم اللغة، حتى أنّه كان لها البدايات مع علوم الفلك وعلم الحساب.

ومع كل ما يدور حول مسألة السبي البابلي وحقيقته؛ لكن ترتبط نهاية فترة الدولة البابلية على يد الإخمينيين ومؤسس دولتهم قورش الكبير، والتي معها أنهى سبي اليهود وخُيّروا بين البقاء أو العودة لديارهم، ليبقى لقورش رمزية كبيرة لدى اليهود على مرّ التاريخ وحتى وقتنا الحالي.

- الدولة الميدية

كان المستشرق الروسي «فلاديمير فيودورفيج مينورسكي" من أوائل من أكد أن الميديين هم أجداد الكرد الحاليين، مستشهداً بشواهد عدة أبرزها المنحى الجغرافي والأنثروبولوجي، ووصفهم "هيرودوت" بالقوة والإقدام والشجاعة، بل إنه أكد أن أصحاب الفضل في القضاء على دولة الآشوريين التي امتدت ٥٢٠ عاماً هم الميديون، الذين شقوا عليهم عصا الطاعة وحملوا في وجههم السلاح وقاتلوهم لينزعوا عنهم أغلال العبودية للدولة الآشورية، ليصبحوا أحراراً تقتدي بهم بعد ذلك باقي الأمم حتى يستعيدوا استقلالهم عنها[١٤].

ويعتبر ديورانت في قصة الحضارة أن معرفة أصلهم أمر مُعجز، لافتًا إلى أنهم وهم الذين يُحسب لهم الفضل في تحطيم دولة آشور، كان أول ما وصل لنا من أخبارهم في لوحة تسجّل حملةً بعث بها «شلما نصر الثالث» إلى بلد سُمي (بارسوا) في جبال كردستان في ٨٣٧ ق.م، ويلوّح أنه كان في ذلك البلد ٢٧ من الملوك يحكمون ٢٧ ولاية قليلة السكان يسمى أهلها (أماداي أو ماداي أو ميديين)[١٥].

أما هيرودوت فتحدث عن نشأة دولة الميديين على يد الميدي «ديوسيس» الذي وجد أن الميديين يعيشون في قرى متباعدة بلا سلطة مركزية يخضعون لها، ولم يقبل ذلك وبدأ يتحرك بين قومه بالعدل حتى شاع صيته بين الجميع، وبعدها بدأ في تأسيس الدولة الميدية ليكون أول حكامها وحكم ٥٣ سنة، خلفه بعدها ابنه «فراورتيس» الذي لم يقبل بحدود دولته فحسب، فبدأ في مهاجمة جواره، وتحقق له النصر ليستولي على آسيا وكانت البلدان تتهاوى أمامه حتى كانت حربه في النهاية على الآشوريين[١٦].

وكما كان صعود دولة ميديا سريعاً يأتي كذلك خفوت نجمها وغيابها، وكما يقول ديورانت: «فبعد أن كانت ميديا سيدة فارس، أصبحت فارس سيدة ميديا وأخذت العدة لتكون سيدة عالم الشرق الأدنى كله».

ويأتي قورش ـ وهو ابن بنت آخر حكام الدولة الميدية، الضحاك/ أزدهاق، التي كانت على اتفاق مع الفرس ـ لينهي دولة الميديين[١٧] ويؤسس دولة الإخمينيين التي ستُدخل أغلب دول العالم القديم تحت سلطتها.

ثالثاً: دولة الإخمينيين تغزو العالم

جاء قورش بحكم كان واجهته العدالة رغم سياسته التوسعية الواضحة، فكما قضى على دولة الميديين احتل بابل وأنهى حكم الدولة البابلية لينتهي بذلك سبي اليهود وليخيرهم

١٣ هورست ملينكل، حمورابي البابلي وعصره، ترجمة: محمد وحيد خياطة، دمشق، دار المنارة، ١٩٩٠، ص ١٧، ١٨.

١٤ - تاريخ هيردوت، مرجع سابق، ص 77.

١٥ - ويل ديورانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج1، ج2، ص399.

١٦ - تاريخ هيردوت، مرجع سابق، ص 78، 80.

١٧ المرجع السابق نفسه، ص٩١.

> **في التمعّن في تاريخ حضارة فارس، وفي إطار سعيها الحثيث للسيطرة والتوسع، والتي أثرت في العالم القديم ودوله ذات الحضارة، هي بالأساس تم تشييدها على أنقاض حضارات عدة عاصرتها في المنطقة سيطرت عليها وأبادتها وأنهت وجودها، وهو الأمر الذي يستدعي التمعن في تاريخ الحضارة وتأثيراتها وروافدها المختلفة على الشرق القديم**

بين العودة إلى أرضهم أو البقاء في دولته التي بدأت تتوسع، وكانت على موعد مع غزو العالم بأسره.

ومن هنا يبدأ التاريخ الفارسي القديم بإنشاء أول إمبراطورية عالمية على يد قورش، في ٥٥٠ ق. م، وينقل هيرودوت عن قورش في حديثه لبني قومه لإقناعهم بالانضمام إليه للقضاء على الميديين وإنهاء حكمهم: «يا أبناء فارس أعيروني سمعكم وأصغوا لنصيحتي وستنالون حريتكم، أنا الرجل الذي اختارته الأقدار لتحريركم ويقيني أنكم أنداد للميديين في الحرب كما في كل أمر آخر، الحق ما أقول فهيا ولا تترددوا»[١٨]، وفي خضم ألَقِه جاءت وفاة قورش في ٥٢٩ ق.م، ليخلفه على الحكم ابنه «قمبيز» الذي مضى في أحلام التوسع، فواصل سياسة والده لكنه كان أكثر دموية وعنفاً، حتى أنّه اتُّهم بالجنون، وكان يعادي الدول التي يحتلها ولا يلقي بالاً لا لشعوبها ولا لعقائدهم، حتى إنه عندما احتل مصر التي حلم بالسيطرة على خيراتها، وقيل إنه قتل العجل أبيس بما له من قدسية لدى المصريين، بل وأخرج الجثث المحنطة من مدافنها ونبش مقابر الملوك، ودنس المعابد، وكما أنه واجه أي محاولات لمقاومته، حتى إنه أخرج جيشاً كبيراً من جنوده إلى الاستيلاء على معبد الإله آمون في واحة سيوة بالصحراء الغربية، إلا أن جيشه مات في الصحراء وغرق في الرمال، ووصل بقمبيز الجنون إلى أنه كان يقول إنه سيظل هكذا مع المصريين حتى يتخلصوا من أوهامهم، ولم يبالِ بكل ما يقال عن لعنات الفراعنة وغيرها حتى أصابته حالات صرع اعتبر المصريون أنها انتقام الإله منه، كما أنّه عاد من مصر فجأة إلى بلاده بعد أن علم أن مغتصباً استولى على عرش فارس، وادعى أنه شقيقه الذي قتله بعد وفاة أبيه ليستأثر بالسلطة، وفي الطريق يُقتل قمبيز في نفس المكان الذي طعن فيه العجل أبيس، وتقول روايات أنه انتحر[١٩]، وكان حكم الفرس لمصر بمثابة الحلم الذي تحقق لقمبيز عبر ثلاث خيانات، من خيانة اليهود وجعلهم أرض فلسطين منطلقاً للانقضاض على مصر، إلى خيانة رئيس فرقة من الجنود المرتزقة في الجيش المصري وكان إغريقياً (فانيس)، إضافة إلى خيانة البدو في سيناء عبر فانيس ليطلعوا جيش الفرس على مسالك الطريق فلا تكون سيناء بذلك مقبرة الغزاة كما كانت من قبل، بل سهلت وفتحت الباب لغزو مصر التي في خضم هذه المواجهة مات حاكمها أمازيس، ليتولى ابنه ابسماتيك الثالث الحكم[٢٠].

واستمر حكم الإخمينيين لأهم دول العالم القديم، وخلال حكم «دارا الأول» واصل الزحف بجيوشه فوصل إلى جنوبي روسيا مجتازاً مضيق البسفور ونهر الدانوب إلى الفولجا، ويصل إلى وادي نهر السند، ثم تأتي حملته

١٨ - المرجع السابق نفسه، ص 92.

١٩ - ويل ديورانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، ص 406 .

٢٠ عبدالرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة، لندن، مؤسسة هنداوي، ط٢، ٢٠٢٠، ص ٣٠٠.

التاريخية إلى بلاد اليونان فاجتاز بحر إيجا، لكنه لاقى هزيمة كبيرة في سهل مراثون ليعود لأول مرة مهزوماً كسيراً إلى فارس، وتبقى بذلك اليونان عصية على دولة الفرس حتى مجيء الإسكندر الأكبر في ٣٣٣ ق.م، ويبدأ في حرب الفرس وإزاحتهم عن البلدان التي احتلوها بدءاً من مصر.

رابعاً: تأثير حضارة إيران القديمة على الشرق

لم يسجل التاريخ القديم أن دولة بلغت قبل مجيء الإسكندر، ما بلغته دولة فارس التي بلغت أعظم اتساعها لتحكم دول العالم القديم وتؤثر فيه تأثيراً غير مسبوق، لكن مع ذلك فإنها كانت بالأساس قد بدأت على ضفاف منطقة نابضة بالحضارات والثقافات التي تلاقحت فيما بينها، لكن ومع ذلك كان لفارس لا سيما خلال حكم دارا الأول تأثير كبير وواسع على العالم القديم، وعلى يدهم انتشرت الزرادشتية بتعاليمها وفلسفتها، وذلك رغم الاختلافات الواضحة حول ديانة الدولة الإخمينية، وحول منشأ الزرادشتية وغيرها من الأمور الإشكالية، خاصة أن كتاب زرادشت "أفستا» تناول تعاليم كان لها تأثيرها على العالم وقتها، بل إن فلسفته وصلت بتأثيرها إلى دولة المدينة في اليونان، وأثرت في فلاسفتها.

أيضاً برع الفرس في تشييد الطرق وشيدوا طرقاً عظيمة تربط بين الحواضر، لكنهم في المقابل تخلوا عن الصناعة وتركوها للشعوب الأخرى التي كانت تقوم بها، وبالمقابل تحصل الدولة الفارسية على ما يتم صناعته عبر الطرق التي تم تشييدها للأغراض الحربية بالأساس، وذلك في إطار الجبايات التي كانت تأخذها من الأمم التي احتلها.

وفي الوقت الذي استطاعت فارس استخدام وإنشاء الطرق البرية بحرفية واضحة، لم تصل إلى مثل ذلك في الملاحة، وبالمقابل كانت تتجاوز هذه الأزمة باستغلال أساطيل الفينيقيين إما عبر الاتفاق أو الاستيلاء وذلك كان أيضاً بغرض استخدامها في الأغراض الحربية، ليس هذا فحسب بل نسبوا لنفسهم حفر قناة كان حكام مصر بدؤوا فيها لتصل البحر المتوسط بالأحمر عبر ربط البحر الأحمر بالنيل، بل إنهم أيضاً نسبوا لأنفسهم الطواف حول إفريقيا عبر مضيق جبل طارق، وهذا ما قام به حكام مصر القديمة أيضاً. كما قيل إن الفن الفارسي في أغلبه مستعار من الخارج وإن "شكله الخارجي من ليلديا وأعمدته الحجرية الرفيعة منقولة من مثيلتها الآشورية وبهو الأعمدة الضخمة والنقوش القليلة البروز تشهد بأنها قد أوحت بها أبهاء مصر ونقوشها، وتيجان الأعمدة التي على صورة الحيوان عدوى تسربت إليهم من نينوى وبابل، أما الذي جعل فن العمارة الفارسي قائماً بذاته مختلفاً عن غيره، فهو اجتماع هذه العناصر كلها والمواءمة بينها وهو الذوق الاستقراطي الذي رقق العمد المصرية المهولة وكتل أرض الجزيرة الثقيلة، فأحالها بريقاً ورشاقة وتناسباً وتناغماً»[٢١].

وإن كان ما سبق يعبر عن شيء؛ فهو يعبر عن تأثر فارس وحضارتها بالحضارات المحيطة بها أكثر من تأثيرها فيها، هذا إضافة إلى إصباغها بصبغتها الخاصة التي جاءت تالية على كل هذه الحضارات التي جاءت أولاً، والمراد قوله هنا أن أحفاد الفرس لو نظروا إلى التاريخ برؤية عقلانية متجردة عن أوهام الفردانية وتعظيم الذات، ووصلت إلى أن في الاتفاق ائتلافاً بدلاً من سياسة الدم والعنف التي لم تكن من دولة في الشرق القديم لتبرع فيه كما برعت دولة الفرس الإخمينية، حتى أنّهم تجاوزوا في مراحل مشهد الدم الذي تركته الدولة الآشورية، وذلك على أمل من سلام ووئام للشرق الذي كان بؤرة الحدث منذ فجر التاريخ وما يزال.

٢١ ويل ديورانت، قصة الحضارة مرجع سابق، ص ٤٥٣.

تأثر الحضارة الغربية المعاصرة بالشرق

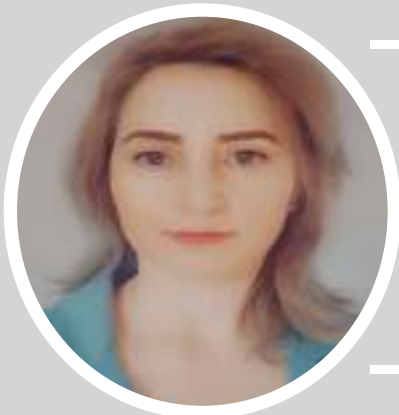

روشن مسلم

مقدمة البحث:

تنبع أهمية دارسة تاريخ الحضارات من منظور دراسة علماء التاريخ من ثقافة القبائل والشعوب. الطبيعة. الأرض. الوطن. وبخاصة الحضارات القديمة, فهناك علاقة وثيقة على المستوى اللاواعي بين نشوء الطبيعة الاجتماعية وحضارة الشعوب.

لا يمكن التقليل من أهمية دور الحضارات, إذ أنها تتصدى بصورة معتدلة على الأقل للكثير من الآراء المحافظة والممارسات التقليدية. وخاصة في فترات الأنفراج السياسي حيث تبدو أهميتها من نشأتها وأولياته الدفاعية بأبرز صورها في نمط حياة الشعوب والقبائل البدائية. وأسلوب توجههم ونظرتهم إلى الكون وخصوصاً في النسيج العلائقي الذي

تنغرس فيه، ولكن ليس بالضرورة أن تكون الفئات غير المنظمة وغير المؤطرة التي لديها تاريخ من الممارسات السياسية أن لا يكون لديها حضارة.

فالحقائق التاريخية والسياسية تتغير على الدوام بتطور عقل الإنسان وقدرته المتزايدة على كشف الحقيقة المزيفة, والحقيقة الصحيحة في يوم من الأيام قد تصبح في زمن آخر حقيقة مزيفة.

أهداف البحث:

نهدف من خلال هذا البحث الوصول إلى معرفة مختصرة لحقبة من الزمان عن حضارات الأمم ومقوماتها البشرية من حوادث البشر، والمواقف الساعية لتفسير حوادث التاريخ ومراحل تتطور الإنسان منذ أولى الحضارات لإيضاح الطبيعة الاجتماعية، ومن هنا تكون معرفة فهم الحضارات ضرورة لازمة لفهم ظواهر تطور حاضر الإنسان بمختلف جوانب الحياة.

مشكلة البحث:

عندما ننظر لتزوير الوقائع التي نعيشها والاستخفاف بها فإننا نبدأ بلا شك التشكيك في التاريخ وفيما يكتبه التاريخ، والذي غالباً ما يتم التلاعب بالأحداث لدعم موقف إيديولوجي معين, مما يؤدي إلى تقويض فهم الأحداث التاريخية الموثّقة لأعماق الشعوب والمجتمعات لإمكانية الحفاظ على خصوصيات المجتمعات والحياة الحرة لما تقدمه من إمكانيات التفسير الشامل لإبعاد الدول، والتي من المؤكد أنها لو وصلت تلك الأحداث والوقائع لكان المشهد مغاير اتماماً عما نعرفه اليوم دون تسليم مطلق لما نقرأه ولما نعرفه اليوم, لأنها من أكثر المواقف التي تخدم التعمية مقابل التنوع الغني للثقافات.

منهجية البحث:

نعتمد في هذا البحث على المنهج الوصفي لتسليط الضوء على الحضارة الغربية لنبحث في بقايا الماضي وآثاره، و لنستخلص منه معرفة حاضر البشرية في المكان والزمان، ومدى تأثرها بالحضارة الشرقية، وإمكانياتها وحدوها التي لم تتح لها ممارستها الوصول إلى التعامل مع الواقع انطلاقاً من الوعي بجدليته وموضوعيته لما له من دور كبير في تطور العلوم وبناء الحضارة الإنسانية.

خطة البحث

الفصل الأول : سيرة تاريخية عن الحضارة الغربية ويتضمن مبحثين.

المبحث الأول: تعريف الحضارة الغربية وتاريخ نشأتها والدول التي برزت منها الحضارة الغربية المعاصرة.

المبحث الثاني: مدى تأثر الحضارة الغربية بالحضارة الشرقية، وهل هو صراع أم حوار؟

تتألف خطة البحث من سيرة تاريخية للحضارة الغربية في فصلين: الفصل الأول يتضمن مبحثين: الأول بعنوان تعريف الحضارة الغربية وسيتضمن مطلبين، المطلب الأول هو تعريف الحضارة لغةً واصطلاحاً والمطلب الثاني: سنتناول فيه تاريخ الحضارة ونشأتها والدول التي برزت منها الحضارة الغربية المعاصرة.

أما الفصل الثاني فسنلخص فيه مدى تأثر الحضارة الغربية بالحضارة الشرقية، وهل هو صراع أم حوار؟

ويشمل مبحثين، المبحث الأول سنتطرق فيه إلى مدى تأثر الحضارة الغربية بالحضارة الشرقية من الناحيتين الفكرية والثقافية، والمبحث الثاني، سنتطرق فيه إلى الجدل فيما إذا كان تأثر الحضارة الغربية هو صراع أم حوار.

الفصل الأول

تعريف الحضارة وتاريخ نشأتها

المبحث الأول

تعريف الحضارة لغةً واصطلاحاً

سنتناول في هذا المبحث مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الحضارة لغةً واصطلاحياً.

المطلب الثاني: تاريخ الحضارة ونشأتها.

المطلب الأول: تعريف الحضارة لغةً واصطلاحياً:

الحضارة لغةً: الحضارة(بفتح الحاء وبكسرها) هي لغة الإقامة في الحضر, والحضر خلاف البدو, وبهذا المعنى استعملها القطامي الشاعر في قوله, مفتخراً ببداوة قومه, مستخفاً بساكني القرى والمدن.

أما اصطلاحاً فهي تطلق على كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه عقلاً وخلقاً, مادةً وروحاً, دنيا ودیناً. فهي في إطلاقها و عمومها قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور وتقلب الأزمان, وما صورت به علائقه بالكون وما وراءه.١(ص ٧ كتاب الإسلام والحضارة الغربية)

كما عرّف المؤرخون الحضارة بعدة تعريفات, فالحضارة عند داوسن هي **«نتاج عملية أصلية خاصة من الإبداع الثقافي والتي هي من صنع شعب ما»**, بينما هي عند دوركهايم و ماوس «نوع من وسط أخلاقي يضم عدداً معيناً من الأمم, وكل ثقافة وطنية هي شكل خاص من الكل», وعند شينجلر «الحضارة هي المصير الحتمي للثقافة ...نتيجة».٢(ص٦٩ صراع الحضارات هنتكتون)

فإذاً أهمية الحضارات تكمن في محاولة فهم تاريخ البشرية, وتحويله إلى علم يعتمد في منهجه على بحث منظم تدريجياً ليصل إلى مراحل متقدمة في تطور العلوم والفنون, للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها في جميع الميادين, وكيفية

تنبع أهمية دارسة تاريخ الحضارات من منظور دراسة علماء التاريخ من ثقافة القبائل والشعوب، الطبيعة، الأرض، الوطن، وبخاصة الحضارات القديمة, فهناك علاقة وثيقة على المستوى اللاواعي بين نشوء الطبيعة الاجتماعية وحضارة الشعوب. لا يمكن التقليل من أهمية دور الحضارات, إذ أنها تتصدى بصورة معتدلة على الأقل للكثير من الآراء المحافظة والممارسات التقليدية

علاقتهما ببعضهما, فهي ممتدة عبر الأزمان من الحضارة منذ السومرية القديمة إلى المصرية إلى الكلاسيكية والأميركية الوسطى, وعبر تجليات متتالية للحضارات الصينية والهندية.

المطلب الثاني: تاريخ الحضارة ونشأتها

فترة ماقبل التاريخ

تطور العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا على النحو التالي:

مرحلة يطلق عليها المرحلة الانتقالية بين العصرين الحجري القديم الوسيط والحجري القديم الأعلى, وتقع بين الأعوام ٤٥٠٠٠ و٣٥٠٠٠ قبل التاريخ المدون, وتتركب من عناصر ثقافية شديدة التباين, وهذه الفترة تسبق رسوخ تقاليد الفترة الأوريناكية المهيمنة بين الأعوام ٣٨٠٠٠ و ٢٨٠٠٠ قبل التاريخ المدون وتلك الخاصة بالفترة الجرافيتية gravettien السائدة بين الأعوام

٢٩٠٠٠ و٢٢٠٠٠ قبل التاريخ المدون, وتلت هذه المراحل مرحلة جديدة من التفتت الثقافي حيث يميزها انقسام وتوزع جغرافي حدث بين الفترة السوليترية solutréen والفترة البادجولية Badegoulien وفترة ما فوق الجرافيتية Epigravettien اللاحقتين لها, وذلك نتيجة الظروف المناخية القاسية للعصر الجليدي الأخير ٢٢٠٠٠- ١٧٠٠٠ قبل التاريخ المدون.

نلاحظ بعد ذلك نوعاً من التجانس ناجماً عن استقرار ثقافات غازية مثل ثقافة المجدلينية خلال الأعوام ١٧٠٠٠-١٢٠٠٠ قبل التاريخ المدون في أغلب مناطق غرب أوروبا ووسطها, بينما واصلت الثقافة الفوق جرافيتية تطورها في الشرق والجنوب الشرقي, وبعد تفتت الثقافة المجدلينية خلال المراحل المتقدمة من العصر الجليدي المتأخر مرادفاً لحلقة تقسيم جديدة ١٢٠٠٠-١٠٠٠٠ق.م تتزامن مع فترة مافوق العصر الحجري القديم قبل أن تدخل أوروبا في العصر الميزوليثي.٣ (ص ١٣٨عصور ماقبل التاريخ فرانسو بون)

يلتقي علم ماقبل التاريخ بطبيعته عند ملتقى الكثير من العلوم, من ناحية نجده علماً للحياة لأنه يصف التطور البيولوجي, ومن جهة أخرى نجده علم الأرض لأن الإنسان في ارتباط دائم مع الطبيعة منذ فطرته الأولى التي لم يكن بعد روّضها أو دجّنها, فإذاً الفترة الزمنية التي سبقت فترة ماقبل التاريخ هي الحد الفاصل بين ظهور الإنسان الشبيه بالحيون الذي لم يعرف فيه سوى الارتحال والقنص, والإنسان العاقل أو الشبيه بالبشر.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار تاريخ ظهور الإنسان على الأرض, فإن الحضارات لم تأخذ بالتنوع والتفرّد إلا بصورة تدريجية, وبرز هذا التنوع وأصبح الطابع المميز لحياة الناس في التاريخ القديم, فمنذ أن أخذت فئات من البشر في الاستقرار والتحضر حتى أخذت كل فئة تتطور في المحيط الذي ارتضته لها مقراً وفقاً لعوامل زمنية ومكانية.

الحضارات القديمة:

يبدأ التاريخ بالظهور بالوثائق المكتوبة, وأقدم الوثائق التاريخية التي عثر عليها كانت في وادي الرافدين ووادي النيل, واستمرت أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

لا يبدأ تاريخ الحضارة القديمة من لحظة معينة, ولذا لم يكن بدّ من الاختيار ,ومهما يكن من أمر فإن أسباباً عديدة تحملنا على تحديد نقطة الانطلاق هذه بالحضارتين السومرية والفرعونية, وهي أسباب تساعدنا بالإضافة إلى ذلك على أن نفهم ماهي كل من الحضارتين وكيف تشكلت, وما هي الأدوار التي لعبتهما بالتتابع في هذا التشكل كل من التواصلات القديمة والمستجدات. ومهما يكن فإننا دون أدنى شك أمام حضارتين من أضخم الحضارات في التاريخ من حيث ما حققتا من إبداع ومن حيث مدتهما, ولما أسهمتا به في الحضارات الإنسانية العامة ولما أعطيتا من توجيهات عن بعض الحضارات القديمة.

فالحضارتان كانتا قد وضعتا أسس الكيان الاجتماعي, وهو الأمر الذي لا يتطرق الشك إليه, فشملتا ميادين الحياة الفكرية والاقتصادية, والحضارات البارعة التي دونت فيها رسائل العمارة والفنون والنظم الاجتماعية والسياسية التي أثرت أثراً بارزاً في تقدم شعوب الشرق الأدنى, والذي علينا أن نستعرضه تباعاً بعد ما وصلت إليه الدراسات الشاملة في القرن الماضي, «أن السومريين هم أول مجتمع بشري أقاموا دولة, وهم أصحاب الحضارة والتاريخ المكتوب».٤ (ص ١٧عبد الله اوجلان - من دولة الكهنة السومرية نحو الحضارة الديمقراطية).

الحضارة الإغريقية القديمة:

إن التاريخ المحدد لبداية الحضارة الإغريقية هي فترة ما قبل التاريخ التي امتدت من القرن التاسع عشر إلى نهاية العصر الكلاسيكي القديم في القرن الثالث عشر قبل الميلاد, و التي انتشرت

في الرقعة الجغرافية في جنوبي شبه الجزيرة البلقانية والجزر الإيجية وسواحل آسيا الصغرى, وأقاموا فيها حتى أوائل العهد المعاصر لتكون وطناً لهم.

ويبدو التطور واضحاً في الحضارة الإغريقية من خلال ما خلقتها الحضارة الإيجية المزدهرة في القرون الوسطى اليونانية, بخاصة تراثها الثقافي الذي ساهم في تطور علم التاريخ الحديث الذي كان له تأثير كبير وباقٍ على البنية المعنوية والفنون في تطور الحضارة اليونانية, لأن الرأي السائد هو أن الحضارة اليونانية لا تتميز عن حضارة العهد الكلاسيكي.

لقد برز في كل حضارة من الحضارات مجتمع, وفي زمان كل مجتمع حقبة استسلموا لطموحاتهم في تراثهم الثقافي, وتتطور قضاياهم الأساسية في كل عصر من التاريخ اليوناني القديم الذي كان دوره التقدمي في التاريخ العالمي, كالاستغلال والعبودية في الحرف, والطبيعة الاستغلالية في مختلف مراحل التطور الاقتصادي في المجتمع اليوناني القديم التي ولدت فيها الحضارة الإغريقية التي انقسمت إلى العهد الكريتي والمسينيني من منتصف الألف الثالث إلى الألف الثاني قبل الميلاد. ثم تأتي حقبة تتطور اليونان في العهد الهوميري في القرن الحادي عشر والقرن التاسع قبل الميلاد. ثم مرحلة تفكك الحضارة اليونانية من القرن الثامن حتى السادس ق.م. الذي كان الاستعمار أحد مراحله الهامة. ككل هذه المرحلة من التاريخ. ثم المرحلة الكلاسيكية التي وصلت فيها الحضارة اليونانية في ظل المجتمع العبودي والتي اشتدت تناحراتها في أحشاء تاريخ اليونان القديم في القرن الخامس حتى الرابع ق.م. ثم أعقبتها المرحلة الهلينية التي انصهر فيها تاريخ اليونان بتاريخ الشرق انصهاراً جزئياً. والتي تعتبر المرحلة الأهم في علم التاريخ. ومرحلة بلوغ مجتمع الرقيق أوجه (القرن الثالث والثاني ق.م) هذه الخلاصة ليست كاملة. فالهدف هو تشجيع تفتّح الفرد وتحقيق

"إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تاريخ ظهور الإنسان على الأرض, فإن الحضارات لم تأخذ بالتنوع والتفرّد إلا بصورة تدريجية، وبرز هذا التنوع وأصبح الطابع المميز لحياة الناس في التاريخ القديم, فمنذ أن أخذت فئات من البشر في الاستقرار والتحضر حتى أخذت كل فئة تتطور في المحيط الذي ارتضته لها مقراً وفقاً لعوامل زمنية ومكانية"

أفضل الإمكانات المدين بها للطبيعة البشرية.

الحضارة الصينية:

الحضارة الصينية بلا شك هي واحدة من أعرق الحضارات التي عرفها الإنسان. وهي الحضارة التي أفاءت على الدنيا فيضاً متصلاً من الإبداعات والابتكارات الميكانيكية المدهشة التي أذهلت العالم. وهي أيضاً الحضارة التي ما تزال بعض أقدم ثمارها تبهر عقولنا. ويتزايد الاعتراف في عالمنا بتاريخ الحضارة البشرية. وكأحد المكونات الأساسية في عملية تطور ثقافة البشرية. وكان للصينين إسهامهم في فهم الإنسان للطبيعة وسيطرته عليها. والإسهام في تطور العلم فكان دورهم عظيماً. وحسب مؤرخي الصين الإقطاعية ينقسم تاريخ الصين القديمة بعد زوال إمبراطورية الشائغ إلى ثلاث حقب مؤسسة على تعاقب الأسر: تشو (١١٢٢-٢٤٧ ق.م). تسين (٢٤٦-٢٠٧ ق.م). هان (٢٠٦ ق.م حتى ٢٢٠ بعد الميلاد). وعلى غرار مؤرخي الصين للعصر

”واكبت الثقافة والتكنولوجيا التنقّل في المجتمعات الإنسانية من حضارة إلى أخرى، ولكن استمر ذلك الحدث لقرون، وأهم التأثيرات الثقافية بين الحضارات كان عن طريق الاحتكاك بينها عندما يغزو شعب من حضارة معينة شعباً آخر من حضارة أخرى ويزيله من الوجود أو يخضعه له، وربما كان أهم انتشار ثقافي هو انتشار البوذية في الصين والذي حدث بعد مئات الأعوام من نشأتها في شمال الهند“

الوسيط الذين سعوا إلى تفسير أحداث قديمة جداً بروح عصرهم. رأى المؤرخون البرجوازيون أن عهد تشو - هان كان عهداً إقطاعياً. ٥ (ص ٢٣١ الحضارة القديمة).

الحضارة الرومانية:

حتى تكتمل الصورة التاريخية عن تاريخ الحضارات كان لا بد من توضيح حقبة الأجيال الوسطى التي تبدأ من انهيار العالم القديم وتداعي كيان الإمبراطورية الرومانية السياسية وبنيانها الحضاري. وهي الفترة التي شملت أحداثاً كانت في جزء كبير منها سبباً في نهايته.

ينقسم تاريخ روما القديم إلى ثلاثة عصور تقليدية وهي: العصر الملكي ويشمل الفترة الأولى منذ عام ٧٥٣ ق.م حتى عام ٥٠٩ ق.م. والعصر الجمهوري Respublica: والذي يستمر من عام ٥٠٩ ق.م قيام الجمهورية حتى عام ٤٤ ق.م وهو تاريخ اغتيال يوليوس قيصر آخر زعماء الجمهورية الرومانية. والعصر الإمبراطوري, وقد استمرت الجمهورية الرومانية نحو خمسة قرون، انتهت بسلسلة من الصراعات الحزبية والحروب الأهلية حتى وضع أوكتافيانوس حداً لها في عام ٢٧ ق.م. وذلك باستحداث نظام دستوري وسياسي جديد عرف بالنظام الرئاسي, ورغم أن أوكتافيانوس قد حافظ على هيكل النظام الجمهوري في جميع مظاهره. (٦ ص ٢٤ الإمبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار).

يعتبر تاريخ الإمبراطورية الرومانية تجربة رائدة في تاريخ الحضارة الإنسانية, واستطاعت روما في عصر الإمبراطورية أن تستوعب كل تجارب شعوب الشرق الأوسط السياسية والحضارية. ثم أن تمزج بين التراثين الإغريقي والروماني, لتُستخلص في النهاية التجربة الرومانية للإمبراطورية العالمية شكلاً وتراثاً. فلسفةً وحضارةً.

الإمبراطورية البيزنطية:

تعتبر هذا الحقبة من الأزمنة المتحضرة في شرقي أوروبا. والتي انعكست على المناطق القريبة والبعيدة من الدولة البيزنطية من آسيا الصغرى وشمالي العراق والشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا لعدة قرون. ثم بدأت الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي فأصبحت جزءاً من العالم الإسلامي فتأثرت وأثرت بالحضارة الشرقية. و كانت عاصمتها روما. ومسمى الإمبراطورية البيزنطية هو الآخر من المسميات الحديثة وله مايبرره. فكلمة بيزنطة مرجعها إلى أن الإمبراطور قسطنطين عندما بنى عاصمته القسطنطينية. بناها على أنقاض مدينة قديمة تدعى بيزنطة أسسها بيزاس Byzas قائد المجموعة اليونانية التي هاجرت إلى هذا الموضع في القرن السابع قبل الميلاد. وعرفت المدينة باسم بيزنطة نسبة إلى هذا القائد. ٧ (ص١١ تاريخ الإمبراطورية البيزنطية).

استمرت الإمبراطورية البيزنطية أكثر من أحد عشر قرناً ونصف القرن. وقد كانت وريثة

الإمبراطورية الرومانية في مرحلتها الأولى، وموقعها الجغرافي جعلها على اتصال دائم بين الشرق والغرب، وكانت معرضة لأطماع جيرانها من دول من الشرق ودول من الغرب حتى أصبحت عاجزة عن الدفاع ضد الأخطار التي كانت تحدق بها، فكان سقوطها على يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م.

تأثير الحضارة الشرقية على الحضارة الغربية من الناحيتين الفكرية والثقافية؟

وهل هو صراع أم حوار؟

عاشت الحضارات القديمة نحو ١٥ ألف عام، ثم تدفقت الحضارات النابعة من شرق ميزوبوتاميا ومصر خلال العصور الوسطى إلى أوروبا بما في ذلك المسيحية عبر الحضارة الإغريقية والرومانية، حتى القرن الخامس عشر الميلادي، في حين انغمست كلياً حضارة مصر، وجزئياً حضارة كل من الهند والصين في حضارة العصور الوسطى عن طريق الشرق الأوسط، وأدت العقيدة الإسلامية دوراً جذرياً في سكبها جمعياً داخل حوضها، ومن ثم تقديمها لأوروبا بعد القرن السادس عشر.

لم تتأسس في أوروبا من الناحية المادية والمعنوية أي ثقافة، وحتى ظهور الفلسفة لا يمكن جزمها بمعزل عن الثقافة المنبثقة من الحضارة الشرقية، حيث تشكلت الأفكار الفلسفية كما يذكر أفلاطون حين تنقّل الحكماء اليونان (صولون، فيثاغورس، تالس) بين مراكز الحكمة الشرقية في بابل ابتداءً من أعوام ٦٠٠ ق.م. فالميثولوجيا اليونانية والرومانية من حيث المضمون تعتبر الاشتقاق الرابع والخامس من الميثولوجيا السومرية، ونسبياً من الميثولوجيا المصرية(الميثولوجيا السومرية+ البابلية+ الهورية+ الحثية+ الميتانية+ اليونانية+ الرومانية). وبالأصل فالثقافة المادية للعصر النيوليتي قد شملت جميع مجالات الحياة الأوروبية في أعوام ٤٠٠٠ ق.م. أما الثقافتان السومرية والمصرية فقد شملتها فيما بعد بين ٣٠٠٠-١٠٠٠ق.م. (عبدالله أوجلان مانيفستو الحضارة الديموقراطية ص١٦٨)

واكبت الثقافة والتكنولوجيا التنقّل في المجتمعات الإنسانية من حضارة إلى أخرى، ولكن استمر ذلك الحدث لقرون، وأهم التأثيرات الثقافية بين الحضارات كان عن طريق الاحتكاك بينها عندما يغزو شعب من حضارة معينة شعباً آخر من حضارة أخرى ويزيله من الوجود أو يخضعه له.

وربما كان أهم انتشار ثقافي هو انتشار البوذية في الصين والذي حدث بعد مئات الأعوام من نشأتها في شمال الهند.

بدأ الاحتكاك الحضاري بين الإسلام والغرب، والإسلام والهند في القرن السابع وتعزز نسبياً، وفي بعض الاحيان كان متوتراً، فمعظم العلاقات التجارية الثقافية والعسكرية المتبادلة كانت تتم في إطار حضارات، وعلى سبيل المثال بينما كانت الهند والصين محتلتين وخاضعتين لشعوب أخرى «المغول والمنغول»، إلا أن الحضارتين عرفتا مراحل حروب بين الدول داخل الحضارة نفسها، ونفس الشي حدث عند الإغريق الذين حارب بعضهم بعضاً وتاجر بعضهم مع بعض أكثر مما فعلوا مع الفرس وغيرهم من الحضارات الأخرى.

ظهرت المسيحية الغربية كحضارة متميزة في القرنين الثامن والتاسع، وظلت عدة قرون متخلفة عن عدة حضارات أخرى في مستواها الحضاري.

كان العالم الإسلامي من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر، والبيزنطيون من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر، والصين في حكم أسر تانج، وساخ، ومينج، كلهم كانوا متفوقين على أوروبا في الثروة والاتساع والقوة العسكرية والإنجازات الفنية والأدبية والعلمية.

بدأت الثقافات الأوروبية في التقدم بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر، وقد سهّل ذلك استيعاباً منظماً ومتحمساً لعناصر ملائمة من الحضارات الإسلامية والبيزنطية مع تطويع

"عندما ننظر لتزوير الوقائع التي نعيشها والاستخفاف بها فإننا نبدأ بلا شك التشكيك في التاريخٍ وفيما يكتبه التاريخ، والذي غالباً ما يتم التلاعب بالأحداث لدعم موقف إيديولوجي معين, مما يؤدي إلى تقويض فهم الأحداث التاريخية الموثّقة لأعماق الشعوب والمجتمعات لإمكانية الحفاظ على خصوصيات المجتمعات والحياة الحرة لما تقدمه من إمكانيات التفسير الشامل لإبعاد الدول"

ذلك الميراث لظروف ومصالح الغرب الخاصة أثناء نفس الفترة. وكانت هنغاريا وبولندا وسكاندنافيا وساحل البلطيق قد تحّولوا إلى المسيحية الغربية، مع ما استتبع ذلك من القانون الروماني وجوانب الحضارة الغربية, حيث ستبقى بعد ذلك دون تغيير يذكر. ورغم ذلك كانت النهضة الأوروبية في الطريق بحلول عام ١٥٠٠. وكانت التعددية الاجتماعية والتجارة التي أخذ نطاقها يتسع، والإنجازات التكنولوجية تضع الأساس لمرحلة جديدة في السياسة الكونية.

وفي النهاية لا بد للبشرية أن تعي أنه لم يكن هناك بشرية واحدة بل بشريات وحضارات, ففي القرن الثامن عشر تمكن الإنسان من استكشاف مجاهل أوقيانيا وأستراليا. كما قام خلال القرن التاسع عشر باكتشاف المناطق المجهولة في إفريقيا وقطبي الأرض الشمالي والجنوبي. وعلى هذا يجب أن نقيس أحداث التاريخ العام والانتقال بالسير البشري من عصور ماقبل التاريخ إلى التاريخ, فتعاقبت التواريخ والمدنيات على أساس من الترابط والتفاعل وارتكزت عليها الكثير من الأسانيد والحجج التي استخدمت في تصور ما أنجزته الإنسانية من تقدم. وتحكمت الرؤية التطورية في البناء الفكري الذي يضم الأنثروبولوجيين وعلماء الآثار وعلماء الإثنولوجيا. فالشعوب البدائية بالصور التي تبدو عليها حياتهم في القرن التاسع عشر, أشبه بالذخائر والبقايا البيولوجية والسلوكية لماض طواه الزمان في مواقع أخرى. وبالتالي فإن الانكباب على دراسة هذه الشعوب لا يتم نتيجة اهتمام خاص بها وإنما لكونها أمثلة حية لمسيرة الإنسانية. وأن هذه الحضارات هي حضارة الحوار الذي ليس الحصول على انضمام المحدث هو الشي الأساسي فيه. بل احترام هذا المحدث بوصفه محدثاً بالضبط. واحتراماً كافياً كي يظل الحوار ممكناً, وهكذا كانت إحدى ركائز تاريخ هذه الحضارة التأكيد بأشكال مختلفة على الحق الذي يملكه كل إنسان في البحث عن حقيقته الخاصة, إذ ليس في هذا الكون حقيقة واحدة: حقيقة بأحرف كبيرة, بل حقائق بقدر ما فيه من وجدانيات وتنوع للثقافات. و يعتبر إجراء التبادلات الثقافية ضرورياً لدفع تطور الحضارة الإنسانية بصورة سليمة ومنسجمة, فهي قوة محركة لكل الحضارات وتساهم بشكل أو بآخر في دفع التبادلات والاندماج الثقافي بين الشعوب, والذي يعتبر قوة هامة لتقدم المجتمع البشري. وإبداع وازدهار الأمم.

الغجر بين السماء والأرض
«أبناء الرياح"

عواس علي

أولاد النجمة ـ شهود الزمان ـ أبناء الرياح: كلها أسماء عُرف بها الغجر.

ما نعرفه عن الغجر -هؤلاء القوم المفعمون بروحانية الشرق والمترعون بها لحد الثمالة- أنهم يمتهنون مهناً غريبة ويحافظون عليها بإتقان, بدءاً من صناعة الغرابيل إلى تركيب الأسنان وصناعة التمائم, وينظرون ويغوصون في الغيب عن طريق ودعهم وأحجارهم التي ينثرونها ويبدؤون بقراءة ما ترشدهم إليه تلك الأحجار في علم الغيب, وقد يصعب عليهم حمل ودعهم فينصرفون إلى الفنجان لقراءة الطالع والمخفي, وقد يستعيضون عن الفنجان بالخطوط المرسومة بعبثية القدر على راحة الكف, فيسرّون نفوساً متعبة, ويزفّون أخباراً مفرحة مؤجلة وتائهة

بانتظار الأقدار لتحرّكها باتجاه الشطآن, ولا ننسى ما يمتهنونه من فنّ وطرب ونقش الوشم.

إنهم يحملون متاعهم على ظهور خيولهم يجوبون البلدان, لا تحدّهم حدود رُسمت عنوة بين البشرية, يمتهنون الصيد وخاصة صيد الحجل, ويربونه, وترى رجالهم يتجندون أقفاص الحجل التي يعتنون بها كما يعتنون بأولادهم, فيزرعون شباكهم لصيدها, ويربّون كلاب الصيد السلوقية, إنهم يسكنون الخيم في الشتاء والصيف, ونعرف عدداً من العوائل الغجرية التي استوطنت المدن فبنت خيمتها بجانب الفيلا (القصر) ليسكنوها, ويستمتعون بالنوم تحت سمائها من خلال قطرات الندى المتسربة من الأوبار المصنوعة منه الخيمة.

من هم الغجر؟

من خلال البحث في أصول الغجر نرى تعدد الروايات, وسنسرد هذه الروايات حسب موقعها.

منذ الصغر وأنا أسمع من الرواة المسنين أن الغجر هم قوم جسّاس بن ربيعة الذين تم تشتيت قبيلتهم من قبل الزير سالم وحكم عليهم بالترحال الدائم, ومنعهم من إشعال النار أو السراج ليلاً, ويقال إن الغجري يطفئ سراجه ويفترش خيمته ليلاً, وهذه الرواية تجانب الصواب من ناحية اللغة, فالغجر لهم لغتهم الخاصة التي يتكلمونها وهي اللغة الرومانية أوالدومنية, ولها مفرداتها الخاصة التي تختلف عن باقي اللغات, فالذي أعرفه أن الغجر يقولون للغريب" نغور" وللثعلب "لونغر» وقبيلة بني ربيعة قبيلة عربية أصيلة, فمن أين جاءتهم هذه اللغة الدخيلة وهم لم يغادروا شبه الجزيرة العربية حتى في ترحالهم, ويضاف إلى ذلك أن انتشار الغجر في أصقاع المعمورة ينافي هذه الرواية, فليس من الصواب أن يكون للهذه القبيلة العربية كل هذا الانتشار على وجه البسيطة.

ووردت رواية أخرى تقول إن الغجر هم قبيلة هندية أسلمت وهربت من بطش البوذيين باتجاه بلاد فارس, وهذا أيضاً ينافي الصواب, إذ أن باحثين كثر أثبتوا تواجد الغجر في بلدان عدة وخاصة العراق قبل ظهور الإسلام, والشيء الآخر أن الديانة البوذية في الهند هي ديانة الزهد والتفاني, وتمنع الاعتداء على الإنسان مهما كان دينه أو معتقده.

ووردت روايات عدة أجمعت على أن الغجر قوم من الأقوام الهندية الآرية, هاجرت في القرن الرابع الميلادي باتجاه بلاد فارس من ضفاف نهر السند, والبعض ردّهم إلى جبل قرباط في الهند.

ومثلهم مثل الأقوام الأخرى التي هاجرت من الهند باتجاه بلاد فارس ثم اتجهت باتجاه الغرب والعراق وتركيا, ومن هناك انتشر الغجر باتجاه أوروبا وإفريقيا في بداية القرن الخامس عشر الميلادي, وأظن أن هذه الرواية هي الأقرب إلى الصواب, كون اللغة الغجرية (الرومانية ـ الدومنية) هي الأقرب في مفرداتها للغة الهندية الآرية, وعادات الغجر وزيّهم أقرب للهنود من حيث اللباس واختيار الألوان الزاهية.

اعتاد الغجر على الترحال وممارسة مهنهم وذلك من خلال أدواتهم التي يحملونها على ظهور الخيول أوالحمير في الشرق, ولكن الوضع مختلف في أوروبا فهم يمارسون مهنهم من خلال العربة التي تجرها الخيول, وعادة تكون رباعية العجلات, وهي في ذات الوقت تُعتبر مسكناً للغجري مع عائلته, وقد تتعدد العربات في حال تعدد أفراد العائلة.

والمجتمع الغجري مجتمع متماسك من حيث البنية العائلية, فمعظم أفراد العائلة الكبيرة يشكلون عائلة وأحدة, الأحفاد والأولاد والأعمام, وما عرفناه عن الغجر في الشرق أنهم ينقسمون إلى أربعة أفخاذ: البركي والغربتي والزطّ والنَّوَر, ولكن الذي عرفناه عنهم في سوريا أنهم ينقسمون إلى نَوَر وغرج وقرباط «جولك" وربما تختلف التسميات

حسب الأقوام التي عاش الغجر معهم, فعند العرب يُعرفون بالنوَر والغرج, وعند الكرد يُعرفون ب (الجولك والغرجي), وأغلب الظن أنهم ينقسمون إلى قسمين: الغرج والنوَر, فالغرج معروفون رجالهم بامتهان مهنة صناعة الغرابيل والدفوف والطبول من جلود الماعز, وتركيب الأسنان وتلبيسها, والذي عُرف عن رجالهم أيضاً الأنفة وعزة النفس.

يترأسهم كبيرهم وهو الآمر الناهي بينهم, لا يُخالف له أمر, وقد ينصرف بعضهم إلى الصيد مع كلابه السلوقية التي يعتني بتربيتها, ومن بعض الحكايا التي تناقلها المسنّون أن قوماً منهم حطّ الرحال عند بعض الآغاوات من الكرد, وكان بينهم شاب يدعى «جعفر» يمتهن تربية طيور الحجل والصيد بكلابه السلوقية, فعشقته ابنة الآغا وتغنت به, ومنهم من قال إنها هامت به وفقدت عقلها وداحت على إثره تسأل العابرين عنه.

"منذ الصغر وأنا أسمع من الرواة المسنين أن الغجر هم قوم جسّاس بن ربيعة الذين تم تشتيت قبيلتهم من قبل الزير سالم وحكم عليهم بالترحال الدائم, ومنعهم من إشعال النار أو السراج ليلاً, ويقال إن الغجري يطفئ سراجه ويفترش خيمته ليلاً, وهذه الرواية تجانب الصواب من ناحية اللغة, فالغجر لهم لغتهم الخاصة التي يتكلمونها وهي اللغة الرومالية أوالدومنية, ولها مفرداتها الخاصة التي تختلف عن باقي اللغات"

وهناك أغنية كردية وردت على لسان تلك الفتاة العاشقة لجعفر الغجري غناها مغنون شعبيون وتناقلتها الألسن من جيل إلى جيل, وأتوقع أن بعض المسنين مازالوا يحفظونها, وأنا أحفظ منها بعض الأبيات ولكني لا أجرؤ على ترجمتها كون الترجمة تعني إلباس الغجري طقماً وكرافة.

ولكن أحد الفنانين الكرد تغنى بهذه الأغنية قائلاً:

أيها الرعاة

ألم تروا جعفر الغجري ... يتجند أقفاصه ... وتتلوه كلابه ... يعتل جذع جوز على كتفه؟

أيها الغجري الهائم بين الجبال لتصطاد الأحجال ... التفت لزوج الأحجال في صدري

واصطدها بشباكك ... إذا بليت شباكك... خذ من شعري ... يصلح معارف لصناعة الشباك.

ونساؤهم يعملن في التبصير ونقش الوشم وبيع السلك والأبر والمخط والمسلات والعلك "علك البطم" والمرايا الصغيرة, والمشوط , وبعض البخور, وتعرض الغرجية على النساء خدماتها في تطبيع الرجال مع نسائهم عبر بيع من تودّ قطعة من جلد الذيب, أو خرزة تحملها المرأة في جيدها تجعل الرجل رهن إشارتها, وقد تكون خرزة بخت (حظ) تجلب الحظ لحاملتها, وقد تكون خرزة حليب, تضعها المرأة في عنقها لتتدلى بين نهديها لإدرار الحليب لمولودها, و تضع الغرجية كل ذلك في كارتها وتحملها على ظهرها, وتطوف القرية التي تحط الرحال فيها وتعرض بضاعتها للنساء, بالإضافة إلى ممارسة مهنة الوشم بالإبرة ورماد صاج الخبز.

أما النَوَر فهم الفئة الثانية ورجالهم لا يعملون, بل يتّكلون على النساء التي تطوف البيوت لجمع الغذاء اليومي للرجل والأطفال, وغالباً ما تحمل بيدها سطلاً لجمع الطعام وتقوم بخلط كل ما تجنيه في وعاء واحد, لذلك يُضرب المثل بطعام النوَرية على الأمور المختلطة مع بعضها البعض «هذا الأمر مثل

طعام النوَرية». وأكثر الأحيان تجدها تحمل أطفالها على ظهرها وتطوف البيوت, وربما هي اعتادت هذا الأمر الذي باتت لا تجد فيه أية صعوبة, وتحوّل لديها إلى عادة لا تقدر على تركها, وأكثرنا يعرف المثل القائل "يا طاقة اعطيني رقاقة», ويعود المثل إلى حكاية مفادها بأن أحد الأمراء عشق غجرية وتزوجها وأسكنها في قصره, وذات يوم عاد إلى بيته من سفر فوجد محبوبته قد وضعت في كل طاقة قطعة من الخبز وراحت تبحث عنها وتردد «يا طاقة اعطيني رقاقة», كناية عن أنه من الصعب عليها أن تترك عادة التسول, والطاقة كل ظني أنها نافذة في الجدار لا تنفذ إلى الخلاء, أما النافذة فتنفذ إلى الخلاء, وأما الرقاقة فهي أحد أسماء قطعة الخبز الذي يرقّ بالمرق ويشوى على الصاج, ويقال له خبز رقاق.

ويُضرب المثل بسرعة البديهة لدى الغجري فيقولون "فلان كالغجري جوابه على رأس لسانه" ويقال إن أحد الاشخاص رأى غجرية حبلى تتسول فأراد السخرية منها فقال: ماشاء الله مملوءة, فالتفتت إليه وقالت: سأكون أكرم منك, اذهب لزوجي ليملأك.

أما الرجل الذي يتكل على المرأة في معيشته فكان يتفرغ لموضوع الصيد وصناعة الأشراك, وقد يربي الحجل, ويقال إن أحد رجالات النوَر تزوج بامرأتين, وذات يوم وقف يصرخ بأعلى صوته بين النزل: «يا جماعة: امرأتان وغير قادرتين على إعالة رجل" وربما هذا الأمر كان في ما مضى. أما الحقيقة فأنا أعرف رجالاً منهم يعملون في الحمالة (العتالة) وفي صناعة البلوك والحصاد, ويعتزون بأنفسهم, وصادقين بوعدهم وأمينين, ومنهم في سوريا أبو عيسى: ذلك الرجل الأمين والصادق الذي يحضّر القهوة المرة في الأفراح والأتراح, ومنهم من يمتهن العزف على المزمار " الزرناية" والطبل, و يدعون إلى إقامة الأفراح ومنهم إسماعيل "سمو».

ـ حين تضيق أنفاس الغجري

وتنتفخ أوداجه نافخاً في مزماره
فيتسع العالم ولا تحده حدود

وقد يعمل أطفالهم ويمتهنون مهنة مسح الأحذية "بويجية» فيدعون العابرين إلى صناديقهم المزركشة, والغجري ملمّ بالحكايا الشعبية التي يجمعها في ترحاله فتجده مسامراً في أكثر الأحيان وساردا لقصص وأساطير تعبّرعن مجمع لتراث وثقافة متنوعة.

ولا ننسى أن بعض العائلات منهم انحرفت عن مسارها وتحولت نساؤهم إلى راقصات في الملاهي بدمشق وغيرها من المدن الكبيرة, وربما الأمر لا يقتصر عليهم فقط, فهناك غيرهم أيضاً يتخذ من ذلك مهنة للمعيشة.

يتوزع الغجر في سوريا في جميع المدن, وحسب بعض المصادر فإن تعدادهم قد يصل إلى ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف.

توزّع الغجر في العالم:

يتوزع الغجر على وجه المعمورة في جميع أنحاء العالم بدءاً من العراق وفلسطين حتى روسيا وهنغاريا ورومانيا وفرنسا وإسبانيا والمملكة العربية السعودية ومصر.

وأبرز تواجد لهم كان في فلسطين حيث يترأسهم شكري أنور الناطق الرسمي باسم الغجر, وهم في فلسطين يلقبون بالنوَر, ولا يخفون أصلهم, ومنهم مثقفون بارزون, وهم يرفضون إطلاق اسم الغجر عليهم, ويعتبرون أن نسبهم يعود إلى قبيلة بني مرة العربية (قوم جساس), وهم غير الغجر الذين ينحدرون من أصل هندي, و في العراق يُعتبر الغجر من الأقوام الناقلة للفن الغنائي وألوانه بين القبائل والأقوام, ولا يستهان بدورهم في نقل الحضارات من بلد إلى بلد آخر, فهم يقومون بالدور الذي يقوم به النحل في تلقيح النباتات والأشجار, فهم المسؤولون عن تزاوج الحضارات في بلدان عدة, وكان لهم حضورهم في بلاد الإغريق في القرن الثاني عشر, وتوجهوا باتجاه رومانيا وهولندا, و يعيشون على شكل

مجموعات اجتماعية متماسكة يصعب اختراقها, ولكل مجموعة منهم رئيس يتزعّمهم يُلقّب بالكونت أو الدوق, وكلمته مسموعة لدى الجميع ويُعتبر الآمر الناهي للمجموعة, ويدينون بالديانة المسيحية, وكانوا يحملون صكوكاً من البابا في الفاتيكان يسمح لهم بعبور جميع الحدود في أوروبا على ظهور عرباتهم الجوالة وخيولهم.

وبالرغم من ذلك نجد الباحثين الأوروبيين والشرقيين ينظرون إلى الغجر على أنهم قوم لا تربطهم أي ديانة بالمفهوم الديني, فيجدون التزامهم بالدين التزاماً هشاً, سواء بالدين الإسلامي أو المسيحي, ويقول عنهم البعض إن التزامهم بالدين هو التزام شكلي يتظاهرون به أمام الآخرين, وعلى كل الأحوال من خلال معرفتي بهم, وجدتهم يؤمنون بالمزارات والشيوخ, وتجدهم يتلفظون ببعض التعاويذ الشيعية, ويحلفون بالعباس, وكل الظن أنه العباس بن عبد المطلب عمّ الرسول "ص», ويتخذون من المقابر والمزارات تمائم لهم ولأطفالهم.

وربما أغلبهم انخرط في السكن في المدن و راح يتنصّل من أصله, غير أني وجدتهم في لبنان وفي بيروت تحديداً أن لهم حيّاً خاصاً بهم وهم يعتزون بأصلهم, ويطلقون على أنفسهم النوَر, ويعملون في مهن تعلموها وأتقنوها.

أكثر الدول التي يتواجد فيها الغجر:

يتواجدون في إسبانيا بكثرة ويقدر تعدادهم بما يقارب ٧٥٠ ألف نسمة, وهم مبدعون بالرغم من قلتهم في موسيقا الفلامينكو, وأشهر الراقصين على أنغام الفلامينكو هو الراقص الغجري «خواكين كوريتس», ولا ننسى بطل مصارعة الثيران «خوان خوسيه» الغجري, ومنهم الشاعر الأممي «فيديريكوغاريثيا لوركا», الذي تم إعدامه بالرصاص عام ١٩٣٦على يد الجنرال «فرانكو» الفاشي وهو يلقي أشعاره ويطالب بحريته بوجه أعدائه:

ـ ما الإنسان دون حرية يا ماريانا؟

قولي لي كيف استطيع أن أحبك إذا لم أكن حراً؟

كيف أهبك قلبي إذا لم يكن ملكي؟

ومازال الغجر في إسبانيا يرددون أشعاره, ومازالوا يفتقدون لحقوقهم في تلك البلاد, وشكلوا تجمعات وجمعيات تطالب بحقوقهم, يجتمعون في كل عام للاحتفال العالمي الذي خصصته الأمم المتحدة والاتحاد الأوربي لرفع الظلم عن الغجر في ٨ نيسان من كل عام.

الغجر في ألمانيا:

جاء اضطهاد الغجر في ألمانيا قبل ظهور النازية إلى العام ١٨٩٩ إبّان الإمبراطورية الألمانية, فقد صدرت فرمانات عدة تمنعهم من التجوال وتحدّ من حريتهم وتعتبرهم أناساً غير مرغوب فيهم, حتى أنهم مُنعوا من مخالطة الناس الألمان وذلك لاعتبارهم أجانب غير مرغوب فيهم بألمانيا, وراح الألمان يتبعون خطوات الغجر في كل مكان, وممارسة الاضطهاد عليهم, ونعتوهم باللصوص والحرامية, ودوّنت سجلات خاصة بذلك, وبعد ظهور النازية في ألمانيا على يد هتلر وحزبه ووضع قانون النقاء العرقي, وعلى الرغم من أن الكل كان يعتبر الغجر من أصول آرية, غير أن النازية لم تاخذ بذلك, واعتبرتهم من العرق الآري غير النقي, وشُكلت مجموعة من الأطباء والعسكريين الفاشيين غايتها تتّبع الغجر والتعرف عليهم, وكان على رأسهم الطبيب النازي "روبرت ريتر» الذي سعى لوضع سجل خاص بالغجر في ألمانيا ودراسة أصولهم وانتماءاتهم, وبالرغم من أنه استخلص بنتيجة دراسته أن الغجر من أصل هندي آري, غير أنه ذهب في دراسته إلى أن عرقهم آري لكنه عرق غير نقي, وبذلك اقترح الدكتور ريتر النازي, بأن العرق النازي بين الغجر لا يتجاوز ١٠ بالمئة, والباقي بحاجة لتطهير عرقي, وتم تشكيل مكتب خاص عام ١٩٣٦ بقيادة «هنرك هليمر» زعيم القوات

> **هناك روايات تدعي أن الغجر هم قبيلة هندية أسلمت وهربت من بطش البوذيين باتجاه بلاد فارس, وهذا أيضاً ينافي الصواب, إذ أن باحثين كثر أثبتوا تواجد الغجر في بلدان عدة وخاصة العراق قبل ظهور الإسلام, والشيء الآخر أن الديانة البوذية في الهند هي ديانة الزهد والتفاني, وتمنع الاعتداء على الإنسان مهما كان دينه أو معتقده**

الخاصة, وفي نهاية العام تم إخضاع الغجر للحجر في حقل بالقرب من مصبّ مياه المجارير شرق برلين, وتم محاصرة الحقل الذي تحول إلى معتقل, وتم إنشاء معتقلات في مدن عدة, وتم نعتهم بأعداء المجتمع الألماني, وفي عام ١٩٤٣ تم جمع ما يقارب من ٥٠٠ ألف من الغجر من الدول التي تسيطر عليها النازية ووضعهم في معتقل وإبادتهم إبادة جماعية, وأقرت ألمانيا بهذه المذبحة بشكل رسمي, وتم بناء تمثال «نصب» تذكاري في برلين يرمز للمجزرة التي ارتكبت بحق الغجر, وكذلك يتم إحياء ذكرى تلك المجزرة في دول أوروبية عدة منها بولندا التي خصصت اليوم الثاني من شهر آب لإحياء ذكرى المجزرة التي ارتكبت بحق الغجر, كما تم الاعتراف بشكل رسمي من قبل البرلمان الأوروبي بتلك المجزرة عام ٢٠١١.

وفي الحقيقة مازال الغجر يعانون من التمييز العنصري في ألمانيا, وقد تم تشكيل مجلس خاص بهم عام ١٩٨٢ أهدافه المطالبة بالتعويض الذي لحق بالغجر إبان الحكم النازي, ويطالب بدمج الغجر في المجتمع الألماني مع الحفاظ على تراثه الذي مازال متمسكاً به حتى تاريخ هذا اليوم.

والغجر في أوروبا كانوا عرضة للاضطهاد الدائم منذ بداية القرن الخامس عشر, ففي إسبانيا تم تهجيرهم إلى أميركا والبرتغال, وكذلك تم تهجيرهم إلى إفريقيا, وكان الهدف من تهجيرهم هو تأمين يد عاملة في الدول الإفريقية المستعمَرة من قبل الدول الأوربية, والشيء الجمعي لدى الغجر أنهم لا يشعرون بالغربة أينما حلّوا, فهم يعتبرون الكرة الأرضية كلها موطنهم على السواء, ولا يعانون من الغربة أبداً, وللعلم فإن آخر ما طالب به الغجر في أحد المؤتمرات العالمية عبر وقفة احتجاجية, هو منع الدول من تجنيسهم وفرض الجنسية عليهم, وإسقاط الجنسية عمن مُنحوا الجنسية, فهذا ربما هو المطلب الذي يبرهن على أن الغجر ليس لهم أي مطامح في اغتناء أو ثراء, ويكتفون بما يُتاح لهم من غذاء أو ملبس, فكل ما يحتاجه الغجري هي عربة وحصان وامرأة, وبعض الحوائج التي تعينه في الصيد, ومن خلال المعلومات الواردة عن الغجر فهم يعتبرون السرقة أمراً أو فعلاً مشروعاً لهم تقوم به النساء بعد عمر محدد عادة بعد تجاوزها سن الثلاثين, والسبب الذي يرى الغجري فيه تشريع السرقة يرتكن إلى مقولة مفادها أن الجدّ الأول للغجر كان حاضراً في مهرجان صلب المسيح, وقد قام بسرقة أحد المسامير التي أُريد بها صلب المسيح, ومن تلك اللحظة شرّع الربّ للغجر السرقة, ورُفعت عنهم جميع الخطايا المتعلقة بالسرقة, والغجري الذكر لا يمارس السرقة بل يعتبرها معيبة بالنسبة للرجل وأمراً مشيناً, فالسرقة تختص بها النساء, وتقوم بها النساء ضمن شروط محددة, فلا يُسمح للغجرية أن تقوم بسرقة الفقراء, ولا يحق للغجرية أن تسرق الغجرية, ولو حدث هذا الأمر ستتعرض السارقة للعقوبة,

ولا يجوز للغجرية أن تمارس الفحشاء ولو مارستها ستنتظرها عقوبة الموت, ولا يحق لها أن تحب غير الغجري, ولا يحق لها الزواج من غير الغجري, وكذلك الغجري أيضاً لا يحق له الزواج من غير الغجرية.

الغجر في روسيا:

غجر روسيا يدعون بغجر الكلديراش, ومن خلال البحث عن تاريخ الغجر في روسيا لم نعثر على أي تمييز مورس بحقهم, سوى الاضطهاد الذي تعرضوا له في بروسيا التي تُعتبر جزءاً من الإمبراطورية الألمانية, وذلك على إثر صدور قانون يشابه القانون الذي صدر في ألمانيا النازية عام ١٩٢٧, ويبلغ تعداد الغجر في روسيا أكثر من ربع مليون عاشوا يتنقلون في أرجاء روسيا على ظهور عرباتهم وخيولهم حتى الغزو النازي للاتحاد الشوفيتي, الذي حاول بكافة الطرق أن يجعل من الغجر سكاناً يستوطنون الأرض والحدّ من ترحالهم, وقد أجمع جميع الكتّاب والمؤرخين على أن الاتحاد السوفيتي فشل في سياسته تجاه الغجر ولم تستطع الحكومة السوفيتية الحد من ترحالهم, ولكنهم إبان انهيار الاتحاد السوفيتي تعرضوا للاضطهاد وتم نعتهم بتجّار المخدرات واللصوص, غير أن أغلب الكتاب نفى تلك التهمة عن الغجر, وكان لهم حضورهم في الأدب الروسي ولا سيما الشاعر "ألكسندر بابوشكين» الذي كتب قصيدة مطوّلة عن الغجر, ويجب ألاّ يفوتنا أن نتذكر الفيلم الجميل للمخرج السوفيتي "إميل لوتيانو» سنة ١٩٧٥ (الغجر يصعدون إلى السماء) بالاستناد إلى قصة أبدعها الكاتب «مكسيم غوركي».

طقوس خاصة بالغجر:

المجتمع الغجري مجتمع محافظ على عاداته وتقاليده بالرغم من أن بعض المجتمعات رشّت عليهم بعض الصفات غير الصحيحة, فالبعض سرد عنهم أنهم يختصون بسرقة الأطفال, والحقيقة أن هذه الصبغة تنافي الحقيقة, حيث اتخذها بعض الرواة وحاكوا عليها بعض القصص البعيدة عن الحقيقة, فالغجر ليسوا بحاجة للأطفال حتى يقوموا بسرقتهم, فعندهم من الأطفال ما يكفي, بالإضافة إلى أن الغجر لا يبيعون أطفالهم, ولم يصدف في أي تحقيق ورد سرده أن الغجر يبيعون الأطفال, سوى في الروايات وبعض المسلسلات, وبعض الكتّاب والرواة اتخذهم لكتاباتهم ورواياتهم بيئة خصبة لتأليف حكاية أو قصة أو رواية أو أسطورة, والذي عُرف عن الغجري أن كل ما يطمح إليه هو أن يمتلك عربة وحصاناً قوياً, ولا تهمّه البلدان أو الدول أو الثروات الطائلة, فالغجري وُلد للترحال, ويبررون ترحالهم بعدد من الروايات منها: أن الترحال فُرض على الغجر كعقوبة من الربّ, فجدّ الغجر الذي كُلّف بحماية المسيح غفل عنه أثناء نوبة بشربه للخمر, فعوقب من قبل الربّ بالترحال الدائم, ومنهم من يردّها إلى أسطورة أخرى بأن الجد الأول للغجر هو من قام بتصنيع المسامير التي صُلب بها المسيح, وهناك أسطورة تحاكي الخليقة فتقول إن أول البشرية هم ثلاثة أولاد رُزق بهم آدم, وكان من بينهم الأبيض الذي هو جدّ الأوروبيين والثاني الأسود وهو جدّ الأفارقة والثالث هو من قام بقتل أخيه وهو جدّ الغجر, لذلك «هام» هو وذريته ندموا على أخيه المقتول.

والغجري يحافظ على زوجته وعربته واسمه حتى الممات, ووفق الإحصائيات فإن عادة الطلاق أو الانفصال الأسري قليلة بين الغجر, فالغجري على أسرته حافظٌ متعصب, وبعدها عربته وحصانه, فالعربة التي يقودها الغجري خلف حصانه لا يحق لأحد أن يركبها من بعده, فتحرق على إثر وفاته, وفيما صدف كان الغجري الذي لا يمتلك عربة يستعاض عنها بحرق الخيمة التي يسكنها, والغجري يمتلك قبراً واسعاً, فالأشياء التي يحبها الغجري ويثمنها لا يمكن أن تُترك ليستعملها من بعده أي شخص حتى أبناؤه, فكلها تُدفن

”يتوزع الغجر على وجه المعمورة في جميع أنحاء العالم بدءاً من العراق وفلسطين حتى روسيا وهنغاريا ورومانيا وفرنسا وإسبانيا والمملكة العربية السعودية ومصر. وأبرز تواجد لهم كان في فلسطين ويلقبون هناك بالنوَر, ولا يخفون أصلهم, ومنهم مثقفون بارزون, وهم يرفضون إطلاق اسم الغجر عليهم, ويعتبرون أن نسبهم يعود إلى قبيلة بني مرة العربية (قوم جساس).“

معه في قبره, وكذلك المرأة, وللغجري ثلاثة أسماء: الأول لا يعرفه غير أمه, وربما حتى هو لا يعرفه, تهمسه أمه في أذنه لحظة الولادة, ولا نعرف السرّ من وراء هذا الاسم المبهم الذي تحتفظ به الأم لذاتها, وربما هو الاسم الذي تهمس به الأم للرب, فيُعرف به عند الرب فقط, وهو الشاهد الوحيد على حقيقة هذا المولود, والاسم الثاني يُطلق على المولود ويُعرف به بين جماعته أو قبيلته, ولا يحق للغرباء من خارج الجماعة أو القبيلة الاطلاع عليه, وأما الاسم الثالث فيُعرف به الغجري بين العامة من خارج الجماعة أو القبيلة, والحقيقة لو بحثنا عن سرّ هذه الأسماء سنقف أمامها محتارين, فالثاني ربما يُعتبر اسماً سرياً يُعرف به الغجري بين جماعته فقط, وهو كما الاسم الحقيقي, أما الثالث فربما هو اللقب الذي يُعرف به لدى العامة.

وفي بلغاريا يدعى الغجر بعشيرة الروما, وهم قوم محافظون لا يزوّجون الغير, لهم موسم خاص بالزواج في مكان متفق عليه حيث تتجمّل الفتيات والشبان بصحبة الأهل, وهناك يباح اللقاء بين الفتيان والفتيات ويتم الاختيار بين الفتاة والشاب بالاتفاق, وللعلم فإن الفتاة الغجرية يجب أن تحافظ على عذريتها من أجل عريسها, وفي حال وقع غير ذلك فإن الفتاة نصيبها سيكون مجهولاً ويُترك للأقدار.

الغجر في الأدب العالمي:

ربما أول عمل أدبي يقفز إلى ذاكرتك من خلال العنوان أعلاه, هي رواية ماركيز «مئة عام من العزلة», ذلك الكاتب الأمريكي اللاتيني الذي رصد من خلال روايته حياة الغجر وهم يتعربشون بعرباتهم, يمارسون طقوسم ومهنتهم في قراءة الطالع لكل فرد من القرية التي حاك ماركيز خيوط روايته من حولها, ورسم طالع القرية عبر مدوّنة من قبل الغجري الحكيم الذي يتنبأ بمستقبل القرية.

رواية «أحدب نوتردام» لفيكتور هوغو الكاتب الفرنسي الذي تطرّق للغجر راسماً ملامح شخصياته من خلال وصفه للغجر, بذات الصفة التي عرفها الأوروبيون عن الغجر في خطفهم للأطفال من خلال شخصية الراقصة ”أزميراليدا» الطفلة التي تم خطفها من قبل الغجر, وربما أراد فيكتور هوغو أن يرسم مصير بطلة روايته أزميراليدا كما يريده الفرنسيون أن يعرفوه عن الغجر كخاطفين للأطفال, وتظهر روح بطلته الإنسانية بردّها إلى المجتمع الفرنسي بعيداً عن الغجر, وربما لو أبقى الكاتب بطلته الإنسانية في ذات المجتمع الغجري لحمل بعض العبء عن ذلك المجتمع.

رواية «الغجرية» للكاتب الإسباني «سرفانتس» حيث يسرد الكاتب حياة الغجر من خلال بطلة الرواية بريثيوسا ويتطرق لحياة الغجر في ترحالهم الدائم.

ورواية واسيني الأعرج ”الغجر يحبون أيضاً» التي تتحدث عن المحرقة النازية بحق الغجر.

ومن خلال الاطلاع على معظم ما كتبه من كتّاب وأدباء عن الغجر, فقد أظهروهم على أنهم قوم لصوص وأصحاب نزعة شريرة وهمجية ويسرقون الأطفال, والحقيقة أن هذا الإظهار للغجر هو عبارة عن تسويق للمادة الأدبية على حساب شعب بعيد كل البعد عمّا يذهب إليه معظم الأدباء والكتّاب, حتى إني اطّلعت على رواية حديثة الصدور يقول فيها الكاتب وهو يتحدث على لسان زوجة الأب التي تريد التخلص من ابنة زوجها: «قدمت الطفلة للغجرية العجوز وقالت لها: خذوها واذبحوها واجعلوها عشاء لكم, فنظرت الغجرية إلى نحافة الطفلة فرفضت شراءها".

أظن أن الكاتب أراد سرد شيء خيالي على حساب شعب فقير ومشرّد, ويريد إظهار الغجر على أنهم قوم يأكلون الأطفال, والحقيقة أن هذا كله يجري في القرن الحادي والعشرين, ومن المعيب على أي كاتب أن يسوّق مادته على حساب شعب عريق وأصيل, ومن المؤكد أن بعض الكتّاب ذهب إلى إظهار حقيقة الغجر, وتحدث عن منجزاتهم وخدماتهم للبشرية, ومَن يستطيع أن يتناسى رقصة الفلامينكو و كمنجات إسبانيا وقيثارة هنكاريا, وهناك من الكتّاب الذين اهتموا بحياة الغجر وكتبوا ما رأوا من المجتمع الغجري, ومنهم الكاتبة البولندية "بروفسلافا واجس بابوسا" التي رصدت حياة الغجر على حقيقتها, فبدأت بدراسة الأسلوب المنفرد للغجر في رقصهم على أنغام القيثارة وغنائهم الفطري والشفوي, وقصصهم وأشعارهم التي جمعت كل ما يخص الغجر من تراث وزيّ وحكايا في كتاب.

وكذلك رصد الكاتب الصربي «راد آوليك» أشعار الغجر وجمعها في كتاب وقدمها للبشرية, وربما الكل يعي الرسالة التي قدمها الغجر للبشرية, في نقلهم للفن من شعب إلى شعب أخر ودمجه مع بعضه البعض حتى نتج لون جديد من الفن.

عَلَم الغجر:

تم تأسيس العلَم الغجري واختيار ألوانه وشعاره عام ١٩٣٣ وصدّق عليه المؤتمر الدولي عام ١٩٧١ واعتُبر علَماً خاصاً بالغجر.

للغجر كما للشعوب الأخرى علمهم الخاص بهم, وألوانه من الأعلى للأسفل: الأزرق والأخضر ويتوسّطه دولاب عربة خشبي باللون الأحمر, وربما الأزرق يرمز للسماء التي يعتبرها الغجر غطاءً لهم, واللون الأخضر يرمز للربيع والحياة والبحث الدائم عن الأرض المعشوشبة, ودولاب العربة رمز للترحال الدائم تحت السماء سعياً وراء الأرض الطافحة بالعشب والحب الدائم للحياة, وربما تغير الأمر مع الغزو المادي للحياة.

يقول الغجري:

سيد المصابيح الزرق...

لم تعد تسكرني الدروب والجبال بعريها الخريفي...

لم تعد تتفايض الأقداح بنشوتها... ولم تعد الأنغام تراقص أعراف الخيل وسروجها ولم تعد الدروب هي الدروب... والسماء ليست كالسماء في شروقها وغروبها وأنا أشكُّ بأنا...

تبسّمت سيدة الوداع المفلطح فنثرته وقالت :

إذاً: لم تعد تعرف أوداجك المنتفخة بجرعة الحزن على مفترق الدروب ولم يبقَ منك إلا هيكل رابض في مكان لا يتّسع لغيرك

شاحت بوجهها ولملمت مناثيرها وتوشحت غرابيلها ومضت عنه...

الحضارة الإسلاميّة وتلاقحها مع الحضارات الأخرى

جميل رشيد

تمهيد

ينقسم الباحثون في العالم الإسلاميّ بين اتّجاهين فكريّين، حيال تأثّر الحضارة الإسلاميّة بمثيلاتها من الحضارات الإنسانيّة الأخرى، وخاصّة الغربيّة والفارسيّة منها. ففي حين يرى قسم منهم أنّ الحضارة الإسلاميّة لم تَشْبها شائبة، على العكس ظلّت تُلقي بآثارها على الحضارات الأخرى وطبعت مرحلة معيّنة من التّاريخ بطابعها الخاص، من حيث الإنتاج الفكريّ والإبداع والفنون الأدبيّة والعلوم التطبيقيّة الأخرى كالطِّبّ والهندسة والفلك والفيزياء والكيمياء، وذلك حينما كانت تمثّل مركز القوّة السياسيّة والاقتصاديّة في العالم وتسيطر على طرق التّجارة العالميّة، كطريق الحرير وباب المندب.

هذا في حين ينظر عدد آخر من الباحثين والمفكّرين العرب والأجانب، أنّ الحضارة الإسلاميّة انغلقت على نفسها ولم تتجرّأ على فتح الأبواب على مصراعيها أمام تطوّر الفكر والعلوم، من خلال تلاقحها مع الحضارات الأخرى وتبادل الخبرات والمعارف معها، بل ظلّت أسيرة النّصوص الدّينيّة وفتاوى رجال الدين، التي رسمت دوائر من المحرّمات حول كلّ ما من شأنه أن يطوّر مَلَكَة البحث العلميّ والفكريّ لدى المهتمّين بالفكر والعلوم، واعتبرت أنّ الأخذ بأسباب التطوّر العلميّ، إنّما يُعتبر كفراً ويستوجب إنزال عقوبة القتل بصاحبه، وهو ما حصل للعديد من العلماء الذي أخضعوا حتّى النّص الدّينيّ لتحكيم العقل والتحليل المنطقيّ، فيما تعرّض عدد من العلماء في مجال الطِّبِّ والهندسة والفلك لاتّهامات بالزندقة والهرطقة، أودت بهم إلى تنفيذ حكم الإعدام بهم وتقطيع أوصالهم وحرقهم، مثل «الرّازي وشعراء المعتزلة وأبو منصور الحلّاج» وغيرهم، مثلها مثل القارّة الأوروبيّة التي عانت من أحكام الإعدام التي تعرّض لها العلماء في ظلّ حكم الكنيسة في القرون الوسطى التي ساد فيها الظلام.

غير أنّ الحضارة الإسلاميّة لم تتمكّن أن تنأى بنفسها عن مؤثّرات الحضارات الأخرى القريبة منها جغرافيّاً وحتّى البعيدة، فلا يمكن قطع الانسيابيّة التّاريخيّة والتسلسل الزّمنيّ له وفق تصوّرات ورؤى ورغبات معيّنة، أو إخضاع حضارة برمّتها لأهواء ومصالح السُّلطات، دينيّة كانت أو غير ذلك. فالعلوم والأفكار لا تعرف المُحرّمات والحدود التي وضعها لها البشر، بل تسير في ثنايا العقل البشريّ، باعتبارها أوّلاً وأخيراً نتاج العقل وليست مجرّدَ نقل عن آخر يميّزه عنه. والحضارات، وبغضّ النّظر عن الزّمان والمكان، دائمة التّفاعل فيما بينها، ولا نهمل العنصر الإيديولوجيّ المُغلّف لها، إلا أنّها في ذات الوقت تحمل في جوهرها قوّة كمونيّة، تتجاوز في أبعادها الإنسانيّة كلَّ الموانع أو حالات الاحتكار، فهي دائمة البحث عن آفاق رحبة وتنتقل من مكان إلى آخر، كجزء من العمليّة المعرفيّة التي ولدت، بالفطرة، مع الإنسان.

إنّ الخوضَ في موضوع تأثّر الحضارة الإسلاميّة بغيرها من الحضارات الأخرى، لَهُوَ موضوع أبحاث طويلة وشائكة، ويكتنفها العديد من المسائل والقضايا التي لا تزال بحاجة إلى تسليط الضوء عليها، وإزالة كافّة المؤثّرات الدّينيّة والقوميّة عنها، والتي تشكّلت فيما بعد، ويتطلّب في البداية التحرّر من القيود الدّينيّة، والتحلّي بنظرة وقدر كافٍ من الموضوعيّة، وعدم الانحياز لأيّ من الأطراف التي تَدّعي امتلاكها كلّ العناصر المُولّدة والمُنتِجَة للحضارة دون سواها، وكذلك عدم الوقوع في أفخاخ دُعاة الاستئثار بالعلوم والمعارف والفكر، وأنّ الآخرين نهلوا من "معارفنا وعلومنا"، ولم نتأثّر قطّ بحضارات الآخرين.

سنتناول في دراستنا المُقتضبة هذه، تأثير الحضارات الأخرى على الحضارة الإسلاميّة، وخاصّة في العصر العبّاسيّ، الذي شهد انفتاحاً على الحضارات الأخرى، وخاصّة اليونانيّة والفارسيّة، وتشكّل مدارس عديدة في الترجمة والفلسفة وتدوين التّاريخ والعلوم الأخرى. فالنقل المباشر لأفكار أفلاطون وأرسطو وهيرودوت وغيره من المفكّرين والفلاسفة اليونانيّين، كان بداية نشوء حركة فكريّة أخضعت كلّ ما كان يُعتقد أنّه من المُسلّمات لمنطق المحاكمات العقليّة والمنطقيّة، وخلقت مناخاً فكريّاً قطعت مع النّسق التّاريخيّ السائد منذ قرون في المنطقة، من حيث إقحام العلوم والمعارف ونشرها بين العامّة، والارتقاء بها وتطويرها، دون إسقاطها إسقاطاً ميكانيكيّاً على واقع الشرق المُثقل بالدوغمائيّات والإيديولوجيّات الدّينيّة، والتي تحوّلت إلى سلطة أحكمت قبضتها على مجتمعاتها.

سنحاول قدر الإمكان أخذ الموضوع في سياقه التّاريخيّ، دون الانحياز لأيٍّ من الاتّجاهات الفكريّة التي تدّعي أحقيّة امتلاكها لكلّ عناصر الحضارة دون سواها، أو تلك التي تنسف كلَّ ما هو آتٍ من الخارج، وتتّهم الآخرين بتهم جزاف،

من قبيل الانسياق وراء الغرب أو رفض كلّ ما هو غربيّ.

بداية العصر العبّاسيّ الأوّل وتأثُّره بالثّقافات الأخرى

بدأ العصر العبّاسيّ الأول، وفق تصنيف علماء التّاريخ من عام (٧٥٠) ميلادي وانتهى عام (٨٦١) ميلادي، وذلك بعد أن أطاح «أبو مسلم الخراساني/ الكرديّ الأصل» وبالاشتراك مع «أبو العبّاس»، الذي سُمّي بـ»السفّاح»، بسلطة الأمويّين، عندما قتلوا آخر خلفاء بني أميّة «مروان الثّاني بن محمّد» والذي أطلق عليه اسم «الحمار» لجهله بأمور الحكم وإدارة البلاد.

بعد أن استتبّ الحكم لصالح العبّاسيّين، عمدوا إلى تصفية جميع خصومهم، وخاصّة سلالة بني أميّة، فيما فرّ أحدهم إلى الأندلس وأقام هناك ولاية خاصّة به، بعيدة ومستقلّة عن سلطة العبّاسيّين.

شهد العصر العبّاسيّ الأوّل حركة فكريّة ونقلاً للعلوم والمعارف من الحضارات الأخرى، وتطوّرت اللّغة والعلوم والموسيقى تطوّراً ملحوظاً، وذلك بدعم من الخلفاء العبّاسيّين.

إنّ نقل عاصمة الخلافة الإسلاميّة من دمشق إلى الكوفة، ثمّ الأنبار وبعدها إلى بغداد التي شيّدها الخليفة المأمون إلى أنّ نقلها المعتصم إلى مدينة «سامراء» التي سُمّيت حينها باسم «سُرَّ من رأى». هذا التغيير هو في حدّ ذاته يعتبر نقلة نوعيّة في مفهوم الحكم الإسلاميّ. وبالتّالي انتقالها من حالة الخلافة إلى "الدّولة" بكامل أركانها المعروفة؛ يمثّل انفتاحاً على الحضارات الأخرى وخروجاً من الإطار الإيديولوجيّ الضيق وحالة الانغلاق التي مرّت بها الحضارة الإسلاميّة في العهدين الرّاشدي والأمويّ، حيث تغلغلت العديد من الثّقافات في عَضُد الدّولة العبّاسيّة، الذي أخذ أشكالاً متعدّدة، ولأوّل مرّة في التّاريخ الإسلاميّ تمّ تعيين وزراء للعسكر والمال (الخزينة) وتأسيس

> **انغلقت الحضارة الإسلاميّة على نفسها ولم تتجرّأ إلى فتح الأبواب على مصراعيها أمام تطوّر الفكر والعلوم، بل ظلّت أسيرة النّصوص الدّينيّة وفتاوى رجال الدين، التي رسمت دوائر من المحرّمات حول كلّ ما من شأنه أن يطوّر مَلَكَة البحث العلميّ والفكريّ لدى المهتمّين بالفكر والعلوم، واعتبرت أنّ الأخذ بأسباب التطوّر العلميّ، إنّما يُعتبر كفراً ويستوجب إنزال عقوبة القتل بصاحبه، وهو ما حصل للعديد من العلماء الذي أخضعوا حتّى النّص الدّينيّ لتحكيم العقل والتحليل المنطقيّ**

جهاز مختصّ للقضاء، ينزع نوعاً ما إلى الأخذ بالقوانين الوضعيّة المُستقاة من القانون اليونانيّ والفارسيّ، حسب بعض المؤرّخين أمثال المسعوديّ والطبري وغيره من مؤرّخي تلك الفترة.

كما أنّ التوسّع الجغرافيّ للدّولة العبّاسيّة، ودخول أقوام وثقافات أخرى إلى الإسلام، ولّد معه عمليّة تبادليّة للثّقافات التي تحملها وتمثّلها، فضلاً عن تأثُّرها بالإسلام كدين وثقافة، ونقلت معها موروثها من العادات والتّقاليد والعلوم والمعارف، لتضعها في خدمة الدّولة العبّاسيّة، إن كان بشكل مباشر، عبر فتح مدارس بلغاتها الأم ضمن ما كان يُسمّى حينها بأراضي «الدّولة العبّاسيّة»، أو من خلال ترجمتها إلى اللّغة العربيّة. ولم تتمكّن الحركة المعارضة لعمليّة التّلاقح الثّقافيّ بين الحضارات من لجم الشغف الكبير لدى العامّة والنُّخب الثّقافيّة والعلميّة حينها من نقل ما يدور حولهم والقبول بالعيش ضمن قوقعتهم فقط. فأمثال الغزالي وفتاوى ابن تيميّه لم تَعُدْ لها تلك

القيمة أمام نشر آخر ما توصّلت إليه الفلسفة الإغريقيّة والهنديّة والعلوم الفهلويّة، بل على العكس تماماً شهدت الفترة الأولى من العصر العبّاسيّ في عهدي «الرّشيد وابنه المأمون» دعماً وتشجيعاً للعلماء والفلاسفة حتّى أطلق على عهدهما اسم "العصر الذّهبيّ».

ولقد ساهم الرّوم والسُّريان والفرس ممّن عاشوا بين ظهراني الدّولة العبّاسيّة في نقل وابتكار اختراعات جديدة ومفيدة للدّولة، بعد أن أسقطت الدّولة العبّاسيّة كافّة القيود عن عمليّات النّقل والترجمة، وانتقال الأفراد بحُرّيّة من وإلى كافة الأمصار والبلدان التي شهدت قفزات كبيرة في مجالات العلوم والفكر والفلسفة. ففي مجال الرّياضيّات؛ نقلت إلى العربيّة نظريّات «فيثاغورث وتالس» في الهندسة والجبر والفيزياء، بل أضيف إليها من قبل "ابن الهيثم".

حركة التّرجمة ونقل العلوم في العصر العبّاسيّ

الطفرة التي شهدها العصر العبّاسيّ الأوّل في مجال حركة التّرجمة ونقل العلوم والمعارف من الحضارات المعاصرة لها أو تلك التي سبقتها، وضعتها على أعتاب مرحلة جديدة زاخرة بالحركة والحيويّة الفكريّة والمعرفيّة، وأطاحت بالعديد من التّابوهات السّائدة حينها، فرغم المخاطر التي حملت معها من خلال احتكاكها بالثّقافات الأخرى، عبر تغلغل عناصر طمحت للوصول إلى السلطة بشكل مضمر، إلا أنّها تطوّرت بكلّ قوّة وانتشرت بشكل واسع.

فالتّفاعل الحضاريّ بين الشّعوب في مجالات العلوم والفلسفة، فجّر الطّاقات الكامنة لدى المهتّمين بها، فأضافوا إليها إبداعات جديدة. ففي مجال اللّغة؛ تأثرت اللّغة العربيّة، التي هي لغة القرآن الكريم، باللّغات الفارسيّة واليونانيّة وحتّى الإسبانيّة، حيث أدّى إلى ازدهار اللّغة العربيّة، ودخلت العديد من المصطلحات إليها، مثل كلمة «بيمارستان» الفارسيّة الأصل، والتي تعني «المستشفى»، وكذلك «عمق» الدّارجة والمتعارف عليها على أنّها كلمة عربيّة، غير أنّها مأخوذة من الكلمة السُّريانيّة «عمقو». وكذلك قال أحد الشعراء العرب في الأندلس قصيدة باللّغة العربيّة، إلا أنّ كلماتها كانت إسبانيّة، حينما قال: أَلْتُ ديّا.. أَش نُديّا..». فيما ظهرت مصطلحات جديدة، بعد أن تمّ ترجمتها إلى العربيّة، مثل «الجوهر، الحدّ، الجبر، العنصر، الترياق، النظريّة، الفرضية، البرهان، ..»، وهو ما شكّل ردّة فعل لدى الشاعر البُحتري لأن يقول: «أراكم تتكلّمون بكلامنا، في كلامنا، بما ليس في كلامنا».

ويذكر العديد من الباحثين تأثير اللّغات الوافدة إلى الدّولة العبّاسيّة أثناء الخلط مع الأقوام والشّعوب الأخرى، ما أدّى إلى نشوء اللّهجات المحلّيّة في العربيّة، أي أنّ الجذر اللّغويّ للّهجات هو ما ظهر من دخول كلمات ومصطلحات أجنبيّة إلى اللّغة العربيّة خلال الفترة الأخيرة من العصر العبّاسيّ الثّاني وسيطرة عناصر غير عربيّة مقاليد الإدارة والحكم فيها. ويذكر الكاتب «محمّد الخضريّ» في كتابة «الدولة العبّاسيّة» أنّ «الاختلاط بين الشعوب، وبشكل تدريجيّ، أدى إلى نشوء اللّهجات المحلّيّة في العربيّة، خصوصاً خلال عهد الدّولة المتأخّر». ويضيف «إنّ سبب نشوء اللّهجات واختلافها يعود إلى اللّغات التي كانت سائدة من قبلُ؛ فتأثّرت اللّهجات الشّاميّة والعراقيّة بالسُّريانيّة، واللّهجة المصريّة بالقبطيّة، أمّا لهجات المغرب العربيّ فقد تأثّرت باللّغتين الأمازيغيّة والبربريّة».

وفي مجال فنون العمارة، استقى المعماريّون العبّاسيّون أنماطاً من العمارة الآشوريّة، وكذلك الفارسيّة التي جاورهم، فاشتهرت العاصمة العبّاسيّة الجديدة «بغداد» بالأبنية والعمارات ذات الطراز المعماريّ الآشوريّ والفارسيّ على وجه الخصوص، واعتمدوا على الفسيفساء والزّخرفة البيزنطيّة في تزيين قصور الملوك والسّلاطين والخلفاء، فيما اعتمدوا النّموذج الدّائريّ في البناء، واستخدام الحجارة بدلاً

من الطين والآجر. وبرز النحّاتون الفرس في إضفاء الطابع الفارسيّ على مجمل العمارات في أرجاء الدّولة العبّاسيّة، بعد الامتداد الفارسيّ داخلها عن طريق التبعيّة المذهبيّة الشيعيّة، التي لاقت انتشاراً واسعاً لها إبّان العصر العبّاسيّ، لا بل حتّى في مجال الموسيقى أيضاً؛ حيث تأثّرت الموسيقى العربيّة بالفارسيّة والكُرديّة، حسبما يذكر «الطبري» في كتابه «تاريخ الأمم والملوك».

ويذكر «الطبري» في كتابه «أنّ الخليفة العبّاسيّ «المأمون» أحبَّ غناء «سلمك الفارسي»، فيما كان يروق له سماع الغناء الإغريقيّ اليونانيّ أيضاً، حيث أمر بترجمة الأصول النظريّة للموسيقى إلى العربيّة؛ فشكّل بذلك أساس العلوم الموسيقيّة النظريّة لدى العرب والمسلمين. فيما يَرِدُ ذكر الموسيقار «زرياب» الكُرديّ الأصل الذي طوّر آلة العود بأن أضاف إليها أوتاراً جديدة، بعد أن اخترعه الكُرديّ الموصليُّ المسيحيّ «إسحق الموصليّ».

وعلى هذا الأساس تؤكّد العديد من الدّراسات الموسيقيّة الحديثة والقديمة أنّ «الموسيقى العربيّة قد تمازجت واختلطت بأنواع الموسيقى السُّريانيّة والفارسيّة، وشكّلت معها مزيجاً متماسكاً وجديداً حتّى القرن العاشر، حين أدخلت وفود قبائل السّلاجقة والأكراد الآلات النفخيّة، كالناي، وأخذت تحلّ مكان الآلات الموسيقيّة الوتريّة، التي كانت العماد الرّئيسيّ للموسيقى العربيّة، ما دفع عدداً من المؤرّخين لإبداء استيائهم من هذا التغيّر».

من جانب آخر ازدهرت حركة الترجمة ونقل الكتب من اللّغات الأجنبيّة إلى اللّغة العربيّة، فتُرجِمت كتب «إقليدس» في الرّياضيّات والفلسفة، وكذلك فيزياء وكيمياء العناصر، ونظريات «أرخميدس وبطليموس» وغيرهم من علماء الغرب في الطُبّ والرّياضيّات والهندسة، وباتت تُدرّس في التكيّات (المدارس حينها) وفي دور العلم والمعرفة المنتشرة بكثرة في كافّة أقاليم الدّولة العبّاسيّة.

”التوسّع الجغرافيّ للدّولة العبّاسيّة، ودخول أقوام وثقافات أخرى إلى الإسلام، ولّد معه عمليّة تبادليّةٍ للثّقافات التي تحملها وتمثّلها، فضلاً عن تأثُرها بالإسلام كدين وثقافة، ونقلت معها موروثها من العادات والتّقاليد والعلوم والمعارف، لتضعها في خدمة الدّولة العبّاسيّة، إن كان بشكل مباشر، عبر فتح مدارس بلغاتها الأم ضمن ما كان يُسمّى حينها بأراضي ”الدّولة العبّاسيّة“، أو من خلال ترجمتها إلى اللّغة العربيّة“

يُعدُّ «عبد الله بن المقفع» أوّل من اعتنى بالترجمة، حين نقل من «البهلويّة» أو «الفارسيّة» القديمة، كتاب «كليلة ودمنة»، إلى اللّغة العربيّة. كما ترجم أيضا كتابا فارسيّاً يُدعى «خدينامه»، يتحدّث عن تاريخ ملوك الفرس، ثمّ غيّر اسم الكتاب وأطلق عليه اسم «سِيَر ملوك العجم».

لكنَّ اللّافت في حركة الترجمة حينها، أنّها كانت تتمّ على أيدي من يُسمّيهم المسلمين «الأعاجم»، أي من غير العرب، نظراً لأنّ العرب لم يجيدوا اللّغات الأخرى كالفارسيّة والإغريقيّة والفهلويّة والكُرديّة، وغالباً ما كانت الكتب تترجم على أيدي السُّريان، حيث كانت تترجم إلى اللّغة السُّريانيّة ومن ثمّ إلى العربيّة، مثل كتب «أرسطو وأفلاطون». هذا فيما شاعت أسماء عدد من المدن في العصر العبّاسيّ الأوّل واشتهر اسمها بحركة التّرجمة مثل «بُخارى وجُنْدَيْسابور والرّها/ حرّان/ أورفا“.

كما يذكر ”ابن العبري“ في كتابه

عندما غزا الإسكندر المقدونيّ مناطق الشرق، كان يرافقه دائماً الفيلسوف «أرسطو»، إضافة إلى المؤرّخ «كزنفينون» وآخرين من فلاسفة وعلماء مقدونيا، وأنّ «الإرث الذي حمله الإسكندر ساهم في التّمازج الثّقافيّ الذي خلقته فتوحاته، فقد تمكّن من خلط الثّقافة الإغريقيّة الهلينيّة بالثّقافات الشّرقيّة المختلفة للشعوب الخاضعة له. كما أدّى إنشاؤه للمستعمرات الإغريقيّة الكثيرة في طول البلاد وعرضها، إلى خلق حضارة هلينيّة جديدة، استمرّت مظاهرها بارزة في تقاليد الإمبراطوريّة البيزنطيّة حتّى منتصف القرن الخامس عشر».

"تاريخ مُختَصر الدّول"، أنّ "حُنين بن إسحق" وهو "نسطوريّ"، "يُعدُّ من أعظم مترجمي مدرسة "جُنْدَيْسابور"، حيث اختصّ بترجمة العلوم والكتب من اللّغة اليونانيّة إلى العربيّة، رغم أنّه تعلّمَ العربيّة في سنٍّ متأخّرة". ثمّ يضيف أنّ "ثابت بن قره"، الكُرديّ المنحدر من "حرّان"، برع في ثلاث لغات؛ اليونانيّة، السُّريانيّة والعربيّة، وترجم إلى العربيّة وألّف ما يربو إلى مائة وخمسين كتاباً في المنطق والرّياضيّات والفلك والطِّبّ، وخمسة عشر كتاباً آخر بالسُّريانيّة".

ويذكر الكاتب "كريم الهاني" في مقالة له تحت عنوان "حركة التّرجمة في العصر العبّاسيّ" أنّ الكاهن المسيحيّ "يوسف الخوري" الذي ترجم، نحو عام ٩٠٨ م، كتاب "أرشميدس في المثّلثات"، قبل أن ينقّح "ثابت بن قره" هذه التّرجمة لاحقاً، كما ترجم كتاب "جالينوس" في الأمزجة والقوى البسيطة، وقد نقّحه "حُنين" فيما بعد". وأضاف أنّ مسيحيّاً سُريانيّاً يُدعى "قسطا بن لوقا البعلبكيّ" ترجم كتباً "لإبسقلاوس، وكتاب "الكرويّات لثيودوسيوس"، وأيضاً نقّحه "ثابت بن قره" لاحقاً.

أهميّة «الفتوحات» في نقل العلوم والمعارف

ساهمت الحروب التي شنّها المسلمون على بلاد الغرب تحت اسم «الفتوحات»، إلى نقل علومها ومعارفها إلى بلدانهم، وساعدت "الفتوحات الإسلاميّة" في الحصول على مراكز علميّة بارزة آنذاك، شكّلت أساساً لانطلاقة علميّة كبيرة وبارزة في البلدان الإسلاميّة والمشرق عموماً.

ويسهب الكاتب «كريم الهاني» في مقالة أخرى له تحت اسم «أهمّ المراكز العلميّة التي غزاها العرب»، يتحدّث فيها عن أهميّة الفتوحات الإسلاميّة في نقل العلوم والمعارف، ويعتبرها أنّها كانت المفتاح في انتقال العلوم اليونانيّة إليهم. ويعدّد إحدى أسبابها الكثيرة، وفق قوله، بأنّ «ما تُسمّى بـ»الفتوحات الإسلاميّة» لم تكن مجرّد حركة توسّعيّة في الجغرافيا... سرعان ما سيدرك العرب بعدها، أنّهم حازوا على مدن في البلاد "المفتوحة"، كانت مراكز علميّة جدّ مهمّة آنذاك».

وبرز في خضمّ «الفتوحات» التي قام بها المسلمون، بعد أن وصلت إلى حدود الصّين وفرنسا، أنّ تلك الدّول شهدت نهضة علميّة متقدّمة عليهم، قد نهلوا من معارفها وعلومها، كما نقلوا قسماً من مدارسها إلى بلدانهم، فضلاً عن ترجمة الكثير من الكتب والمراجع العلميّة، بعد أن كانت تلك البلدان قد قطعت شوطاً كبيراً في عمليّات البحث العلميّ وتطوّر الفكر الفلسفيّ الذي انطلق من أثينا وتطوّر خلال سيطرة الإمبراطوريّة الرّومانيّة في الغرب والبيزنطيّة في الشرق.

ويذهب عدد من الباحثين إلى الاعتقاد أنّ الحروب الصليبيّة، التي يُسمّيها البعض «حروب الفرنجة» مثل الدّكتور في التّاريخ واللّغات الميّتة

البروفيسور «محمّد محفّل»، وأنّها لم تمثّل رغبات وتوجّهات الكنيسة الكاثوليكيّة آنذاك، بل مثّلت حرباً للسيطرة على البلدان بطابع ولَبوس دينيّ مسيحيّ، ولا يمكن بطبيعة الحال إسقاط صفة الاحتلال عنها، يدّعي أنصار هذا التوجّه أنّ الحروب الصليبية نقلت معها كثيراً من معارف وعلوم الغرب إلى الشرق.

ويرد في كتب التّاريخ أنّ «الإسكندر الكبير المقدونيّ"، وعندما غزا مناطق الشرق، كان يرافقه دائماً الفيلسوف «أرسطو»، إضافة إلى المؤرّخ "كزنفينون" وآخرين من فلاسفة وعلماء مقدونيا، وأنّ "الإرث الذي حمله الإسكندر ساهم في التّمازج الثّقافيّ الذي خلقته فتوحاته، فقد تمكّن من خلط الثّقافة الإغريقيّة الهلينيّة بالثّقافات الشّرقيّة المختلفة للشعوب الخاضعة له. كما أدّى إنشاؤه للمستعمرات الإغريقيّة الكثيرة في طول البلاد وعرضها، إلى خلق حضارة هلينيّة جديدة، استمرّت مظاهرها بارزة في تقاليد الإمبراطوريّة البيزنطيّة حتّى منتصف القرن الخامس عشر".

يبدو أنّ التاريخ يكرّر نفسه مرّات عديدة، فأثناء حملة نابليون بونابرت على مصر عام (١٧٩٨ – ١٨٠١)، حملت معها اكتشافات علميّة في مصر، فقد لازم عالم الآثار "شامبليون" بونابرت في حملته، واستطاع أن يفك لغز الكتابة على "حجر الرشيد" الذي لم يكن معروفاً حتى حينه، وكانت المفتاح لاكتشاف العديد من آثار الفراعنة في مصر. كما ساهمت حملته التي لم تدم طويلاً، في فتح "قناة السويس" عام (١٨٦٩)، بعد أن أوفد نابليون بونابرت المهندس "فرديناند دي لسبس" على رأس وفد هندسيّ إلى مصر، وتمكّن خلال عشر سنوات من العمل أن يوصل البحر الأحمر مع الأبيض المتوسّط عبر قناة قرب مدينة السّويس سُمّيت فيما بعد بـ"قناة السّويس"، والتي شكلاً عصباً حيويّاً هامّاً في التّجارة الدّوليّة، وإلى يومنا هذا.

ويؤكّد العديد من الباحثين أنّه تشكّلت عبر التّاريخ عدد من المدن التي اعتبرت مراكز علميّة هامّة في التّاريخ الإسلاميّ، وذلك قبل أن تنتقل إلى حكم المسلمين. «فمدينة "جُنْدَيْسَابور" التي غزاها العرب المسلمون في خلافة عمر بن الخطّاب، وكانت عاصمة لإقليم خوزستان الفارسيّ، برزت كمركز مهمّ للثّقافة اليونانيّة في بلاد فارس، على عهد الإمبراطور السّاسانيّ "كسرى أنو شروان". وكان "كسرى" معجباً بالثّقافة الهيلينيّة، رغم عدائه للبيزنطيّين، حتّى إنّ معاصره، الإمبراطور البيزنطيّ "جستنيان الأوّل"، إذ أغلق مدرسة أثينا الفلسفيّة، كان هو يرحّب بأساتذتها في إمبراطوريّته".

فيما تعتبر مدينة "أنطاكية" مركزاً مهمّاً للعلوم الفلسفيّة الإغريقيّة، وليس فقط مركزاً للكنيسة الشّرقيّة. ويشير عدد من المؤرّخين أنّ "أنطاكية"، التي تقع اليوم في تركيّا، "كانت مسرحاً لصراع طويل بين البيزنطيّين والفرس، قبل أن يضع المسلمون حدّاً لذلك بغزوها في خلافة عمر بن الخطّاب"، وأنّها «شكّلت مركزاً مهمّاً للثّقافة اليونانيّة في شمال بلاد الشام آنذاك، وكانت تهتمّ بالفلسفة اليونانيّة عامّة، وفلسفة أرسطو ومنطقه بشكل خاص".

ويؤكّد المؤرّخون أنّ "أنطاكية" ظلّت محتفظة بمكانتها المتميّزة في الثّقافة حتّى بعد انتقال المركز إلى مدرسة الإسكندريّة ودمشق في فترة الحكم الأمويّ، وبعدها تبوّأت مدينة "حرّان" هذه المكانة على عهد الخليفة العبّاسيّ "المتوكل"، كامتداد لما حظيت به المدينة من أهميّة علميّة، وكذلك المدينة المجاورة لها "نصيبين" حتّى قبل العصر العبّاسيّ، رغم الخلاف بين النّساطرة السُّريان والبيزنطيّين. كانت الدرّاسات اليونانية متقدّمة في هذه المنطقة بأسرها، بخاصّة في "حرّان"، التي أطلق عليها آباء الكنيسة اسم "هيلينو بوليس"؛ أي مدينة "اليونانيّين الوثنيّة".

ويذكر الكاتب "كريم الهاني" أنّ "حرّان" ترتبط تاريخيّاً بالصابئة الوثنيّين، وظلّت كذلك لقرون عديدة بعد "الفتح الإسلاميّ"، كما ظلّت

ترعى التراث اليونانيّ وتشجّعه.

وينقل أستاذ التّاريخ الإسلاميّ بكليّة دار العلوم بالقاهرة، عبد الرّحمن أحمد سالم، عن الفيلسوف الإنكليزيّ "برتراند راسل" قوله، "إنّ الفلاسفة العرب وجّهوا اهتماماً خاصّاً لمنطق أرسطو، بعدما ترجم النّساطرة إلى السُّريانيّة أعمال الفلاسفة اليونانيّين وشرّاحها، ذلك أنّ قدراً من المعرفة بهؤلاء كان ضروريّاً لفهم اللّاهوت".

هذا في حين يرى لمعارضون لمنهج التّواصل العلميّ والفكريّ بين الحضارات والشّعوب، أنّ الحضارة الغربيّة نهلت من معارف المسلمين، وجيّرتها لصالحها، لتُعيد إنتاجها وفق صيغ غربيّة، تنكّرت لدور المسلمين وشعوب الشّرق في اختراعها. وظهر هذا التوجّه المتشدّد على أيدي عُلاة المسلمين، الذين اعتبروا أنّ كلّ ما يَصدُر من الغرب هو "كفر"، يحيد المسلمين عن معركتهم الأساسيّة في نشر رسالة الإسلام عبر "الجهاد المقدّس"، وأنّ كلّ العلوم والمعارف مصدرها القرآن الكريم والسُنّة النبويّة الشريفة.

ومثّلَ التيّار السُنّي، الذي يدّعي أنّه «يمثّل الخلافة الإسلاميّة على منهاج النبّوة والخلفاء الرّاشدين»، أهمَّ التوجّهات الرّافضة لنقل العلوم والمعارف، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، عندما حرّم أيّ تواصل مع تلك الحضارات ودعا إلى ضرورة هدمها وإزالة آثارها. فيما نلمس بعض المرونة من جانب التيّار الشيعيّ، الذي ظلّ هو الآخر يتعامل مع الحضارات الأخرى وفق منطق برغماتيّ، غلب عليه طابع استثمار العلوم والفكر لصالح استحواذها على السُّلطة والنّفوذ في البلدان التي انتشر فيها.

الخاتمة

ينبغي القول: إنّ السيل المتدفّق للحضارات لا يتوقّف عند دين أو عقيدة أو قوميّة معيّنة، وما جرى في العصر العبّاسيّ، ربّما يجري في راهننا أيضاً، وإن تغيّرت المُسمّيات والمُعطيات والأدوات، نوعاً ما. بكلّ الأحوال يجب تجريد العلوم والمعارف والأفكار من تَبِعات العقائد والإيديولوجيّات المنمّطة التي تُحيلها أدوات لتنفيذ مآربها في الوصول إلى السُّلطة. كما لا يمكن احتكار العلم وجعله وسيلة نفعيّة لطرف معيّن دون الآخر. فمثلما اشتركت البشريّة، ومنذ فجر التّاريخ، في صناعة الحضارة الإنسانيّة، كذلك لا يمكن أن ترضخ العلوم والمعارف والقيم العلميّة إلى رغبات ذوي النّفوذ والسُّلطة، بل تعتبر على مَرِّ الزّمان القيم السّامية التي ترتقي بها البشريّة، وبالتّالي يتطلّب إشاعتها وعدم حصرها في مِلّةٍ أو قوميّةٍ أو شعبٍ معيّنٍ، على الأقلّ هكذا يُفهم من الخطّ اللّولبيّ المتصاعد لتطوّر الحضارة البشريّة.

المراجع

1 – الكاتب "محمّد الخضريّ" في كتابه "الدّولة العبّاسيّة".

2 – "الطبري" في كتابه "تاريخ الأمم والملوك".

3 – "ابن العبري" في كتابه "تاريخ مُختَصر الدّول".

4 – الكاتب "كريم الهاني" في مقالة له تحت عنوان "حركة التّرجمة في العصر العبّاسيّ".

5 – الكاتب "كريم الهاني" في مقالة له تحت اسم "أهمّ المراكز العلميّة التي غزاها العرب".

6 – برنامج للتلفزيون السّوريّ مع الدّكتور في التّاريخ واللّغات الميّتة البروفيسور "محمّد محفّل".

7 – كتاب لأستاذ التّاريخ الإسلاميّ بكليّة دار العلوم بالقاهرة، عبد الرّحمن أحمد سالم، عن الفيلسوف الإنكليزيّ "برتراند راسل".

الفنون في الشرق الأوسط

أحمد دالي

مدخل

الفنون والآداب والثقافة مصطلحات ذات حضور قويّ في الذهن ووقع شديد في النفس، فهي تكاد تتشابك كخيوط العنكبوت إلى درجة التداخل والتزاوج، وقد تصل لدى البعض إلى حدّ حملها على جنس واحد و وظيفة واحدة، والفنون بالمعنى الواسع هي كل نتاج إبداعي ابتدعه الإنسان، وهي إحدى أهم أوجه الثقافة الإنسانية لأنها ترتبط بالإنسان منذ النشأة الأولى.

إن شغف النفس الإنسانية بالفنون ما هو إلا بحث عن شيء يرضيه أو بغية الحصول على صور للأشياء تكون أجمل مما هي عليها في الحقائق الواقعة من حوله, ومن الواضح أن الكثيرين ممن يمارسون الفنون على مختلف أشكالها يلوذون بالفنون عندما تقسو الحياة في وجوههم, فيلجؤون إليها لمحاولة نسيان أو تجاهل حقيقة ما, أو لتصويرها بشكل فني وتغليفها بأبعاد جديدة وتحميلها على قالب فني قادر على نقل تلك الصورة إلى الآخرين سواء بشكلها الحقيقي الواقعي أو بشكل رمزي وضبابي.

تُعتبر الفنون إحدى الظواهر الاجتماعية, وعلى تماس مباشر بطبيعة كل مجتمع, بل تكاد تكون المرآة العاكسة له, حتى أطلق بعضهم على هذه الحالة «نظرية الانعكاس في الفن», إلى درجة قول بعضهم إن المجتمعات المتخلخلة تنتج فناً متخلخلاً, وهذا الربط الوثيق بين الفن والإنسان ومنه إلى المجتمعات دائماً يقودنا للسؤال عن النشأة الأولى له ـ أي للفن.

وبصرف النظر مبدئياً عن الرؤى والمناهج النقدية والفكرية في تناول كل مصطلح على حدة- من حيث التصنيف بحسب الأجناس والبيئات المكانية والزمانية وظروفهما الموضوعية بحسب الشعوب التي تتراقص في أفلاكها تلك الفنون, أو تنشط في ميادينها تلك الآداب, أو تنمو في ربوعها تلك الثقافات, أو ربما من حيث الوظيفة الاجتماعية التي من المفترض أن تضطلع بها- فإنه من الجدير بمكان الإشارة إلى أنه ثمة توافق على أن جميع المجتمعات الإنسانية لا تخلو من فنون خاصة بها وثقافة تحمل هويّتها وآداب تتغنى بها, وأن كل ما ذُكِر يصب بشكل أو بآخر في خانة بناء الشخصية الإنسانية التي تتباين من مكان لآخر تبعاً للفروقات بين بيئاتها الثقافية وربما جيناتها الوراثية ودوافعها الفطرية أيضاً.

إن الخوض في بحث من هذا النوع يتطلب منا الوقوف ملياً عند الطبيعة الروحانية للشعوب, ومدى تأثّرها ببيئتها الجغرافية بالإضافة إلى تأثير النزعة الصوفية والدينية التي لا يمكن تجاهلها على الإطلاق, وخاصة إذا كنا نتحدث عن تراث الشرق وفنونه بقديمها وحديثها, ذلك أن ديانات الشعوب القديمة كانت تشكل حقلاً غنياً للفنون.

ومنطقة الشرق الأوسط بالتحديد تحتل مكانة مرموقة بفضل دورها الكبير في رقيّ البشرية من الناحيتين الحضارية والروحية, حيث ازدهرت فيها الحضارة في وقت مبكر مقارنةً مع جوارها, ولعلّ شعلة الفنون في الشرق الأوسط قد أوقدت بدايةً في كل من مصر وبلاد الرافدين, إذ كان لهما السبق في إبداع الفنون على مختلف ألوانها من فن العمارة إلى النحت والفن التشكيلي, ثم كان انتشارها في بقية المنطقة, ويعود السبب في ريادة مصر وبلاد ما بين النهرين في هذا إلى التشابه الكبير بينهما في الطبيعة والمناخ, فوجود نهر النيل في مصر ونهري دجلة والفرات وما بينهما في العراق مهّد الأرضية المناسبة لاستقرار الإنسان, ثم كان لاكتشاف الزراعة كبير الأثر في تدعيم نشوء الحضارات وخصوصاً على أطراف الأنهار.

لكن تطور هذه الفنون وهذه الحضارة الإنسانية لم يكن دفعة واحدة, بل استغرقت عملية التطور هذه آلافاً بل مئات الألوف من السنين قبل الدخول في العصور التاريخية وهي الحقبة التي تُسمى عصور ما قبل التاريخ, وهذه الآلاف من السنين تُقسّم - تبعاً لتطور الأدوات التي تم استخدامها- إلى حقبات وأزمنة متسلسلة تم اعتمادها في البحث والتدريس من قبل المؤرخين والباحثين, وهي تبدأ بالحقبة الباليوليتية "العصر الحجري القديم" إذ كان الحجر المنحوت نحتاً بسيطاً هو مادة الإنسان في صناعة أدواته, وفي الحقبة الميزوليتية "العصر الحجري الوسيط" التي شهدت تطوراً عن الحقبة الأولى ظهرت فيه الأدوات المصنوعة من العظام إلى

جانب صقل الحجر في صناعة الأدوات الحجرية, ثم كانت الحقبة الثالثة المعروفة بالعصر النيوليتي «العصر الحجري الحديث» الذي يُعتبر قفزة بالمقارنة مع العصرين السابقين حيث ظهرت فيه الأدوات النحاسية إلى جانب الأدوات الحجرية.

لمحة عن بدايات نشأة الفنون:

ظهرت الأواني البدائية الأولى المصنوعة من الفخار لدى القبائل البدائية التي سكنت في المنطقة العليا لنهر دجلة منذ الألف الخامسة قبل الميلاد, واعتُبرت تلك الأواني النماذج الأولى للصناعة الفخارية, ولكنها كانت تجارب بدائية ليس إلا, إلى أن أخذت في مراحل لاحقة أشكالاً أكثر تطوراً تميزت بزخرفتها بصور ملونة للإنسان والحيوان أخذت في بعض الأحيان أشكالاً هندسية عُثر عليها في مدينة سامرّاء الواقعة على نهر دجلة.

ويُعتبر السومريون على قدر متقدم من الحضارة في زمانهم مقارنة مع جيرانهم من الشعوب والقبائل, إذ ابتدعوا صناعة العجلة لعربات يجرها الحيوان, وجاءت فكرة العجلة بدايةً في صناعة الأواني الفخارية, وكان للمعابد مكانة رفيعة في حياتهم, فزيّنوا جدرانها بزخارف من قطع حجرية ملونة تشبه الفسيفساء كما الحال في معبد مدينة «الوركاء», ومنها ما عثرت عليه بعثة ألمانية في هيكل الإلهة «إنانا» في المعبد نفسه.

وفي سوريا تقدمت هذه الحضارة أكثر في قرية تل حلف على نهر الخابور قرب مدينة رأس العين شمال سوريا في الألف الرابعة قبل الميلاد, لتأخذ الأواني الفخارية أشكالاً متقنة أكثر من السابق وزخارف هندسية وحيوانية وآدمية تميزت بدقتها وفهم أكثر لمعانيها, كما عُثر في المنطقة ذاتها على تماثيل صغيرة لأشكال آدمية نسائية تمثل الأمومة.

> **الفنون والآداب والثقافة مصطلحات ذات حضور متميز في الذهن ولهن وقع شديد في النفس, تكاد تتشابك كخيوط العنكبوت إلى درجة التداخل والتزاوج, وقد تصل لدى البعض إلى حدّ حملها على جنس واحد ووظيفة واحدة, والفنون بالمعنى الواسع هي كل نتاج إبداعي ابتدعه الإنسان, وهي إحدى أهم أوجه الحضارة الإنسانية لأنها ترتبط بالإنسان منذ النشأة الأولى**

وفي مصر عُثر على رسوم لأشكال حيوانية وآدمية لا تختلف عن مثيلاتها في بلاد ما بين النهرين تعود إلى الألف الخامسة قبل الميلاد, إضافة إلى رسومات وأشكال للقوارب بالنسبة للقبائل التي سكنت على ضفاف النيل, كما تدل آثار تلك المناطق على أن سكانها عرفوا صناعة المنسوجات والسلال واستخدموا العاج والصدف والعظم للزينة.

يزعم بعض علماء الآثار أن صناعة الخزف الملون في العالم القديم بدأت من مركزين: الأول في إيران ومنه انتقل إلى بلاد الرافدين وسوريا, والثاني في جنوب الأناضول ومنه انتقل إلى سوريا وفلسطين ثم انتشر في جنوب شرق أوربا.

نشأة الفن المسرحي وتطوره:

يُرجع بعضهم نشأة المسرح إلى السحر في محاولة من الإنسان للتأثير على الطبيعة بقوة

إرادته, من تحويل الأفكار والخواطر والهواجس إلى أفعال وأشياء عن طريق الحركات والعبارات والاستجداء والصلوات, وتاريخ المسرح يتضمن بشكل طبيعي نشأة التمثيل, ففي البدايات كان عبارة عن رقص بدائي وإنشاد ديني, فكانت الأغنية الدينية الراقصة التي يتعبّد بها الإنسان البدائي للتواصل مع القوى الخارقة محور الفن المسرحي إلى جانب الرقص البدائي المصاحب والمترجم للأغنية بالحركات, هذا كله قبل مصاحبة الموسيقا ودق الطبول في مرحلة لاحقة.

والمسرحية مرّت وانتقلت من الرقص البدائي إلى حالة تمثيلية, ومن طقس ديني روحاني إلى تمثيل دنيوي, ومن حالة صامتة معبرة بالرقص والحركات إلى ظاهرة شاملة للكلمة والموسيقا والديكور والملابس والإضاءة, ولهذا لا يمكننا ههنا تقديم تعريف محدد للمسرح لأنه ملتقى لفنون متعددة, وهذا ما يجعل النقاد يصفونه ب (أبو الفنون).

يُعتبر الرقص من أقدم وسائل التعبير عن الانفعالات لدى البشر, وهو يأتي في المرتبة الأولى عند الشعوب البدائية للتعبير والإفصاح عن حاجاتها الضرورية مثل الطعام والمسكن والصيد والحرب والدفاع والتوسل إلى الآلهة والتضرع للقوى الخارقة, والحقيقة أن هذه الأفعال لم تكن تشكل بذاتها عملاً مسرحياً, ولكن جعلت الرقص يشكل النواة الأولى للفن المسرحي والبذرة الأولى نحو بقية الفنون, فالاحتفالات والعروض الراقصة التي كانت تُقام في الطرقات كان يلتفّ حولها عامة الناس, والراقصون كانوا يأخذون دور الممثلين أما عامة الناس فكانوا يأخذون دور الجوقة. والواقع أنه لا أحد يعرف على وجه الدقة تاريخ كتابة أول مسرحية, ولكن يُرجع أهل الاختصاص نشوء المسرح إلى أربعة آلاف عام قبل الميلاد.

عن الموسيقا في بلاد الشرق:

تعود الموسيقا في أصل نشأتها إلى محاكاة أصوات الطبيعة وموجوداتها من الطير والشجر والحيوان والرياح, وهي بهذا تشابه المسرح في نشأته من حيث التعبير عن حالة محسوسة مرئية كانت أو مسموعة برؤية بريئة قد تصل إلى حدّ التوهج, لتعكس بعض الانفعالات مثل الخوف أو الغضب أو تجييش المشاعر وبثّ الحماس فيها, لكن الفرق أن المسرح اتخذ أداته الأولى من الحركات بينما أداة الموسيقا هي الأصوات.

وعن نشأة الموسيقا بوصفها علماً ثمة نظريتان:

تقول الأولى إن الأصوات التي شكلت نواة السلالم الموسيقية كانت عبارة عن ترانيم دينية أطلقتها حناجر الرهبان والكهّان من الجبال والكهوف تعبيراً عن حالة دينية, وهناك اتفاق بين المتخصصين أن تلك الأصوات كانت مختلفة عن النوطات الموسيقية المعروفة اليوم لكنها تحوّرت في لفظها بشكل عفوي أو متعمّد حتى استقرت على الألفاظ الحالية : (دو, ري, مي, فا, صول, لا, سي), لكن الأبعاد والمسافات الصوتية حافظت على نفسها, وتلك الأبعاد كانت قد نشأت بالصدفة أو بشكل عفوي لكنها اتخذت نظاماً صوتياً متجانساً لا عشوائياً.

بينما ترى النظرية الثانية (ذكرها الموسيقي السوري الحلبي عبد الرحمن جبقجي في كتابه تحليل الأنغام في علم المقام) أن نشأة هذا النظام الموسيقي له أساس فيزيائي يقوم على تقسيم السلم والأصوات الموسيقية, ومع العلم أن المسافات والأبعاد الصوتية هي نفسها التي وردت في النظرية الأولى, إلا أن أصحاب النظرية الثانية يُرجعون تلك الأصوات إلى الطبيعة الفيزيائية للصوت وإلى توالد وانبثاق النغمات وفق نظام معين عند القرع على الأجراس والنواقيس, حيث تصدر الأصوات على قاعدة فيزيائية مبنية على أبعاد رياضية ثابتة وعلى التآلفات والانسجامات الصوتية

الصادرة بشكل طبيعي من الأجراس, وهذا شيء تخصصي بحت لا مجال للخوض فيه هنا.

لكن من المفيد أن نذكر أن أسماء الأصوات الموسيقية المعاصرة (دو, ري.....) هي المعتمدة في الدراسات والكتب, إلا أنه توجد تسميات أخرى شرقية لجميع النوطات والنغمات الموسيقية, كما أن هناك أسماء خاصة ببعض المقات الشرقية, فمثلاً نوطة (دو) في الموسيقا العالمية, اسمها (يكاه) في الموسيقا الشرقية وتعني الأولى, وعلامة (فا) مثلاً اسمها (جاركاه) وتعني الرابعة باللغتين الكردية والفارسية, ومقام (دو ماجور) وهو أصل المقامات يسمى في الموسيقا الشرقية مقام (راست) ويعني المستقيم, بالإضافة إلى مقامات أخرى تحمل أسماء شرقية مثل (نوروز, شهناز, كردان, سوز دل, دل آواز, وغيرها), وأساس التمييز بين الموسيقا الغربية والموسيقا الشرقية هو وجود أرباع النغمات في الموسيقا الشرقية وهو ما لا يوجد في الغربية التي تقوم على أنصاف الأصوات, وهذا يتيح سعة ومجالاً أرحب للموسيقا الشرقية لأنه يعطي أنغاماً إضافية, وهذا الأمر كذلك يحمل طابعاً تخصصياً علمياً.

بعض القوالب الموسيقية الشرقية:

ليس كل صوت يصدر عن الحناجر البشرية أو الآلات الموسيقية موسيقا, فالموسيقا هي تلك الأصوات التي تخرج بشكل منتظم على قاعدَتي الزمن والأبعاد الموسيقية بين النغمات, وعلى ذلك تتنوع صور وأشكال وقوالب النغمات, فقد تكون مجرد لحن موسيقي معبّر عن موضوع ما, وقد يترافق اللحن بالكلمة فتكون أغنية, والأغاني قد تكون منتظمة على أزمنة تقسيم معينة فتكون أغاني إيقاعية موزونة, وقد تكون مجرّدة من عنصر الإيقاع أو الزمن فتكون موّالاً, وإذا استغرقت الأغنية زمناً طويلاً وكانت مصحوبة بالشعر التي يمجّد قصص البطولة والغزل والالتزام أصبحنا أمام الملحمة الغنائية, وللملحمة مغنّون تخصصوا بها وقصص معروفة درجت على الألسنة وشاعت بين الناس. وقد تبقى الملحمة شفهية تتناقلها الأجيال من دون غناء كما الأمر في ملحمة (كلكامش).

وبالنسبة للقوالب الموسيقية الشرقية الإيقاعية غير المصحوبة بالغناء نذكر (السماعي, اللونغا, البشرف) على سبيل المثال, ولكل قالب خصوصية تميزه من حيث السرعة والإيقاع والتشكيل اللحني.

فن الغناء الملحمي:

يُعتبر الغناء الملحمي سجلاً للأيام والأحداث, فهو ديوان بل تاريخ محمول على أجنحة الكلمات, إنه تحويل لفعل تاريخي إلى فعل وعمل أسطوري, وتوثيق تاريخي تراجيدي من أهم مصادر البحث والتحقيق في أحداث حقيقية وقعت في أزمنة مختلفة, فهو سرد لقصص بطولية من خلال الشعر, تحتوي على المآثر التي تستحوذ على النفوس والعقول, مثل الفروسية والعزّة والنخوة والشرف والحب والانتقام ونصرة المظلوم وكرم الأخلاق.

وأذكر ههنا المقولة الشهيرة (الشعر ديوان العرب) لأقول إن ملاحم الغناء لدى الشعب الكردي مثلاً كان ديواناً له, ومن أبرزها والتي ذاع صيتها (مم و زين – دوريشي عفدي – سيامند و خجه – فرهاد و شيرين .....). وبعضها يتشابه مع قصص في الأدب العربي مثل (مجنون وليلى – عنترة وعبلة) ومع الأدب الأوروبي (روميو و جولييت).

الفن التشكيلي:

بدأ الفن التشكيلي المعروف في زمننا هذا من خلال الرسم على جدران الكهوف بدءاً برسوم

> **ظهرت الأواني البدائية الأولى المصنوعة من الفخار لدى القبائل البدائية التي سكنت في المنطقة العليا لنهر دجلة منذ الألف الخامسة قبل الميلاد, واعتُبرت تلك الأواني النموذج الأول للصناعة الفخارية, ولكنها كانت تجارب بدائية ليس إلا, إلى أن أخذت في مراحل لاحقة أشكالاً أكثر تطوراً تميزت بزخرفتها بصور ملونة للإنسان والحيوان أخذت في بعض الأحيان أشكالاً هندسية عُثر عليها في مدينة سامرّاء الواقعة على نهر دجلة**

الحيوانات, وتُرجع الدراسات هذه البدايات إلى ثلاثين ألف سنة تقريباً, أي إلى العصر الحجري القديم, ثم كان للديانات الوثنية أثراً كبيراً في تطوّر الرسم والنحت لأنها ديانات تمركزت في المعابد واهتمت بالتماثيل والهياكل وخاصة لدى الإغريق, ولكن مع ظهور المسيحية ظهر نوع من الفن سُمي الفن الكنسي, إلا أنه اكتفى برسم السيد المسيح والسيدة العذراء والقدّيسين فقط, ويصف أهل الاختصاص هذه الحقبة من تاريخ الفن بالانحطاط, لأنها ضربت بالقيود حول حرية التعبير بالفن وحصرته بالرؤية الدينية.

الفنون في العصور الإسلامية:

اشتهرت الفنون الإسلامية بفن العمارة الذي طغى عليه بناء المساجد و دور العبادة, وتميز هذا الفن بشكل عام بوجود صحن أو بهو واسع في منتصف البناء وتتوزع حوله مجموعة من الأعمدة, إضافة إلى وجود أعمدة تتوزع في الأركان الأربعة لحرم البناء, وأحياناً كانت دور العبادة تتميز بوجود أروقة وموزّعات داخلية, أما القِباب والمنارات الشاهقة فهي من لوازم أغلب المساجد والجوامع.

وبالإضافة إلى عمارة المساجد وُجد اهتمام ببناء الأضرحة والمقامات الخاصة بشخصيات ذات قدسية محددة من وجهة نظر فئات أو مذاهب معينة.

عمارة القصور أيضاً حصلت على اهتمام كبير من بعض خلفاء المسلمين وأمرائهم, وتميزت تلك الأبنية بالزخارف والنحت والفسيفساء.

واشتهرت بعض المدن على وجه التحديد بالمنسوجات, ومنها مدينة "سمرقند" التي تُعتبر من أهم مراكز صناعة النسيج, ويُرجع العلماء نسبة العديد من الصناعات الحريرية القديمة الأصيلة إلى خراسان وسمرقند. هذا وقد اشتهرت مصر قبل الإسلام بصناعة المنسوجات على يد الأقباط المهرة والبارعين في هذا المجال, فكانت منسوجاتهم في الغالب كتانية ومزخرفة بأشرطة مزينة وملونة بخيوط الصوف, وزاد الاهتمام بصناعة المنسوجات الفاخرة والثمينة في العصرين الأموي و العباسي, أي بعد انتهاء فترة الزهد والتقشف التي سادت خلال العهود الإسلامية الأولى, وقد زاد الاهتمام بهذه الصناعة خصوصاً خلال حكم العباسيين حيث عُرفت مصانع النسيج في وقتها ب "دور الطراز".

أما الحفر على الخشب فكان من الصناعات المزدهرة في مصر منذ القِدم, واستمر ازدهارها في العصور الإسلامية المتلاحقة, ويشهد المتحف الإسلامي في القاهرة على روعة تلك الصناعات الفنية.

وبالنسبة للتصوير الجداري في العصور الإسلامية فقد تميز بزخارف نباتية أو حيوانية وموضوعات آدمية, كما اشتهرت إيران بصناعة

الخزف منذ القرن التاسع الميلادي, وظهرت فيه الزخارف المحفورة وخاصة في زخارف الأواني, وقد طُليت هذه الزخارف النافرة في سطوح الأواني بألوان قاتمة غلب عليها اللون الأحمر, ولقد ورث الفنانون المسلمون صناعة المعادن من الساسانيين, واستمرت بذلك صناعة الأواني المعدنية للمائدة ومنها الفضية.

وفيما يخص فنون الكتابة والتخطيط فقد نشطت هي الأخرى بسبب رغبة الحكام المسلمين في كتابة وتخطيط المصاحف المزخرفة والمذهّبة, ولذلك استعانوا بأفضل الخطاطين وأمهر المذهّبين, وكان من نتيجة ذلك ازدهار فنون التخطيط والتذهيب, وظهر في القرن السابع الهجري (١٣ م) نوعان من التخطيط في الكتابة هما الخط الكوفي والخط النسخي.

خاتمة

أثناء الحديث عن الفنون هناك سؤال يطرح نفسه على الدوام: من يقيّم الفنون وقيمتها الجمالية ووظيفتها الاجتماعية والتاريخية, هل الحواس الخمس هي صاحبة الاختصاص, هل البصر ورؤية الأشياء قادرة على الحكم بجمالية الفن, وهل السمع وحده هو الآخر يملك هذه القدرة, أم لا بدّ من شيء آخر يعلو فوق حواسنا؟

لو كان الأمر مرهوناً بحكم الحواس لأمكن لجميع البشر أن يحكموا على الفنون ويقيموا عليها حكماً جمالياً أو ينتقدوا قيمتها ووظيفتها, إذاً الحكم غير مرهون بالبصر وحده, لأن البصيرة تسمو عليه, فالبصيرة هي قدرة وملكة يملكها بعض البشر تمكّنهم من رؤية ما لا يستطيع الآخرون رؤيته, وهذا ما يجعل بعض الأشخاص يمرون على بعض الأعمال الفنية بشكل عابر دون ترك أي أثر في النفس, وآخرون يقفون مطوّلاً عند العمل الفني ذاته, وكأنهم يقرؤون فيه ما لم يستطع غيرهم قراءته, أو يبصرون فيه ويسمعون ما لم يقدر الآخرون رؤيته وسماعه, فالبصيرة غير متوقفة على المشاهدات العينية فحسب, وإنما تدخل إلى كل شيء يتطلب طاقة روحية فوق الطاقة الحسية, وبناء على هذا يمكن القول إن جميع البشر يتذوقون الفنون ولكن بدرجات متفاوتة.

من جانب آخر ثمة اختلاف ما بين ممارسة العمل الفني بشكل عملي وبين الدراسات الفنية النظرية التي تستند إلى التاريخ, فثمة فارق كبير بين الموسيقي العازف والمؤرخ الموسيقي, وهذا ينطبق على المجالات الفنية الأخرى جميعاً: فليس بالضروري في الباحث المسرحي أن يكون ممثلاً بارعاً, وكذا الرسام والنحات والمعماري.....

إن الخوض في فنون منطقة جغرافية واسعة وضاربة بجذورها في أعماق التاريخ ليس بالأمر السهل الذي يضعك أمام خيارات وأجوبة جامعة مانعة ومحصورة في محيطها الإنساني والزماني والمكاني, لأن كل جزئية فنية لوحدها تحتاج إلى بحث مستقل ومستفيض, ولذا اقتصرت ههنا على المرور على الخطوط العريضة للفنون التي كانت وما زالت رائجة, دون الغوص في التفاصيل, ودون إقامة مقارنات أو مفاضلات بين فنون شعوب المنطقة, فلكل شعب خصوصية فنية تتبع بشكل طبيعي لتكوين الشعب نفسه من حيث البيئة والجغرافيا والحياة الاجتماعية والقيم والأعراف.

المراجع

.فنون الشرق الأوسط والعالم القديم: د. نعمت إسماعيل علام

.فجر المسرح .دراسات في نشأة المسرح: إدوار الخياط

.مقالة في نشأة المسرح وتطور الفن المسرحي: علاء عبد الكاظم

. فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية: د. نعمت إسماعيل علام

.تحليل الأنغام في علم المقام: الموسيقي عبد الرحمن جبقجي.

.حوار ومناقشة مع الفنان الموسيقي رشيد الصوفي.

جلجامش ـ السلطة والمدنيّة الأولى

صلاح الدين مسلم

تمهيد

ملحمة جلجامش ملحمة سومرية مكتوبة بخطّ مسماري، وقد تم اكتشاف هذه الألواح بالصدفة بعد اكتشاف ألواح طينية عام ١٨٥٣ م في موقع أثري، وعرف فيما بعد أنه المكتبة الشخصية للملك الآشوري آشور بانيبال في نينوى في العراق، والألواح الطينية التي كتبت عليها الملحمة محفوظة حتى الآن في المتحف البريطاني.

كُتبت الألواح الطينيّة باللغة الأكادية، وتحمل في نهايتها توقيعاً لشخص اسمه شين ئيقي ئونيني قد يكون كاتب الملحمة التي تعدّ أقدم قصة كتبها الإنسان، إنّ ملحمة جلجامش أقدم من التوراة، حتى أقدم من مجيء موسى عليه السلام، الذي

يعتبره البعض في عام ١٨٠٠ ق.م. وبالتالي هي أقدم من كلّ الديانات السماوية (اليهوديّة، المسيحية، الإسلام.

جلجامش هو خامس ملوك أورك الواقعة بين ٢٧٥٠ و ٢٣٥٠، كان ملكاً وكانت والدته من الآلهة واسمها ننسون، وكان والده بشراً عادياً واسمه لوغال باندا، لذلك كان ثلثاه إله، مهرته أمه الإلهة «نينسون» بالجمال، خلقته الإلهة «أرورو»، أمر ببناء سور حول مدينة أورك الذي دمر فيما بعد من قبل سرجون الأكادي.

هنا بدأت أولى معالم الدولة من خلال بناء السور الذي يعدّ أداة دفاعيّة وهجوميّة في نفس الآن، وبالنسبة لجلجامش هي أداو هجوميّة، لحماية العرش عندما يعدّ نفسه للهجوم على إمبراطورية أو أراض ما.

عُثر على ملحمة جلجامش مجزأة في مكتبة ملك أشور «أشور بانيبال» (٦٦٩ - ٦٢٩ ق. م) منقوشة على اثني عشر لوحاً، تحتوي على ٣٦٠٠ بيت شعري، وفي سنة ١٨٧٢ م توصّل موظف بالمتحف البريطاني بلندن «جورج سميث» إلى حلّ رموز أحد الألواح، ومنا هنا تبدأ قصّة الخلق من جديد، وإعادة قراءة التاريخ.

المدنيّة الجلجامشيّة

لماذا تبدأ ملحمة جلجامش بالحديث عن جلجامش الفاني الباحث عن الخلود؟ ولماذا أمّه خالدة وأبوه فان؟ فثلثاه إله والثلث الباقي بشر، فالمرأة تعبير عن الطبيعة الأمّ التي تبقى خالدة، والتي ما زالت تعبّر عن عدم التحوّل بعد من فكرة الآلهة – الطبيعة إلى فكرة الأب أو النظام الأبوي، فالأب الذي يمتلك ثلث القيادة، هو السلطة الذكوريّة التي تريد أن تتمرّد على الطبيعة التي ما زالت متحكّمة بثلثي الأمور.

من هنا تبدأ فكرة اغتصاب الذكر للإدارة وتحويلها إلى سلطة، فالملاحم الشرقية تركّز على هذه النقطة: مسألة ألوهية الأمّ، وفناء الأب، حتّى تأثرت بها الملاحم اليونانيّة، فأكيليس أيضاً كان من أب فانٍ، وأمّ آلهة.

جلجامش هو الملك الذي يؤسّس أولى أركان الدولة، عبر مدينة أورك التي تعدّ أولى معاقل المدينة، فبعد اكتمال المدينة يبدأ بالبحث عن خلود الدولة ببناء السور، فالسور ليس أداة دفاعيّة بقدر ما هو أداة هجوميّة.

أدرك جلجامش أنّه لن يكون خالداً، فهو بشر فانٍ، لذلك جنّد الشعب لبناء السور، فهذا المجتمع الذي كان يعيش حياة رعوية زراعية بسيطة، وكان في سعادة بعيداً عن هذا العمل المضني الذي لا طائل منه سوى الموت والهلاك وتمجيد الدولة التي لم يعتادوها بعد، وباتوا وهم يعملون ليل نهار في بناء هذا السور العظيم، يحنّون إلى الحياة في الطبيعة، حيث لم يكونوا يمتلكون سوى الجمال والجنة في ربوع الجبال والمناطق الرائعة في كردستان (شمال العراق) أو مناطق موزوبوتاميا، فابتهَلوا ونادَوا الطبيعة الأمّ كي تخلّصهم من هذا العذاب.

فجلجامش مرّة يحبّونه، ومرّة أخرى يكرهونه، يكرهونه لأنّه يغتصب نساءهم، أي يعتدي على الروح الموجودة في طبيعتهم، وفي الحياة الطبيعية التي لم ينسَوها بعد.

بالمقابل كان هناك إنكيدو الذي لم يتدنّس بعدُ برجس المدينة، فقد قامت الآلهة الأنثى أرورو بخلق إنكيدو (أو أنكي)، فقد كانت أمّه آلهة أيضاً، فالأمّ الآلهة هي الطبيعة الأمّ، وإنكيدو هو الإنسان الطبيعيّ الذي يعيش في المجتمع الطبيعيّ، حيث غابات موزوبوتاميا ملجؤه، وقد أدرك جلجامش أنّه لن يستطيع غزو الغابة ما لم تتّحدْ قِواه مع قِوى إنكيدو، فهو الذي يعرف مداخل الغابات ومخارجها، هو إنكيدو الذي يمثّل الإنسان الطبيعيّ الذي يريد أن يستدرجه الملك المدنيّ لكي يستطيع من خلاله السيطرة على عقول الناس، فقد كان إنكيدو يمثّل القداسة

الفكرية للمجتمع، أو الإرادة الفكريّة والذهنية للمجتمع، فهو هوية المجتمع، وذاكرته، فكما يبحث كلّ سلطويّ عن سلطة دينيّة يستطيع من خلالها إسكات الناس والسيطرة على عقولهم، فعلها جلجامش سابقاً، فقد جذب إنكيدو الذي يعدّ همجيّاً بالنسبة لهذا المدنيّ، فجلجامش قادر على أن يروّض هذا الوحش البرّي، فأرسل شامات وهي الخادمة في معبد الآلهة عشتار، فأغوته، ومارست الجنس معه، وبذلك ابتعدت الحيوانات عنه، فقد حذّرته الأرض من أن يُقدم على هذا العمل الجنونيّ، فقد كانت الأرض تمسك بقدميه لئلّا ينصاع لإغواء المدينة، ولئلّا يترك الطبيعة التي هي منبع السعادة، فكانت شامات هي التفاحة التي حذّرته الطبيعة – الجنّة ألّا يدنو منها، لكنّه الإغواء الذي لا يستطيع الذكَر أن يهرب منه، ربّما تحوّل فيما بعد إنكيدو إلى حواء في الديانات السماوية التي اعتبرت المرأة سبباً لخروج الذكر من الجنّة، وحرّفت الذكر الذي كان السبب في دمار الطبيعة، وبدّلت الأدوار.

بذلك خرج إنكيدو من الطبيعة ولجأ إلى المدينة، وأصبح مروَّضاً حيث علّمته شامات القواعد والقوانين، وتخلّى عن الأخلاق وعن أصدقائه الحيوانات وبدأ يتمرّد على الطبيعة رويداً رويداً إلى أن خانها خيانة عظمى.

إنكيدو والهروب من الطبيعة

بدأت شامات تعلّم إنكيدو الحياة المدنية في كيفية الأكل واللبس، وشرب النبيذ، ثم تبدأ بإخباره عن قوة المدنيّة الجلجامشيّة، وكيف أنه يدخل بالعروسات قبل أن يدخل بهنّ أزواجهنّ، وعندما يسمع إنكيدو هذا، ويقرّر أن يتحدّى جلجامش في مصارعة كي يجبره على ترك تلك العادة، يتصارع الاثنان بشراسة حيث أنّ قوّتيهما متقاربتان، لكنّ إنكيدو الذي بات مدنيّاً ونسي أصله، وخان الطبيعة، فأصبح هشّاً بعد أن كان قويّاً جبّاراً، فأضحت الغلبة للمدنيّة الجلجامشيّة، ليعترف إنكيدو في النهاية بقوة

"جلجامش هو الملك الفاني الباحث عن الخلود، فثلثاه إله والثلث الباقي بشر، فالمرأة تعبير عن الطبيعة الأمّ التي تبقى خالدة، والتي ما زالت تعبّر عن عدم التحوّل بعد من فكرة الآلهة – الطبيعة إلى فكرة الأب أو النظام الأبوي، فالأب الذي يمتلك ثلث القيادة، هو السلطة الذكوريّة التي تريد أن تتمرّد على الطبيعة التي ما زالت متحكّمة بثلثي الأمور"

جلجامش، وبعدها يصبحان صديقَين حميمين، فكيف لا، فإنكيدو بالنسبة لجلجامش الميل إلى الروح الطبيعيّة، والملجأ للخلاص من أسرها في نفس الوقت، وجلجامش بالنسبة لإنكيدو هو الشهوة الصمّاء التي باتت تنسيه ضمير الروح التي صارت تموت فيه رويداً رويداً.

فبعد أن ترك أصدقاءه في الغابة لجأ إلى صداقة القوّة، وترك الروح الطبيعيّة، وصار عبداً للقوّة بستار الصداقة، وهذه حال مَن ينصاع لقوّة الدولة ويترك السعادة في الجنة التي ودّعها.

لقد تحقّقت غاية جلجامش في جذب معاونٍ له، ودليل يرشده إلى غابات الأرز الواقعة في شرق كردستان (إيران) ليقطع تلك الأشجار العظيمة، ويستخدمها في حروبه، وبناء دولته، فما كان إلّا أن يقنع إنكيدو للقضاء على حارس الغابة؛ همبابا، فإنكيدو يعرف كلّ مداخل ومخارج الطبيعة، ولولا إنكيدو لما استطاع أن يقضي على همبابا، ويسيطر على الطبيعة، فمن خلال

إنكيدو استطاع أن يلج إلى قلوب الشعب الذي يعتقد يؤمن بإله الشمس، والتي ارتضت أن يقتحم جلجامش الغابة ومعه الشعب من خلال إنكيدو الهارب من الطبيعة، والشمس كانت منذ القدم رمزاً للقداسة المورزوبوتامية، وظّلت صورة الشمس هوية الملاحم والنقوش، فلا نقش قديم إلّا وصورة الشمس بارزة هناك، فقد تكون الزردشتية.

كما أسلفنا يمثّل إنكيدو الذاكرة المجتمعيّة، وهو القادر أن يقول للشعب لنذهب إلى هذه الحرب المقدّسة، كما فعلها بعده أصحاب العمامات مروّجو السلطان.

غضبت ألهة الماء إنليل التي كلّفت مسؤولية حراسة الغابة بهمبابا، وهنا تبدأ أولى انتقامات الطبيعة من البشر الذين حاولوا تغيير الطبيعة من خلال قطع هذا الغطاء النباتي الذي كان سبباً في هطول الأمطار، فآلهة الماء تعبير عن المطر الذي قلّ بعد أن قطع الإنسان كلّ هذه الأشجار والغابات الكثيفة التي كانت مصدر الخير والعطاء.

لقد طغى وتجبّر الملك الذي سيطر على الغابة، فحاولت عشتار التي ترمز إلى الآلهة الأمّ أن تروّض هذا الوحش السلطويّ، وتطلب الزواج منه، كي يعود إلى رشده، لكنّ جلجامش فطنٌ لا يريد أن يعود إلى حياة فيها سيطرة للأمّ، فقد تلذّذ بشهوات السلطة، كما تحكمت الشهوة العمياء بإنكيدو وأنسته أصله، فتغضب عشتار وترسل ثوراً مقدّس من السماء، الذي يعبّر عن قوّة الطبيعة، لكنّ إنكيدو وجلجامش يستطيعان التغلّب على هذا الثور، وكلمة (كل GIL بالكردية تعني طين أو حجر، وكلمة جاميش GAMIŞ تعني جاموس أو ثور) فقد يكون اسم جلجامش مستمد من الثور الحجري أو الطيني.

بعد مقتل الثور المقدس تجتمع الآلهة للنظر في كيفية معاقبة جلجامش وإنكيدو لقتلهما مخلوقاً مقدّساً، فتقرّر الآلهة أن تقتل إنكيدو، فهو بقايا روح الطبيعة في قلب جلجامش، وسيصبح ماديّاً صرفاً، ديكتاتورياً لا يعرف الروح، ولا بقايا العودة إلى الطبيعة، والرفق بها، فإنكيدو وإن كان خائناً للطبيعة لكنّه يحنّ إليها بين الفينة والأخرى، ويحاول أن يهدي جلجامش دائماً بطريقة غير شعورية فإنكيدو يمثّل بقايا الإيمان في قلب جلجامش، لكنّ الانتصارات قد أعمته، فقضت على تلك الروح، فيبدأ المرض يتسرّب رويداً رويداً في جسد إنكيدو، فقد أرسلت إليه الآلهة مرضاً مدمّراً يقضي عليه، وهكذا ماتت روح جلجامش الأخيرة بفقدانه إنكيدو.

موت إنكيدو والمدنيّة الباحثة عن الخلود

يبدأ الحزن والأسى يتسرّبان إلى قلب جلجامش، فقد ماتت روحه مع رحيل إنكيدو، وبدأ الخوف يتسرّب إليه بعد موته، وبدأ هاجس الخوف من الموت، فقد مات نصفه الروحي، ويريد أن ينقذ نصفه المادّي، فيبدأ برحلة البحث عن الخلود، فهو بشر والبشر فانون، ولا خلود إلّا للآلهة، فكيف سيقوم بتخليد نفسه، والبقاء للعالم المادي والسلطة الماديّة التي تخلّت عن روح الطبيعة؟ هو السؤال الذي ظلّ هاجساً يجول في خلده، لقد كانت المدنيّة تبحث عن السيطرة دائماً على الأزليّة، والسيطرة على العقول التي تحنّ إلى المجتمع الطبيعي، والمجتمع الزراعيّ الذي أضحى أسيراً داخل أسوار المدينة الجلجامشيّة.

لقد بدأ جلجامش رحلته في البحث عن الخلود والحياة الأبدية، والطريق الوحيدة ليصلّ إلى سرّ الخلود عليه يجد أوتنابشتم (النبي نوح في الديانات التوحيدية - اليهودية والمسيحية والإسلام) فهو الفاني الوحيد الذي وصل إلى تحقيق الخلود، فقد نجا من الطوفان هو وزوجته فحسب، وقررت الآلهة منحهما الخلود، فتقوم سيدوري؛ آلهة النبيذ بإرساله إلى أورشنبي، ليساعده في عبور بحر الأموات ليصل إلى أوتنابشتم – نوح، فتشفق زوجة أوتنابشتم على جلجامش فتدلّه على عشب سحري تحت أعماق البحار، وهذا العشب قادر على إعادة الشباب إلى جلجامش لِيغدوَ خالداً، فيغوص جلجامش في

البحر، ويستطيع اقتلاع عشب الخلود، فيقرّر أن يأخذ العشب إلى أورك ليجربه هناك على عجوز قبل أن يقوم بتناوله، لكنّه في طريق عودته وعندما كان يغتسل في النهر سرقت أفعى ذاك العشبَ السحريّ، وتناولته، فعاد جلجامش إلى أورك دون عشب الخلود، وفي طريق العودة يشاهد السور العظيم الذي بناه حول أورك، فيفكر في قرارة نفسه أنّ عملاً ضخماً كهذا السور هو أفضل طريقة ليخلد اسمه، فيموت جلجامش فيما بعد.

التقرير المدينيّ

تعدّ الملحمة بياناً في وصف المدنيّة وهيبتها، تلك المدنيّة المتجسّدة في جلجامش، فهو طويل القامة، ضخم الجسم، مفتول العضلات، جريء، مقدام، جميل يفتن الناس بجماله.. لا يماثله أحد في صورة جسمه.. يرى جميع الأشياء، ولو كانت في أطراف العالم.. كان كل شيء وعرف كل شيء، واطلع على جميع الأسرار.. واخترق ستار الحكمة الذي يحجب كلّ شيء، ورأى ما كان خافيًا، وكشف الغطاء عمّا كان مغطّى.. وجاء بأخبار الأيام التي كانت قبل الطوفان.. وسار في طريق بعيد طويل..كابد فيه المشاق والآلام.. ثم كتب على لوح حجري كل ما قام به من الأعمال.

فالقوّة عنوان المدنيّة الأولى في التاريخ، أوروك هي المدينة التي احتاجت لأسوار، لتسجن العبيد الذي يقوّون أركان هذه المدنيّة، ولتهرب من شبح المجتمع الطبيعي النيوليتي، إذْ ينبع مفهوم هيمنة الإنسان على الطبيعة من هيمنة الإنسان الفعليّة على الإنسان١. وهنا تجسيد واضح لمقولة موراي بوكتشين في هيمنة الإنسان على الإنسان.

جلجامش هو الملك الذي حوّل أوروك إلى مدينة، حوالي القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، أي قبل خمسة آلاف عام تقريباً، وكانت المدينة في حرب ضد القرية والغابة والمجتمع الطبيعيّ، فإنكيدو يمثّل الطبيعة البكر التي خدشت، والتي استبيحت على يد المدينة وما زالت هذه القواعد تسري حتى الآن، فالمدني يرى أن ابن الريف متوحّش بربريّ، لا يعرف شيئاً عن الحضارة، والحضارة تكمن في المدينة فحسب.

صورة ماركس عن الهمجيّ الذي يتصارع مع الطبيعة ليست تعبيراً عن غطرسة حركة التنوير الفلسفية بقدر ما هي تعبير عن الغطرسة الفيكتورية، وحسب تصريح تيودور أدورنو وما كس هوركهايمر لا مصلحة للمرأة في هذا الصراع، لأنّه صراع بين الرجل والطبيعة بكلّ دقّة٢، فصراع جلجامش هو صراع مع الطبيعة، إذ يبني الأسوار، ويحارب غابات الأرز، ويبحث عن الخلود للسيطرة على الطبيعة.

صورة إنكيدو في الملحمة

لقد قامت الربة «أرورو» بخلق «إنكيدو» المخلوق العجيب المخيف نظيراً لجلجامش، فجاء في الملحمة « أورورو أنتِ خلقتِ جلجامش.. فاخلقي الآن شبيهًا له.. لينافس قلبه الثائر.. وليتباريا فترتاح أوروك.. (أورورو) وهي تستمع إلى هذه الأقوال.. خلقته في قلبها مثل (آنو).. غسلت (أورورو) يديها.. فأخذت طينة ورمتها على الأرض.. فخلقت البطل.. المولود في منتصف الليل، جندي (ننورتا).. يكسو الشعر جسمه كلّه.

غسلت (أرورو) يديه، وأخذت قبضة طين ورمتها في البريّة

خلقت في البريّة "أنكيدو" تاصنديد، نسل ننورتا القوي

يكسو جسمه الشعر، وشعر رأسه كشعر المرأة

جدائل شعر رأسه كشعر نصابا

لا يعرف الناس ولا البلاد، ولباس جسمه مثل "سموقان"

ومع الظباء يأكل العشب، ويسقى مع الحيوان من موارد الماء

ربّما تحوّل فيما بعد إنكيدو إلى حواء في الديانات السماوية التي اعتبرت المرأة سبباً لخروج الذكر من الجنّة، وحرّفت الذكر الذي كان السبب في دمار الطبيعة، وبدّلت الأدوار. بذلك خرج إنكيدو من الطبيعة ولجأ إلى المدينة، وأصبح مروّضاً حيث علّمته شامات القواعد والقوانين، وتخلّى عن الأخلاق وعن أصدقائه الحيوانات، وبدأ يتمرّد على الطبيعة رويداً رويداً إلى أن خانها خيانة عظمى

ويطيب لبّه عند ضجيج الحيوان في مورد الماء٣

بالطبع فكرة خلق الإنسان من طين هي أيضاً سبق لملحمة جلجامش، فأنكيدو هو آدم الذي خرج من جنّة غابة الأرز، وهو المعبّر عن كيفية الدنوّ من الشهوة، والابتعاد عن السعادة، فكلّما اقترب من المدينة ثقلت قدماه، وخارت قواه، فالغابة تناديه ألّا ينخرط في صفوف المدينة ومعمعتها، لئلّا يكون عبداً لهذه الشهوة، ولئلّا تقوده المدينة إلى الهاوية، إلى أنّشلّ جسمه، وخذلته ركبتاه، وبات خائر القوى لا يستطيع العدو كما كان يفعل من قبل، لكنّه صار فطناً واسع الحيلة كم تصوّره الأسطورة.

حيث تصوّر الأسطورة إنكيدو على أنّه وحش غير مروّض، همجيّ لا يلتزم بقوانين الدولة، يعيش في البراري، حيث أنّه يجوب السهوب، ويأكل العشب، ويساعد الحيوانات التي ينصب لها الصيّادون الشراك، فهو صديق الطبيعة، مندمج معها، يرعى الكلأ مع الحيوانات، ويسقى معها عند مورد الماء، وعندما يغادر الطبيعة يصير إنساناً حسب تعبير الأسطورة، فهو ليس إنسان إن لم يكن مدنيّاً، فانقلب على الطبيعة وصار يهاجم الأسود والذئاب، ويقتل الحيوانات التي ربّته، وبذلك خان جنسه، وصار أوّل خائن عرفته الطبيعة، وهكذا أصبح إنساناً.

يدرك إنكيدو أنّه خان الطبيعة وهو على فراش الموت، بعد فوات الأوان، حيث بات يلعن حياة الحضارة، وصار يستذكر طبيعته سعيداً خالي البال، يرعى الظباء والحيوان، وصار يلعن من زيّن له المجيء إلى حياة المدنيّة، فصار يلعن الباب الذي صنعه، والصيّاد الذي أتى إليه بالبغي، والبغي التي زيّنت له المجيء إلى أوروك٤

صورة عشتار في الملحمة

المرأة في الملحمة له فن ووظيفة الإغواء، وإبراز المفاتن، إنّها المرأة المدينيّة التي تروّض الوحش المندمج بالطبيعة، وهي صورة منحطة للمرأة التي ثارت عليها المدينة، هي الفتاة التي تبعث على الهيام، فهي التي تجعل إنكيدو شخصاً تنبذه البريّة، وتنكره الحيوانات، وتفرّ منه، فهو الذي تدنّس، بالمرأة المدنّسة، وهي الزوجة التي تسلّم لجلجامش قبل أن تذهب إلى بيت عريسها، الإلهة عشتار تمثّل المرأة القائدة، وهي سلالة المجتمع الأموميّ، هي التي تروّض السلطة الجلجامشيّة والتهوّر الجلجامشيّ، تحاول دائماً أن تدنو منه لتبعده عن الديكتاتورية والتسلّط، فتعرض على جلجامش أن يتزوجها، لكنّه يرفض قائلاً:

أنتِ قصر يتحطّم في داخله الأبطال٥

فهو يرفض الانصياع للآلهة عشتار التي تمثّل النظام الأموميّ الطبيعيّ، وربّة المنزل في المجتمع الإداري البعيد عن السلطة قبل أن يسرق الذكر الإدارة ويحوّلها إلى سلطة وتسلّط.

عشتار تمثّل الذكاء العاطفي الذي حاول ترويض الذكاء التحليلي من صولة الابتعاد عن الروح، هي الروح التي تحاول أن تهدّة من سورة الذكر

وعنفوانه، وجبّره، لذلك كان جلجامش يبتعد عنها، ولم يقبل بها، فهو البطل الذي سيتحطّم عند قصرها، فهو يدرك أنّ جناحه سيقصّ، ولن يعود طائراً يحلّق في سماء الخلود، والجبروت.

بالطبع هناك بعض التناقضات في وصف الشخصيات، من ضمنها عشتار، فعشتار في ملحمة جلجامش هي متسلّطة ومزاجيّة، لكنّها تمثّل القوّة التي ما زالت متحكّمة ببعض زمام الأمور، أي أن المجتمع الزراعي لم يتداعَ بعد، لكنّ الدولة تعلو وتكبر، وأسوارها تعلو يوماً بعد يوم، وهناك بعض التمرّدات على المجتمع الأمومي، كوصف البغي، والفتاة الطائشة، المتهوّرة المزاجيّة، المتمثلة في عشتار، ويكمن رضوخ الأنثى في أمّ جلجامش؛ الإلهة ننسون.

صورة خمبابا

يوصف خمبابا بالشرّير، مع أنّ مهمّته تكمن في حراسة الغابة، وهو لا يعتدي إلّا على من يقطع أشجار الأرز، وهو الذي يحافظ على صفو الغابة ويكره أن يكدّرها أحد، وعندما تصارع مع أنكيدو وجلجامش، شلّت حركته واستسلم خمبابا لهما، وأخذ يتضرّع أن يبقيا على حياته، ويأسراه فيكون خادماً لجلجامش ويجعل الغابة المسحورة وأشجارها ملك يديه، فرقّ قلب جلجامش، وكاد أن يبقي عليه، لكنّ صديقه إنكيدو حرّضه على قتله، فقتلاه.

هنا تكمن صورة الخيانة الإنكيديّة مرّة أخرى، فهو الذي هرب من الطبيعة ليعود إليها قاتلاً، مدمّراً أعرافها ونواميسها، قد تكون المدنيّة الجلجامشيّة تحاول دائماً القضاء على الطبيعة في صراعها على السلطة، ولئلّا يبقى خمبابا قريباً منه يذكّره دائماً بخيانته، فالخائن الذي خان مرّة، يستطيع أن يعود إلى الخيانة مرّة أخرى.

يمثّل إنكيدو خنوع الهارب من أصله، وهي عادة متأصّلة في الهاربين والخائنين المنبهرين بسحر المدنيّة وإغوائها، فيتذلّلون للمدنيّة، ويعتبرونها الإله الجديد الذي سينسيهم أصلهم، فينقلبون جذرياً على هويّتهم، بل يعادونها.

كلمة ختاميّة

نختتم بكلام للكاتب والباحث فراس السوّاح: «الأسطورة حكاية مقدسة، يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصحة وصدق أحداثها. فهي، والحالة هذه، سجلٌّ لما حدث في الماضي وأدّى إلى الأوضاع الحالية والشروط الراهنة. وهذا ما يعقد صلة قوية بين الميثولوجيا والتاريخ، باعتبارهما ناجمَان ثقافيان ينشآن عن النوازع والتوجُّهات ذاتها، رغم ما بينهما من اختلافات تجعلهما يبدوان وكأنهما نظامان مستقلان لا يربط بينهما رابط. فالأسطورة والتاريخ ينشآن عن التوق إلى معرفة أصل الحاضر، ولكنهما يفترقان في القيمة التي نسبغها على ذلك الأصل. فهو أصل قدسي عند الأسطورة، وأصل دنيوي مفرغ من الأُسْطَرَة عند التاريخ. بتعبير آخر فإن الأسطورة تنظر إلى التاريخ باعتباره تجلياً للمشيئة الإلهية. أما التاريخ فينظر إلى موضوعه باعتباره تجلياً للإرادة الإنسانية في جدليَّتها مع قوانين فاعلة في حياة الإنسان الاجتماعية. وهذا يعني أننا أمام نوعين من التاريخ: تاريخ مقدس وتاريخ دنيوي»[6].

الهوامش

1 أيكولوجيا الحرّيّة — ظهور الهرميّة وفناؤها / موراي بوكتشين / الترجمة عن الإنكليزية: متيّم الصايغ / منشورات نقش - الطبعة الأولى / قامشلي 2020 / ص 17

2 المصدر السابق / ص 34

3 ملحمة كلكامش أوديسة العراق الخالدة/ طه باقر / دار علاء الدين / ص 41

4 المصدر السابق / ص 67

5 المصدر السابق / ص 63

6 الأسطورة والتاريخ / فراس السوّاح

نمنمات صوفية أوالصوفية الثورية

ريما خليل

كنت صغيرة وكانت أمي ترسلني أنا وأخي إلى الصوفي في القرية المجاورة لقريتنا. كنا نخاف الكلاب وننظر من فوق الجبل المشرف على القرية حتى نرى أحدهم فنركض باتجاه بيت الصوفي، وكنا ندعوه بصوفي عيشه، وعيشه هي زوجة الصوفي، الرجل الملتحي ذي الملامح السمحة، فنسرد مطلبنا على زوجته، فتحدثه بطلبنا: «أخي الصغير يبكي كثيراً، وأختي تفز من نومها»، فكان يأتي بقلمه، ويمرره على ورقة بيضاء عدها لهذا الغرض، فنحبس أنفاسنا نرقب شفاه الصوفي وهي تتحرك بصمت ونستمع لصرير القلم وهو يخط تعاريجه على الورقة البيضاء، ثم يطويها على شكل مثلث، وتوصينا زوجته نقلاً عنه: قل لأمك أن لا تدع الماء يلامس الورقة، فيكز أخي يده عليها وننطلق.

منذ تلك الأيام ارتسم في مخيلتي معنى الصوفي، فهو كلّ رجل ملتحٍ كبيرٍ في السن، كبرتُ وكبُرت معي المعأنيِ وتعرّفت على الصوفية من خلال ما قرأته عن جلال الدين الرومي والحلاج وفقي طيران و ملا جزيري و رابعة العدوية.

إن المتعارف عليه في المصطلح عن معنى الصوفية هو التفاني في النفس والعيش الزاهد والتقشف، ومن خلال لقائي بأحد رجال الصوفية سألته عن معنى الصوفية فكان جوابة: «الصوفية هي صفاء الروح لله سبحأنه وتعالى".

وقد اختلف النقاد والباحثون في تعريف الصوفية ومراجعها، حتى أن الصوفيين بحد ذاتهم اختلفوا فيما بينهم على ذلك، ويرجح أن مصدر التسمية يعود إلى لباس الصوف، فمن المعروف أن الصوف ذو خشونة في ملمسه على الجسد، وهذه الحقيقة ربما هي الأقرب إلى الواقع، فالذي عرف عن الصوفيين أنهم يقومون بتعذيب الجسد من أجل انصياعه للروح التي يعتبرونها شيئاً من الله، فكان أتباعٍ هذه الطريقة يلبسون لباس الصوف صيفاً شتاء لتعذيب الجسد وعدم منحه الراحة والتفاته إلى الشهوات والملذات الدنيوية، وانصياعه للروح، ونجد ذلك في حياة أباطرة الصوفية من الحلاج إلى سمنون المحب و فقي طيران وجلال الدين الرومي، وعبد القادر الجيلاني، وقد تربّع الحلاج على قمة الهرم عند الصوفية، فهو الذي كان يرى الله يتجلى في كل ما خلق، فقد كان يرى الحلاج بأن الخط هو مجموعة من النقاط، و الخط بدون النقاط لا شيء وكذلك النقطة بدون الخط لا تعني شيئاً، أي أن الله لا معنى له بدون الخلائق، لذلك نجده توصل إلى ما فحواه "أنا الله" ويقصد بذلك أن الله يتجلى في ذات الإنسان، ويمكننا القول بأن أشهر فلاسفة المتصوفين على الإطلاق هو الفيلسوف جلال الدين الرومي، الذي ذاع صيته في الفلسفة الصوفية، فهو القائل: "تعلمت التفكير، بعدها تعلمت التفكير داخل قوالب، بعدها تعلمت أن التفكير الصحيح هو التفكير من خلال تحطيم القوالب". "ويرى المتصوفون أن الإنسان يرتقي بعشقه للوجود الذي يتجلى فيه الخالق، فنجد أن جلال الدين الرومي يتحول إلى كائن لا مرئي من خلال حبه: "وفي بحر العشق ذبت كالملح لم يبق كفر ولا إيمان"، فنجد الصوفيين يبتعدون عن كسب رضا الآخرين، "النفس من كثرة المديح تتحول إلى فرعون، إنّ الأشياء الخفية تجعلها لأضدادها مرئية" إنّ الله لا معنى له بدون الكائنات والمخلوقات التي خلقها، وإن الله يتجلى في ما خلق، وهو القائل: «ما رأيتُ شيئاً إلّا رأيت الله فيه». ويرى الصوفيون أن الله يتجلى في قدسيته في قدسية الإنسان «أيها البشر الأتقياء التائهون في هذا العالم لِمَ هذا التيه من أجل معشوق واحد، ما تبحثون عنه في هذا العالم ابحثوا في دواخلكم فما أنتم سوى ذلك المعشوق». فالحضّ على عشق الذات الإلهية تكمن عند الصوفيين في الخلائق، فعشق الإنسان والبحث عن الجنة التي وعد الله بها عباده وجودها بين المخلوقات، فالشاعر ملا جزيري يرى انعكاس الذات الإلهية في وجه الحبيبة وهو ينظر إليها، كيف لا وهو الخالق والمبدع لذلك الجمال، ولا يتوانى الصوفيون عن محاكاة الذات الإلهية، فيقول أحد الصوفيين ما معناه "يا الله أنت تعدنا بجنتك و الحواري وتمنعنا من الحواري على الأرض، وأنا عبدك أفضّل الدينار النقد على مئات الدنانير المؤجلة، فكيف يفوتك ذلك؟" ويقول عمر الخيام "يا ربّ هل يرضيك هذا الظمأ والماء ينساب أمامي"، ونجد الخيام يستغبي الخمّار فيقول له: «هل في مجال السكون شيء بديع أحلى من الكأس وزهر الربيع، عجبت للخمّار هل يشتري بماله أحسن ممّا يبيع». ولاذ الصوفيون إلى الحكمة (عندما نحب نعشق حتى عيوب المعشوق وحينما نكره نكره حتى كمال المكروه). ونجد الصوفيين ينظرون إلى تقديس المبدأ، فالإنسان بدون مبدأ في هذه الحياة لا معنى له وإن كان

مبدأ الصوفي الأول والأخير هو عشق الذات الإلهية «إذا كنت مثل القشة لا مبدأ لك تميل مع كل نسمة فإنك لن تعدل قشة حتى ولو صرت جبلاً».

ويحث الصوفيون على التعلم والتفكير والبحث، و لا يكتفون بالأقاويل والنقل. "على المرء أن ينفذ إلى قلبه بنور العقل ويرى واقعه لا أن يكون عبداً للنقل». ويدّعي الصوفيون أنهم وصلوا إلى مرتبة تعلو مرتبة الأنبياء واقتربوا من الله حتى أنهم اتحدوا روحياً مع الله، وانكشف لهم الغيب وزيل الستار بينهم وبين الله، وهم يسعون إلى عبادة الله حباً به فقط وليس خوفاً من عقابه أو طمعاً في جنانه، فيقول جلال الدين: «أيهما أصدق في الطاعة، من أطاع الملك في الغيب أم من أطاعه في الحضور" ويسعون جاهدين إلى عدم الالتفات إلى الغير من أجل الفوز برضاه أو طمعاً في مدحه أو خوفاً من ذمه، وكل غايتهم هي الاتحاد مع الذات الإلهية، أي محاربة بناء الأنا الخاصة بين البشر، والقناعة بأن كلّ ما وهبه الله من روح وجسد لله وحده، وكل ما يسعى إليه الصوفي هو حبه الله فقط لاتخوفاً ولا طمعاً، وقد حاول الصوفيون أن يضعوا قواعد لطريقتهم وفتحوا لذلك مدارس يعلمون بها أتباعهم ومريديهم، ويدعونها بالتكية.

والمتمعن في حياة وأفكار أباطرة الصوفية يجد التباين واضحاً بينهم من حيث الأفكار والإيمان، وربما تجد كل واحد منهم يشكل مدرسة منفصلة عن الآخر، وربما يأتي من يبحث في التفاصيل الخاصة بكل مفكر صوفي على حدة، وسيجد الفارق واضحاً بين كل مفكر منهم ونهجه في التفكير والأفكار التي يطرحها وتصوره للذات الإلهية.

الصوفية الثورية

هي الالتزام بخط الثورة المنشودة في أهدافها وبرامجها إلى حدّ التفاني من أجل تحقيق

> **"وأشهر فلاسفة المتصوفين على الإطلاق الفيلسوف جلال الدين الرومي، الذي ذاع صيته ولمع نجمه وأضاء النور في الفلسفة الصوفية، فهو القائل «تعلمت التفكير، وبعدها تعلمت التفكير داخل قوالب، بعدها تعلمت أن التفكير الصحيح هو التفكير من خلال تحطيم القوالب. «ويرى المتصوفون أن الإنسان يرتقي بعشقه للوجود الذي يتجلى فيه الخالق، ويتحول جلال الدين الرومي إلى كائن لا مرئي من خلال حبه وصوفيته"**

الأهداف المرجوة.

ربّما ظهر ميراث الصوفية الثورية في شرق آسيا بين الثوار الفيتناميين الذين حاولوا الوقوف بوجه أعتى دولة في العالم، ولم يكن بحوزتهم ما يكفي للوقوف بوجه تلك الدولة سوى الإيمان بحقهم، فتحوّلوا إلى التفاني من أجل ذلك الحق، فكانوا يحملون بيدهم الأسلحة الخفيفة وفي قلبهم إيمانهم المطلق بقضيتهم، وربما هم من سطّروا مقولة **"أقوى الجيوش في العالم على الإطلاق هو الجيش الذي يمتلك الحق"**. والمتمعن في تاريخ الحركات الثورية في الخمسينيات من القرن الماضي يجد أنّ التاريخ شمل بمراحله مرحلة خاصة بحركات التحرر في العالم بنهجها الماركسي الداعم لتحرّر الشعوب من الاستعمار، من فيتنام إلى تشيلي مروراً بالدول الإفريقية، وكلّ تلك الدول كان جلّ اعتمادها على سلاحها الوحيد؛ إيمانها بقضيتها وحقها، فكانت بداية صقل الشخصية الثورية التي تؤمن إيماناً مطلقاً بقضيتها، والتفاني في

سبيل ذلك الهدف والعيش حياة متقشفة في سبيل تحقيق الهدف المنشود. فالبحث عن الملذات والانجرار على إثرها يبعد الإنسان عن مراميه وأهدافه. فكل ما يطلبه العقل ويسمو إليه تناقضه النفس الباحثة عن الملذات. فبالقدر الذي يسيطر به الإنسان على نفسه بالقدر الذي يتحرر من السعي وراء الملذات. و يأتمر بعقله الذي يقوم على التفكير المنطقي والأقرب للواقع. وتعدى ذلك الإيمان حدود الوطن الواحد إلى نظرية النضال الأممي ليشمل جميع دول العالم المستعمَرة. وظهر ذلك في شخصية المناضل الأممي كيفارا. الذي جسّد في شخصيته شخصية المناضل الثوري المتصوف. المؤمن بالنضال المتفاني من أجل رفع الظلم عن العالم. وكان نهجه في ذلك؛ الإيمان بالنظرية الماركسية. فكما كان نهج الصوفيين هو الإسلام كان نهج الثوريين أو الثوريين الصوفيين هو الماركسية. فظهرت أحزاب ماركسية ربما كانت منفردة فيما قدمته للمجتمع من أخلاق مميزة في الثقافة والأدب. وما زلنا نجد أن الشخص الذي يحمل الأفكار الماركسية يمتاز عن غيره في أسلوب التعامل والأخلاق. وربما يعود الفضل لوجود الأدب الواقعي في الشرق الأوسط للفكر الشيوعي. فنجد أكثر الروايات والشعر في فترة انتشار الفكر الماركسي تجسّد الواقع الذي يعيشه المجتمع. من فقر وظلم واستغلال. ومن المؤسف أن فشل الماركسية في تطبيقها كنظام سياسي انعكس على وجودها كنظرية كانت كل الشعوب المستعمَرة تنتهجها. وربما يعود السبب إلى الجمود والشمولية التي حقنت بها الماركسية. فتحوّلت من نظرية سياسية تدعو إلى الحريات العامة للفرد وتناهض الدكتاتورية. فوجدناها تنتج أعتى الأنظمة الدكتاتورية في العالم. وقد يكون ذلك ناتجاً عن الشخصيات التي جعلت الفكر الماركسي فكراً جامداً لا يتعامل مع الواقع ولا يربو إلى التسامح. فبدلاً من أن تقضي على الظلم والاستغلال. نجدها تقضي على أشخاص كانوا يحملون أفكاراً تطالب بالماركسية الواقعية. الماركسية التي تحاكي الواقع. فتحوّلت الأحزاب الشيوعية إلى أحزاب دكتاتورية بدل الطبقات التي كانت تحكم بدكتاتورية. فتم استبدال الطبقات الدكتاتورية بالأحزاب الدكتاتورية الشمولية. فبدل أن تؤسس لنظام شيوعي يخدم المجتمع. بنت دولاً جعل من المجتمع يخدم الدولة. بينما كان من المتوجّب أن يتمّ تحويل المجتمع إلى مجتمع ديمقراطي ينعم الجميع فيه بالحريات العامة بدون تمييز. بينما يتحول الاقتصاد إلى اقتصاد تعاوني. بين الدولة والمجتمع. فكون اقتصاد الملكية العامة و فشل في الإدارة والإنتاج. وربما يعود السبب إلى انتفاء روح التنافس في إنتاج القطاع العام. فنجد أنّ النظام الماركسي انهار من جانبيه السياسي والاقتصادي. بينما ظل الجانب الثقافي طافياً على السطح. فنجد ما كان ترشد إليه الماركسية من أسلوب التعامل مع الغير والاهتمام بالطبقة الفقيرة. وتقديم العون للمحتاجين. وتقديس العمل بدل الإنتاج.

ظهرت الصوفية الثورية بين صفوف عدد من الشباب الكرد في بلاد لا تعترف بغيرها من الشعوب. وساهمت عبر عصور طويلة في القضاء على عدد من الشعوب ومحو وجودها وهي الدولة التركية. إرث الامبراطورية العثمانية الطورانية. وكان للدولة العثمانية باع طويل في تصفية الشعب الأرمني. واتجهت في أهدافها إلى القضاء على الشعب الكردي. وكان شعارها أنها قضت على الشعب الكردي وردمت قبره في قمة جبل آغري.

والباحث في تاريخ الشعب الكردي لن يجد عدواً أعته من الدولة التركية. وربما يجاريها في ذلك صدام حسين. فالمتمعن في تاريخ الشعب الكردي يجد أن الشعب الكردي في تركيا وصل إلى مرحلة لم يعد لديه الرجاء في الحصول على حقوقه. واتجه باتجاه الانحلال التام في بوتقة الدولة القومية التركية. فالأشخاص الذين عايشوا فترة الجرائم المرتكبة من قبل الدولة

التركية بحق الشعوب المحتلة من قبل تركيا لم يعد لديهم القدرة حتى مجرد التفكير في حقوق الشعب الكردي، وقد أقحم الشعب الكردي في وضع يمكن تسميته بأنه رفع راية الاستسلام للدولة التركية واتجه إلى الانخراط مع أهداف الدولة القومية التركية.

في هكذا أوضاع ظهرت مجموعة ثورية من الشباب المثقف في الجامعات التركية، بعد دراسة مستفيضة لأوضاع الشعب الذي يعيش في شرق تركيا أو ما يدعونه بأتراك الجبال، ووجد هؤلاء الشباب أن هذا الشعب يختلف كلياً عن الشعب التركي، وتنطبق عليه خصائص الشعب بحد ذاته، وهو مقسّم بين عدة دول، ونتيجة هذا الانقسام أصبح شعباً متفككاً متأثراً بثقافة الدول المستعمرة من قبلها، ولكنه مازال محافظاً على الروابط القومية التي تربطه ببعضه البعض، فراحوا يعدّون العدّة إلى إحياء هذا الشعب عن طريق وضع قواعد ثورية صارمة تجاري الوضع الذي يعيشه هذا الشعب، ولا تقل صرامة عن القوانين المطبقة من قبل الدولة التركية الهادفة إلى محو هذا الشعب من الوجود وتحويله إلى رديف للقومية التركية، فلم يجدوا بداً غير التحول إلى نهج ثوري قريب من الطريقة الصوفية، فتم وضع قواعد لتلك الشخصية التي تريد النضال من أجل إحياء هذا الشعب ونبش القبور بحثاً عمّا تبقّى من أشلاء هذا الشعب، غير أنه سرعان ما اكتُشف أمرهم من قبل الدولة التي سارعت إلى تشتيت شملهم وملاحقتهم واستخدام الطريقة الفردية في القتل بحق قياداتهم، مما اضطرهم إلى اللجوء إلى أقوى المناطق الساخنة في الثورية وكانت في تلك الأيام البقعة التي يعيش فيها الثوار الفلسطينيون، الجبال على الحدود السورية اللبنانية، حيث المعسكرات المنتشرة للثوار الفلسطينيين.

لجأ هؤلاء الثوار إلى تلك المنطقة الساخنة، وبدؤوا بالتحضير للثورة عن طريق إعداد الكادر القادر على مواجهة مصاعب الحياة بين الجبال، و القدرة على القتال في أصعب الظروف وبأقل الإمكانيات المتاحة.

ومن الأيام التي عايشنا فيها حزب العمال الكردستاني ذا الكوادر الثورية المتصوفة من أجل قضيتهم، إذ في بداية عام ١٩٨٥ تعرفت على حزب العمال الكردستاني، وكانت المعرفة بعناصر ذلك الحزب وهم في قمة الأدب والأخلاق، وليس لهم همّ سوى القراءة والمطالعة المستمرة، فكانوا إذا حلوا في بيت لا تشعر بوجودهم على الإطلاق، ولو قدمت لهم رغيفاً من الخبز لوجدتهم أكلوه بكل شراهة، وقاموا إلى تنظيف المكان وغسلوا صحونهم، وعادوا إلى قراءة ما بيدهم، ولم يصدف أن رأينا عنصراً من عناصره يرتدي لباساً رفوهاً أو ثميناً، أو ينتعل حذاء سوى البوط ماركة المِقاب، وتجدهم يتخذون الدروب الطويلة سيراً على أقدامهم، ونادراً ما يلجؤون إلى وسائط النقل، وغالباً ما يكتفون بالقليل من الطعام، كثيرو الحفاظ على عدم إزعاج الآخرين، يحافظون على هدوئهم، يحدثونك عن مأساة شعبهم، يسردون لك وقائع تاريخية بطريقة سهلة وبسيطة، معتمدين قواعد الصوفية الثورية التي تم وضعها عام ١٩٨٣وهي عبارة عن قواعد يجب على المناضل الثوري اتباعها ليصل إلى روح الثوري الحقيقي المناضل من أجل قضيته، وكانت تحت مسمى (خصائص المناضل الثوري) حتى أنها أصبحت قواعد لجميع المناضلين الثوريين في العالم، وعندما نقول المناضل الثوري لا نعني الثائر الذي يحمل السلاح بيده، فالمناضل الثوري هو إنسان يجد في نفسه المسؤولية في رفع الظلم عن الآخرين وتحقيق العدالة والمساواة بين جميع البشر، فيثور ضد كل ما هو مانع من الوصول للأهداف الإنسانية المنشودة، ويختار الطريق أو النهج الذي سيسلكه للقيام بالثورة ضد كل ما هو منبوذ من قبل العالم البشري.

”عندما نقول المناضل الثوري لا نعني الثائر الذي يحمل السلاح بيده، فالمناضل الثوري هو إنسان يجد في نفسه المسؤولية في رفع الظلم عن الآخرين وتحقيق العدالة والمساواة بين جميع البشر، فيثور ضد كل ما هو مانع من الوصول للأهداف الإنسانية المنشودة، ويختار الطريق أو النهج الذي سيسلكه للقيام بالثورة ضد كل ما هو منبوذ من قبل العالم البشري.“

وأهم ما عرفناه عن المناضل الثوري من صفات الثوري المناضل؛ ثوري متكامل في كل ما يحمل من صفات بدءاً من المأكل والمشرب، وقوله مرتبط بفعله، متفانٍ في التضحية من أجل الإنسانية ويمكننا التذكير ببعض صفات المناضل الثوري.

١ ـ **إنه مفعم بالحب الشديد لوطنه:** فالإنسان الذي يريد أن يصل إلى روح المناضل الثوري، لابد له من أن يحب وطنه للدرجة التي تجعله يقدّم روحه في سبيل هذا الوطن، وحسب مفهوم الثورة والفلسفة الثورية لحزب العمال، فالوطن ليس هو كما يدعونه الأرض والأحجار والأشجار، الوطن هو مجموعة الأرواح التي تعيش في ذاكرة المناضل الثوري، الوطن هو ذاكرة المناضل الثوري والتي اتخذها هدفاً له من أجل تحريرها مما هو يراها من إجحاف وظلم، فلو كان الوطن يعني التراب والأحجار والأشجار فهناك في بقعة ما على وجه البسيطة ما هو أفضل من التراب الذي نعيش عليه، ومناظر خلابة من الأشجار والحقول، أفضل وأجمل من الأشجار التي نعيش في ظلها، إذ إنّ الوطن هو ذاكرة الفرد، هو مجموعة الأرواح التي عايشها ويعايشها في ذاكرته التي لا يمكن التخلّص منها، فنجد المهاجر يظل يكابد ويعاني من الموروث الروحي الذي نقله معه، فالوطن هو ذاكرة المناضل الثوري، وحتى يستطيع المناضل الثوري أن يحب وطنه، لابد له من التعرف على تاريخ وطنه وحاضره وتصوره لمستقبل هذا الوطن، لابد له من البحث في تاريخ هذا الوطن بحثاً ممنهجاً ومفصّلاً، والتعرف على معالم هذا الوطن شبراً شبراً حتى يستطيع أن يرسم أهداف وطنه المستقبلية.

٢ ـ **إنه في صف النظام الديمقراطي:** المناضل الثوري الذي يناضل من أجل رفع الظلم لابد أن يكون مؤمناً بحريته وحرية شعبه، وحرية الآخرين، و إلا أصبح مرتزقاً يناضل من أجل تحقيق سلطة الحزب أو هدفاً لفئة معينة من الأفراد، أو طبقة ما، وما أكثر الأمثلة على ذلك، فنجد الكثير من الثورات التي أطاحت بسلطة جائرة أو دكتاتورية ثم جاءت بسلطة أكثر دكتاتورية من السلطة السابقة، وربما يكمن فشل الدول ذات النهج الشيوعي في هذا المضمار، فدكتاتورية البروليتاريا التي مارسوها بدلاً عن دكتاتورية الطبقة البرجوازية لم تغيّر من الأمر شيء، بل جاءت أقسى من سابقتها، إذ لا بدّ للمناضل الثوري من أن يمنح ما يسعى إلى تحقيقه للشعب في نهاية الأمر.

٣ ـ **إنه أممي يكافح من أجل الاشتراكية:** المناضل الثوري يطالب بحقوقه وحقوق شعبه وحقوق جميع الشعوب، فالمناضل الثوري الذي لا يؤمن بحرية الآخرين لا يمكن أن يكون حراً، فغاية المناضل الثوري هو رفع الظلم عن نفسه و عن شعبه وعن الآخرين، فلن يكون مناضلاً ثورياً المناضل الذي يناضل من أجل رفع الظلم عن نفسه واستبداله بظلم الآخرين، يجب ألا يكون هدفه رفع الظلم عن نفسه و تطبيقه

على الغير، وربما وجدنا ذلك الفشل الذريع في كومونة باريس، وكيف تم قطع رؤوس الأطفال عبر المقاصل، بحجة أنّهم أبناء الطبقة الحاكمة، يجب على المناضل الثوري أن يكون متسامحاً، و إلّا تحوّل هو الآخر إلى دكتاتور لا يفرق عمن قام بالنضال ضدهم، وهذا لا يعني التسامح مع من كان بيده دفة القرارات وأصرّ على ظلمه والإسهاب في ممارسة الظلم، فهؤلاء لا يمكنهم التخلص من أمراضهم النفسية التي تدفعهم إلى ممارسة الظلم بدون حدود، فهناك حقائق علمية تشير إلى أن بعض الأفراد لديهم هواية القتل والتمتع بقتل الآخرين، فلابد من أن ينال هؤلاء جزاءهم العادل، فالحقيقة العلمية تشير إلى أنّ الأرض تتسع للجميع ومن حق كل فرد أو مكون أن يعيش عليها وفق خصوصيته بدون أن يتطاول على وجود الآخر الذي يختلف عنه، فيجب على المناضل الثوري أن يناضل من أجل الديمقراطية له ولغيره.

٤ ـ **إنه مفعم بالحب والاحترام لرفاقه وللشعب:** المناضل الثوري إذا كان خالياً من الحب لن يستطع أن يضحي وبالتالي لن يحقق النصر، فالحب هو المحرك الأساسي للتضحية التي تقودنا إلى النصر، فنجد الكثير من المناضلين الثوريين يتحول حبهم للشعب إلى عشق، ويترافق هذا الحب بالاحترام الذي يعتبر منبع الأخلاق، فالأخلاق هي إحدى سمات الثوري الذي يطالب البشر بتحقيقها والتي تتناقض مع القواعد القانونية الملزمة والتي يترتب على مخالفتها عقوبات.

٥ ـ **إنه ممثل الأخلاق الاشتراكية الجديدة:** إن أهم ما يميز المناضل الثوري هو تمتعه بالأخلاق التي لا تقبل استغلال الغير والتطفل و سرقة مجهود الغير، والتطاول على حقوق الغير، كيف لا وهو الإنسان الذي يقدم روحه في سبيل تحرير الآخرين من الظلم، فلا يمكن أن يكون إنساناً تسمح له أخلاقه الثورية بالتعدي على حقوق الغير، وليس من المعقول أن يبتعد عن الشعب في مأكله ومشربه، فهو فرد من أفراد المجتمع الذي يعيش بينه، يأكل أكله ويشرب مشربه، ويلبس لباسه.

٦ ـ **ليس جباناً ولا أنانياً، بل شجاع ومستعد للتضحية:** فالحقيقة لا يمكن أن يكون الإنسان الأناني والجبان ثورياً، فالثورية تتطلب التضحية بما هو أغلى ما في الوجود وهي الروح، فالثوري هو المناضل الحقيقي الذي لا يتوانى عن التضحية من أجل تحقيق ما يسمو إليه، فوجدنا الكثير من الثوريين الذين أحرقوا أنفسهم أو تقدموا من أعواد المشنقة وهم مرفوعو الرأس، وكل ذلك من أجل أن ينعم الآخرون بحريتهم وكرامتهم.

٧ ـ **غير منكمش بل مندفع وحماسي:** الثوري المتصوف إنسان مبادر يمتلك زمام المبادرة، ولا ينتظر الآخرين حتى يقدموا له المعونة بل هو من يقدم المعونة للآخرين، و يبث روح المبادرة في الآخرين، ويحضهم على النضال ويعتبر مثالاً وقدوة لهم.

٨ ـ **إنه يتقن الجمع بين المرونة والصلابة:** الثوري المتصوف مرن في تعامله مع الجماهير وصلب مع أعدائه ولا يتنازل عن أهدافه ومبادئه، فليس من المعقول أن يهب بوجه الجماهير، وهو لا يقدم على إرهابهم أو تخويفهم.

٩ ـ **إنه يقظ وحساس وموزون في حساباته:** يجب على المناضل الثوري المتصوف أن يمتلك بعداً نظرياً في ترجيح وتحليل ما يحيط به من مصاعب وأن يمتلك بعداً عميقاً في تحليل الأمور السياسية وترجيح الأفضل والمناسب، والعدول عما لا يخدم قضيته، ويتوجب عليه أن يكون ماهراً في التنبؤ بالمستقبل بشكل صحيح.

١٠ ـ **إنه يقظ وحساس ومتنبئ:** يتوجب على المناضل الثوري المتصوف أن يتنبأ بالمخاطر التي تحيط به وأن يعرف متى يبدأ النضال ومتى يتوقف، يتطلب منه أن يحمي نفسه من المخاطر ويحمي رفاق دربه، و يبتعد عن المغامرات والمخاطر

التي قد تذهب بحياته وحياة رفاقة دون تحقيق النتيجة المرجوة من تضحيته.

١١ ـ **إنه باحث ومدقق في التعليم:** الثوري المتصوف مثابر على التعلم والتعليم، لا يتوقف عن تعليم نفسه بالشكل الصحيح، وهو يعي ما يتعلمه وكيف يجعل كل ما يتعلمه في خدمة أهدافه بالشكل الصحيح.

١٢ـ **إنه مبدع وخلاق لا يقبل بالقوالب:** يجب على المناضل الثوري أن يكون إنساناً منفتحاً على العالم المحيط به، وأن يبتعد عن الجمود الفكري، وأن يتصرف حسب الزمان والمكان المناسبين دون التحجر في أفكاره، قابلاً للتغير والتأقلم حسب الظروف التي تحيط به، لا يتّخذ من القواعد التي تعلّمها قالباً يطبقه في كل مكان وزمان، فالأفكار قابلة للتغيير وكلّ ما في الكون متحرّك ومتجدّد، ويجب عليه أن يطوّر قواعده حسب التطوّر والتجدد الذي يناسب المرحلة التي هو فيها.

١٣ ـ **المناضل بوصفه طليعة للشعب:** يجب على المناضل الثوري أن يكون مثالاً يحتذي به الشعب، وأن يكون في صفّ الجماهير التي تتّخذه مرشداً لها، ولا يبتعد عن الجماهير ولا يتعالى عليها، بل أن يكون في الصفوف الأمامية التي تقود الجماهير نحو الهدف، ولا يكون في المؤخرة حيث يصبح تابعاً بدل أن يكون متبوعاً، وأن يعيش معها ويحسّ بآلامها ويأكل من أكلها ويشرب من مشربها، ولا يختلف عنها سوى في تصرفاته التي تعتبر مثالاً للإنسان الخلوق والمضحّي، والدليل والمرشد نحو الهدف الذي يحوّله هدفاً للجماهير، ففي النتيجة المناضل الثوري تحميه الجماهير عندما تشعر بأنه مرشدها ودليلها، وإلا ستنفضّ من حوله وسيجد نفسه وحيداً في مواجهة أعدائه.

١٤ ـ **على المناضل معرفة كيفية صنع الحياة من الموت:** أحياناً تكون الحياة في حد ذاتها موتاً عندما تفتقد إلى مقومات الحياة، وتصبح الحياة بحد ذاتها عائقاً أمام الحياة، وتتطلب الموت في سبيل صناعة حياة جديدة تليق بالإنسان الحر، عندها يجب ألّا يتوانى المناضل عن تقديم حياته من أجل حياة أفضل، فالتمسك بالحياة في بعض الأحيان يتحوّل إلى موت حينما يقبل المناضل الثوري بالاستسلام مقابل الحفاظ على حياته، فتتحوّل حياته إلى حياة خالية من الكرامة والشرف، فتتحول إلى موت حقيقي.

لمحة عن حياة بعض الكوادر في حزب العمال الكردستاني:

بعد عدة سنوات راح كوادر من حزب العمال الكردستاني يغزون العالم، فتجد القادم من السعودية يحدّثك عنهم، ومن ليبيا وتونس والجزائر ثم جميع دول أوربا، اتخذوا لهم معسكرٌ في البقاع يتلقى عناصرهم التدريب في تلك البقعة، يستيقظون باكراً ويمارسون الرياضة، ثم يتناولون إفطارهم على عجلة وأكثره من الشوربات، يستلمون عشرة سجائر لكل عنصر، فينتقلون إلى التدريب العسكري، يستمر التدريب العسكري حتى ساعة الغداء، يتناولون غداءهم على الأغلب من البرغل أو العدس والحمص، فتليه فترة الاستراحة، ثم التدريب السياسي في قاعة معدة لتلك المهمة، وقبيل الغروب يتم توزيع الحرس على قمم الجبال المحيطة بمعسكر التدريب في نقاط تم تحديدها، لا تتعدى نوبة الحراسة الساعة، ويتخذون من الحطب الذي جمعوه في الصيف وقوداً للتدفئة، وقد يتعرض أحدهم لعقوبة ناجمة عن إهمال أو تقصير، فتكون العقوبة إعفاؤه من نوبة الحراسة أو حرمانه من الدروس العسكرية أو الثقافية، فيبقى وحيداً في المهجع.

مركز التدريب عبارة عن ساحة تستخدم للاجتماعات الصباحية أو لعبة كرة القدم، تتوزّع على أطرافها أبنية مطلية بالطين، وهو محاط من جميع جهاته بجبال، فلا يجد السائر نفسه إلا وهو ضمن تلك الساحة، لا

تُبان له سوى الجبال والسماء الساترة لتلك الساحة. وعلى سفوح الجبال المحيطة تجد كهوفاً واسعة مطلية من الداخل بالإسمنت، تم حفرها بطريقة هندسية، إلى جانبها تجد بعض المهاجع الإسمنتية التي يخال لك أنها نبتة في الجبل بنيت على شاكلة نصف دائرة.

يعيشون حياة سبات فترة الشتاء ويعدّون العدة لحملات الربيع، بأسلحة خفيفة حازوا عليها من أحد المخافر التركية التي باغتوها في هجومهم، وأكثر الشخصيات التي نتذكرها والتي تعبر عن الشخصية الثورية المتصوفة «العم شوكت» الذي كان يطوف القرى على ظهر دراجة نارية مسخراً أحد الشباب في نقله، وكان إذا حلّ ضيفاً على بيت يسأل صاحب البيت عن وجبة الأكل، وغالباً ما يقول له صاحب البيت: سأقدم لك دجاجة مطهوة أو مرقة، فكان جوابه حاضراً، أعطني ثمن الدجاجة و قدّم لي من الطعام المتوفر في البيت، فكان يجمع ثمن أكله ويقدمه كتبرعات لحزبه.

وما أذكرة عن تلك الفتاة المناضلة الثورية المتصوفة «شرفين»، حينما كانت تنتعل حذاء مكشكشاً وقد تلفت الخيوط المكشكشة لبوز الحذاء وكان على أبواب فصل الشتاء، وكان بحوزتها أموال للحزب تقارب ٢٠ ألف دولار، طلبتُ منها أن أشتري لها حذاءً فرفضت، وكنت أعلم أنها تعلم بوضعي المادي، فقررت أن تشتري لنفسها حذاء، وفي الصباح أخذتها مع رفيقتها إلى السوق، وانتظرتهن، وبعد ساعة عادت وهي تقول: لا يمكن شراء شيء من السوق فسعر الحذاء أصبح ٦٠٠ ليرة، وفي اليوم التالي أرتني حذاءها وقد خاطته بيدها، فقلت لها: لطالما بين الحزب أشخاص مثلك، فمن المؤكد أنكم ستنتصرون على العالم كله.

كنا مجموعة من الشباب نرافقها في جولاتها بين بيوت الفقراء، كانت تحمل في جزدانها كل ما يحتاجه البيت، من الإبرة والسلك حتى لفافات من النقود الورقية، كانت تتلقاها من الشعب على سبيل التبرعات.

وما أذكره كذلك عن الشهيد هوكر، الرجل العجوز الذي كان يشرف على الأمور المالية، وعندما تعرضت كوباني للاجتياح من قبل داعش حمل بندقيته وقال: جئت للنضال من أجل الشعب، ولم آتِ لأكون محاسباً مالياً، واستشهد على أبواب كوباني.

حزب العمال والرياح الدولية التي عصفت به:

من الخطأ المتعمد إلصاق اسم حزب العمال الكردستاني على كل من يحمل أفكار ومبادئ وصفات هذا الحزب، فهذا الحزب خلق قواعد عامة ومبادئ وصفات لكل ثوري يريد أن يتحرّر ويحرّر شعبه أو العالم بأسره، فنجد ثواراً منتشرين في جميع أصقاع المعمورة، تعلّموا وحملوا صفات المناضل الثوري المتصوف التي أوجدها وصاغها حزب العمال الكردستاني، فنجدهم ملاحقين في جميع أصقاع العالم، وتم إلصاق صفة الإرهاب بهؤلاء العناصر الذين اعتبروا قدوة لثوار العالم بأسره، وما عثرت عليه في إحدى المجلات عام ١٩٩٤ التي أوردت تقييماً للمرأة المناضلة المتصوفة بين صفوف حزب العمال الكردستاني، حيث ورد فيها تقييم للاستخبارات الأمريكية تصف فيه حزب العمال الكردستاني على أنه أنشط حزب على وجه المعمورة، لذلك وجدنا أن جميع الدول التي تتناقض أفكارها و مصالحها ومبادئها مع أفكار حزب العمال تجتمع وتتفق على اعتقال قائد ومنظر هذا الحزب، وتسعى إلى تحويله من حزب ثوري إلى حزب إصلاحي عن طريق إدراج عناصر من رجالاتها في صفوف هذا الحزب، فنجدها حققت ما تسعى إليه في بعض الأماكن والصفات وفشلت في أماكن وصفات أخرى.

ولكن مهما قلنا ومهما صمد أعضاء هذا الحزب المتصوف من أجل تحقيق الحرية والعدالة لشعبه وشعوب المنطقة، نجد أن الرياح الدولية عصفت به و استطاعت أن تغير في سمعة بعض كوادره في الحد الذي طالته أياديهم، غير أن الجبال كانت وما تزال منيعة على كل الرياح العاتية، ومازالوا يحافظون على صفات المناضل الثوري المتصوف.

تقسيمات الأسلوب ونَسَق الحقيقة عند المفكّر عبد الله أوجلان

شيران زادة

الأسلوب هو الطريقِ المختصرِ الذي يؤدي إلى النتيجة المأمولةِ المعنيةِ بالأهداف.

المفهوم الميثولوجي

- لدى سَعْينا لإيلاء المعاني، فإنَّ أولَ أسلوبٍ يواجهنا في أغوارِ التاريخ، هو التناولُ الميثولوجي أسلوباً وطريقةً للكشف عن الحقيقة، حيث تستند الميثولوجيا إلى المفهومِ الكونيّ. نظرَتَها إلى الطبيعة على أنها حيويةٌ وعامرةٌ بالأرواحِ، لكنّه مبالغ فيه.
- يرى العلم أنّ الأساليب التي تَعتبِر الطبيعةَ ميتةً وجامدة وخاليةً من الدينامية والحيوية، تفتقر إلى المعاني أكثرَ مما عليه الميثولوجيا بذاتِها.
- إنّ التعاطي الميثولوجي من حيث روابطِه مع الحياةِ (أيكولوجي، منفتحٌ على الحرية.

ليس قدَرياً، بعيدٌ عن الحتمية).

- إنّ مفهومَ الحياة المنسجم مع الطبيعة، قد خَصَّ الجماعاتِ البشريةَ بالحماس والعنفوان والتعددية إلى حينِ عصرِ الأديان الكبرى.

- الملاحمُ والأساطير والميثولوجياتُ المتَرَعَةُ بالمقدسات، كانت مستمدة من ذهنيةَ الحياةِ الأساسية في العهد النيوليتي على وجهِ الخصوص.

- إنّ تضارُبَ الأقاويل مع الواقع الموضوعي، لا يعني أبداً استحالةَ تطويرِ التفاسير القيِّمة فيما يتعلق بمضمونها. بل يمكن القيام بشروحٍ ذاتِ معانٍ ثمينةٍ للغاية بحق تلك الأقاويلَ (الميثولوجيات)، بحيث مِنَ النادرِ جداً فهمُ التاريخ من دون هذه التفسيرات.

- لا غنى لنا عن الميثيولوجيا كأسلوبٍ رئيسٍ ومهمّ ، لفهمِ المجموعات البشرية التي عاشت أطولَ فتراتِ حياتها على شكلِ أقاويل.

- بُرهِنَ بما فيه الكفاية على أنّ الأساليبَ العلميةَ الراهنة هي غالباً عبارة عن ميثولوجيات، حتى ولو أُظهِرَت وكأنها مضادةٌ تماماً للأسلوب الميثولوجي.

- إنّ الأسلوبَ العلمي، الذي يدَّعي العمل وفقِ القوانين القطعية، والذي يُعَدُّ استمراراً للأديانِ التوحيدية الغارقةِ في الدوغمائية، مرغمٌ على رَدِّ الاعتبار مجدداً للأسلوب الميثولوجي والمعاني الميثولوجية، بعدَ أنْ حَطَّ من شأنهما إلى أقصى الحدود. فالميثولوجيات، التي هي من أقارب اليوتوبيات، والتي تُعتَبَرُ شكلاً للمعنى والذهن الذي لا غنى للجنس البشري عنه.

- إنَّ تَرْكَ ذهنِ الإنسان بلا يوتوبيا، بلا ميثولوجيا (بلا ملاحم، بلا أساطير) كتَرْكِ البدن بلا ماء. وهنا ندرك بشكلٍ أفضل أنّ ذهن الإنسان، الذي هو مجموعُ أذهان جميعِ الكائنات الحية، لا يمكن اختزاله بغناه الشاملِ ذاك إلى حدودِ العقلية التحليلية التي تلجأ فقط إلى لغةِ الرياضيات. إنّ هذا السلوكَ يخالِفُ طبيعةَ الحياة. فمثلما أنّ أذهانَ الملايين من الكائناتِ الحيةِ لا تعرف الرياضيات، فلا يمكن حصر ذهن الإنسان، الذي هو مجموعُ تلك الأذهان الحية، في الرياضيات. علماً أنّ الرياضيات التي تعدّ اختراعاً سومرياً، قد استُعمِلت في البدايةِ لحسابِ فائضِ الإنتاج كوظيفةٍ أساسية. ولكن يكاد منطقُ الإنسانِ يُختَزَلُ اليوم إلى مستوى آلةٍ حاسبة. إذن، والحال هذه، كيف، وبمَ يمكننا استيعاب أذهانِ الملايين من الأحياء؟! وحركةِ الجُسَيمات ما تحت الذرّية، والأجسامِ الفَلَكية غيرِ القابلة للقياس؟ واضحٌ أنّ قوةَ علوم الرياضيات لا تكفي لفهمِ هذَين الكونَين الأصغر والأكبر. أو على الأقل، من الضروري أنْ نترك البابَ مفتوحاً لأساليبَ جديدةٍ بشأنِ المعاني، كي لا نخنق أنفسنا سلفاً بالعقائد الجامدة.

- لا يمكنُ استصغار شأنِ الحدسيات الحية. فكلُّ ما هو موجودٌ باسم الحياة مخفيٌّ في تلك الحدسيات. هذا ولا يمكن الادّعاء بافتقارِ الكونَين الأصغرِ والأكبرِ أيضاً لها. بل إنّ الرأيَ الأقربَ إلى الصوابِ هو ذاك القائلُ بأنّ هذه الحدسيات خاصيةٌ أوليةٌ للكون. ولهذا السبب، لا يمكنُ تقليلُ أو تفنيدُ شأنِ الأسلوبِ الميثولوجي في فهمِ الكون. فقد يساهم في مساعَدتنا على فهم الكون بقدرِ الأسلوبِ العلمي بأقل تقدير.

- يُعتبَر الانتقالُ مِن المفهوم الميثولوجي صوب المفهوم الديني الدوغمائي مرحلةً عظمى مرتبطةً عن كثب بالتَحَوُّلِ الحاصلِ داخل المجتمع اعتماداً على الهرمية والتمايز الطبقيّ، وانعكاسِه على الميدان الذهنيِّ أيضاً. إنَّ علاقة التسلّطِ والاستغلال تشيرُ إلى الحاجةِ إلى القوالب المحصَّنة عن المساءلة. أي أنَّ القدسيةَ وكلامَ اللّهِ والحصانةَ وغيرها

من القيم المسَلَّم بها، وكذلك القوالبُ الجامدةُ الممنوحة؛ كلُّها أمورٌ تتعلق بمواراةِ الاستغلال والسلطة، وبصونِ المصالح الطبقية، وبشرعنةِ الهرميةِ والسلطة. فبقدرِ ما يَسُود الحكمُ الصارمُ في مفهومٍ ما، يَكُونُ الاستبدادُ والطغيان والاستغلال مخفياً فيه بالمِثل.

التعاطي الدينيّ

- يأتي التعاطي الدينيُّ في المرتبةِ الثانيةِ بعد التعاطي الميثولوجيِّ من حيث كونِه الأكثرَ تأثيراً لعصورٍ طويلة في تاريخ البشرية. ويمكن الابتداءُ به مع التاريخ المدوَّن، أو قَبَيله أو بُعَيده.

- التعاطيَ أسلوبٌ بِحَدِّ ذاته. فالقاعدةُ الأساسيةُ في التعاطي الدينيّ، هي الحراكُ بموجب الكلام المُعزى إلى الآلهة التي تُعَدُّ فوق الطبيعةِ والمجتمع، بصفتِها غايةَ الحياة وسبيلَ الوصول إلى الحقيقة. وانحرافُ المرءِ أو حَيدُه عن هذا الكلام، يعني تحمُّلَه كل أنواع الأشغالِ الشاقة، وعيشَه شتى ضروبِ العبوديةِ وهو على قيد الحياة؛ بينما يكون مصيرُه بعد الماتِ جهنم وبئسَ المصير.

- إننا على عتبةِ عهدِ إنشاءِ الآلهة المقَنَّعة. ويمكن التحديس والتلَمُّس بكلِّ سهولة أنّ هذا الإله ليس في الحقيقة سوى ذاك الزعيمُ أو المستبِدُ الجبارُ الذي يُصدِر الأوامرَ بحقِّ المجتمع، ويُطَبِّقُ الاستغلال. والتقنُّع المفرِط مرتبطٌ عن كثب بتشويشِ إدراكِ الإنسان ومخاتَلةِ فهمه. وبالأصل، فتسميةُ الطغاةِ المستبدين لأنفسهم في بداياتِ ظهورهم بالمِلك– الإله تُعبِّر عن هذا الخصوص كفاية.

- ما نصادفه عَقِبَ ذلك كواقعٍ تاريخي سائد، هو قوْنَنةُ أقوالهم، وإبرازُها على أنها الحقيقة المطلقة. وكلما جَذَّر القمعُ والاستغلال، استحالَ الأسلوبُ الديني الدوغمائي مساراً

"إنّ تضارُبَ الأقاويل مع الواقعِ الموضوعي، لا يعني أبداً استحالةَ تطويرِ التفاسير القيِّمة فيما يتعلق بمضمونها. بل يمكن القيام بشروح ذات معانٍ ثمينة للغاية بحق تلكَ الأقاويل (الميثولوجيات)، بحيث مِنَ النادرِ جداً فهمُ التاريخ من دون هذه التفسيرات. فلا غنى لنا عن الميثيولوجيا كأسلوبٍ رئيس ومهمّ ، لفهمِ المجموعاتِ البشرية التي عاشتَ أطولَ فتراتِ حياتها على شكلِ أقاويل"

رئيسياً منقوشاً في ذهن الإنسان. أو بالأحرى، تم إنشاؤه كواقعٍ اجتماعي راسخ. وبهذا الأسلوبِ أُمِّنَ خنوعُ الإنسانية لنيرِ عبوديةٍ طويلةِ الأمد، لتتخبطَ تحت وطأةِ حُكمِ المستبدين الطغاة المتقمِّصين قناعَ الربّ، والذين حوَّلوا الحياة إلى قحطٍ شحيحٍ يكتمُ الأنفاس.

- إنَّ أهمَّ جانبٍ في الأسلوبِ الديني بصفتِه طريقةً للتعودِ الذهني، يتأتى من تجذيره لمفهومِ القدريّة، ومن شرعنته للخضوع العبوديِّ البارزِ لدى الحشود البشرية حصيلةً التقاليدِ الصارمةِ على مرِّ آلافِ السنين.

- لقد غدا الاستغلالُ الكارثي ونشوبُ الحروبِ المُهَوِّلة أمراً ممكناً بفضلِ هذا الأسلوب. أي العيش بموجبِ الكلامِ المقدس وأمرِ الرب! لا ريب في أنَّ هذا الأسلوبَ سهَّل الأمورَ كثيراً على الممسكين بدفة الحكم، حيث تأسَّسَت جدليةُ الراعي – الرعاع (القطيع). وأُبرِزَت

العبوديةُ على أنها مرحلةٌ ضروريةٌ لا بدّ منها في سياقِ تطورِ المجتمعات. بل وتَعدى الأمرُ ذلك ليَصِلَ درجةً يكادُ يُجَمَّدُ فيها الواقعُ الطبيعيُّ اعتماداً على مفهومِ المجتمع الثابت الذي لا يتغير. فمن جانب، ثمة مفهومُ المجتمعِ والطبيعة اللذَين صُيِّرا خاملَين للغاية؛ ومن جانبٍ آخر، ثمة مفهومُ الإلهِ المتفوقِ والمتعالي على كل شيء، الفعّالِ للغاية، خالقِ كلِّ شيء، الآمِرِ الناهي، والحاكمِ المتحكمِ بكلِّ شيء. وحَوَّلَ ذلك إلى معادلةٍ جدليةٍ حتميةٍ مطلقة. ولن نكون مبالغين كثيراً، لو قلنا :إنّه تمَّ حُكمُ الإنسانيةِ والتحكمُ بها من خلالِ هذا الأسلوبِ أو المفهومِ طيلةَ العصورِ الأولى والوسطى.

- يكمنُ الجانبُ الأخطر للأسلوبِ الدوغمائيِّ في فرضِهِ على البشرية مفهومَ الطبيعةِ الجامدة والخاملة غيرِ القادرة على الحركة إلا بأوامر الإلهِ المقدسِ من الخارج، عوضاً عن مفهومِ الطبيعة الحيوية المتطورةِ ذاتياً وتدريجياً. والنتيجةُ الأهمُّ الناجمةُ عن ذلك ضمن الميدان الاجتماعي، تتمثل في النظر إلى وجودِ البنى الخاملةِ عينِها، وإلى حُكمِ الراعي للرعيةِ من الخارج على أنه أمرٌ جدٌّ طبيعي. هذا الأسلوبُ الأقدم، والذي اقتضى وجودَ شخصانيةٍ متفوقةٍ ومتعالية على كلِّ شيء، قد وصَلَ ذروتَهُ في العصورِ الوسطى، حيث غدا العالَمُ الماديُّ مُبهَماً ومحفوفاً بالغموض، بل واعتُبِرَ وكأنه غيرُ موجود. في حين أصبحَت الدنيا محطةَ حياةٍ انتقاليةٍ عابرة، واعتُبِرَت الغاياتُ والمُثُلُ الراسخةُ والأبدية شكلَ الحياةِ الأساسيّ. ومَن عَرِفَ القوالبَ الدوغمائية والمسلَّماتِ والكليشيهات أكثر، وعُدَّ عالِماً، وتقلَّدَ أرفع المراتب. إنَّ طريقةَ التفكيرِ هذه المتَّصفة بتضادها مع الأسلوب الميثولوجي، قد تحكَّمَت بوجهةِ مسارِ التاريخ، ولعبَتْ بالتالي دوراً رئيسياً في كبحِ جماح الحياة، والحكمِ عليها بالأسر والذلِّ والهَوان.

- أما الجانبُ الإيجابي في الأسلوب الديني، فيتجسد في قطعه أشواطاً ملحوظةً في ظاهرة الأخلاق ضمن المجتمع. ففي هذه المرحلة، وفي ظل هذا الأسلوب، تعرضَت ثنائيةُ «الفضيلة – الرذيلة» لتمايزاتٍ كبرى، فقُيِّدَت بأحكامٍ قطعيةٍ صارمة.

- الخاصيةُ الأساسية الملفتةُ للنظرِ في هذا الأسلوب، هي مرونةُ ذهنِ الإنسان، وبالتالي، اتسامُه بالمزيةِ التي تُمَكِّنُ من تأهيله ورسمِ ملامحه. وهذه الذهنيةُ التي تُمَيِّزُ الإنسان عن عالَم الحيوان، إنما تشكِّل الأرضيةَ الأساس للتطورِ الأخلاقي.

- دون الرجوعِ إلى الأخلاق، لا يمكنُ تحقيقُ المجتمعيةِ أو القيامُ بالإدارة والتوجيه. فالأخلاقُ في الأسلوب تكوينةٌ وحقيقةٌ وإدراكٌ إداريٌّ لا غنى عنه بالنسبة للمجتمع. ومن دونِ الدخول في الجدال حول مضمون الأخلاق الإيجابي أو السلبي، فإنَّ التطورَ على هذا الصعيد يُعتبَر ضرورةً اضطرارية للوعي الاجتماعي.

- لا شك في أنَّ الأخلاقَ وعيٌ ميتافيزيقي، ولكنّ هذه الخاصية لا تجعل منها موضوعاً تافهاً أو منبوذاً. ولن نبالغ إذ ما تحدثنا عن تفوق الأخلاق الدينيةِ نسبةً إلى الأخلاق البدائية السائدةِ في العصر الميثولوجي.

- إنَّ مجرَّدَ التفكيرِ بالمجتمع البشري مجرداً من الأخلاق، يعني انقراضَ الجنسِ البشري، أو القضاءَ على بيئة الحياةِ التي تحيطُ به. وربما يعدّ ذلك أقرب إلى الديناصورات التي انقرضت لأنها لم تُبْقِ شيئاً من النباتِ الذي يُمكنُها أنْ تتغذى منه. فالأمر سيّان، ويخرج الموضوعان من البوابةِ نفسِها، ويؤلان في نهايةِ المآلِ إلى سقوطِ الإنسان في حالةٍ يغدو فيها نوعاً عاجزاً عن تأمينِ سيرورته. مع العلمِ أنّ التدَنِّيَ الفظيعَ للأخلاقِ هو السببُ وراء تفاقمِ قضايا البيئة في راهننا لدرجةِ

الوصولِ بالبشريةِ إلى حافةِ الهاوية.

الفلسفة:

- لا يطغى الأسلوبُ الدوغمائي التوكيديُّ على الأديان الأساسية فحسب، بل ويسود في الفكر اليوناني الكلاسيكي أيضاً، حيث يحتل الأسلوبُ الديالِيكتيكي والمواقفُ الموضوعية الماديةُ حيزاً محدوداً جدّاً فيه. فمثالياتُ أرسطو وأفلاطون كأساليب سائدة، غدت الدعامةَ الأمتنَ للأسلوب الديني الدوغمائي في العصور الوسطى. فكَونُ أفلاطون فيلسوفَ المثاليةِ بل ومبدعَها الأعظم، أو القبولُ بأنه كذلك؛ قد جعلَ منه العزيزَ المحبَّبَ والمقرَّبَ إلى المواقف النبوية. إنه الفيلسوفُ الأقرب إلى النبوة.

- تُعتَبَر تقاليدُ النبوةِ في الأديان الثلاثة الكبرى القوةَ المؤسِّسةَ للأسلوبِ الوثوقيّ الدوغمائي المُنقَّى جيداً من الشوائب. والجانبُ الطافحُ في هذه الأديان الثلاثة يتمثل في كونها مؤسِّسةً للأخلاق الميتافيزيقية. وتصل الأخلاقُ ذروتَها وتُحقِّق رواجَها مع بوذا، زرادشت، كونفوشيوس، وسقراط. ونخص بالذكر هنا ثنائيةَ الفضيلة – الرذيلة التي اعتُبِرَت في الزرادشتية فلسفةً أساسيةً مكافِئةً لقرينة النور – الظلام. وقد قطعَت الإنسانيةُ مسافاتٍ أخلاقيةً شاسعةً وعظيمة في تاريخها، عبر شخصياتِ هؤلاء الحكماء القيِّمين.

المنهج العلميّ

- يلعبُ «المنهجُ العلميُّ» دوراً مهمّاً في تصييرِ الرأسماليةِ نظاماً عالمياً. وفي هذا الأسلوب الجديد، الذي يُعتبَر كلٌّ مِن روجر، فرانسيس بيكون، وديكارت رواداً له، يتم التمييز بعنايةٍ فائقةٍ بين الذات والموضوع. في حين، لم يكن لهم مكانٌ بارزٌ في الأسلوب الدوغمائي القُرُوسطيّ، بل تميزوا بفاعليةٍ

إنّ تَرْكَ ذهنِ الإنسان بلا يوتوبيا، بلا ميثولوجيا (بلا ملاحم، بلا أساطير) كتَرْكِ البدن بلا ماء. وهنا ندرك بشكلٍ أفضل أنّ ذهن الإنسان، الذي هو مجموعُ أذهان جميعِ الكائنات الحية، لا يمكن اختزاله بغناه الشاملِ ذاك إلى حدودِ العقلية التحليلية التي تلجأُ فقط إلى لغة الرياضيات. إنّ هذا السلوكَ يخالِفُ طبيعةَ الحياة

خافتةٍ خامدة. (الذاتانية الأصح الذاتية والموضوعانية الأصح الموضوعية)

- شهدَت أوروبا الغربيةُ صحوتَها مع النهضة، قد فَتَحَتْ آفاقَ عصرٍ جديدٍ في مظهرِ الذات والموضوع، وذلك بالترافق مع ثورةِ التنويرِ الفلسفيِّ وتحقيقِ الإصلاحِ في المسيحية.

- غدت ذاتيةُ الإنسان وموضوعيةُ العالَم تشكلان حجرَ الزاويةِ بصفتِهما عاملَين أوليَّين في الحياة.

- تتهاوى أهميةُ الأسلوبِ الدوغمائي العاملِ أساساً بكلام الرب، إلى جانبِ تدني الأخلاق. أو بالأحرى، يتم الانتقال من عصرِ الملوك المتسترين والآلهةِ المقَنَّعةِ القديمة إلى حقبةِ الملوكِ العراةِ والآلهةِ غيرِ المقَنَّعة.

- طرازُ الاستغلال الرأسماليِّ بات المحفِّزَ الأساسيَّ المؤدي إلى ذلك الانتقال.

- الاستغلالُ المتحققُ باسمِ الربح، يستدعي

> **كلّ ما هو موجودٌ باسم الحياة مخفيٌ في الحدسيات. هذا ولا يمكن الادّعاء بافتقارِ الكونَين الأصغرِ والأكبرِ أيضاً لها. بل إنّ الرأيَ الأقربَ إلى الصوابِ هو ذاك القائلُ بأنّ هذه الحدسيات خاصيةٌ أوليةٌ للكون. ولهذا السبب، لا يمكنُ تقليلُ أو تفنيدُ شأنِ الأسلوبِ الميثولوجي في فهمِ الكون. فقد يساهم في مساعَدتنا على فهم الكون بقدرِ الأسلوبِ العلمي بأقل تقدير**

تغييرَ وعي المجتمع من جميع المناحي بالضرورة. وتُعَدُّ هذه الضرورةُ أو الحاجةُ المؤثِّرَ الأسَّ الذي أفضى إلى ولادةِ "الأسلوب العلمي".

- لقد باتت الإنسانيةُ والطبيعةُ وجهاً لوجهٍ هنا أمام استغلالٍ أعظمي. وسوف يُعادُ إنشاءُ وهيكلةُ ضميرِ (خُلُقِ) المجتمعِ بإطراءِ تغييرٍ ذهنيٍّ شاملٍ عليه، لأنه لن يَقبل الاستغلالَ والاضطهادَ بسهولة. ولهذا السببِ بالتحديد، سيقع الدورُ الأكبرُ على عاتق "الأسلوبِ العلميِّ" كسببٍ أساسيٍّ صائب.

- الكل على علمٍ كيف مرَّ ديكارت بِمَرَضِ التشكيك الأكبرِ بكلِّ شيء، في سبيل تحقيقِ تحوُّلٍ جذريٍّ متأصلٍ في هذا الخصوصِ بالذات، فلجأ إلى مقولته الشهيرة "أنا أفكر، إذن أنا موجود".

- أبدى بيكون وأتباعه عنايةً فائقة بـ"الموضوعية". وبينما فتحَ الأولُ البابَ على مصراعيه لإمكانية تفكيرِ الفرد بشكلٍ مستقل، أشهَرَ الثاني وأتباعُه الأبوابَ أمامَ إمكانيةِ تصرُّفِ الفرد بـ"المادةِ الشيء" كيفما يشاء.

الموضوعيّة والموضوعانيّة الشيئيّة

- لا بد من إعادةِ تعريفِ مصطلحِ «الموضوعية» الذي يرتكزُ إليه الأسلوبُ العلمي، وشرحِه بعمقٍ غائر. وفيما عدا الفكر التحليلي، فتعريفُ كلِّ الطبيعةِ بأحيائها وجمادها على أنها «مادة شيء»، بما في ذلك جسدُ الإنسان؛ قد لَعِبَ دورَ المفتاحِ في استغلالِ الرأسمالية للطبيعة والمجتمع، وتحكمِها بهما. ذلك أنه من غير الممكن تحقيق التحول الذهني اللازم لأجلِ العبورِ نحو العصر الحديث، من دون تجذيرِ التمييز بين الذات والموضوع، وإضفاءِ طابعٍ شرعيٍّ كبيرٍ على ذاك التمييز.

- بينما تكون الذاتُ الفاعلةُ العاملَ الشرعيَّ الأكثر تداولاً وقبولاً في الفكر التحليلي، يُعتبَر (الموضوعُ الشيءُ) العنصرَ "المادي" الملموسَ الذي يُمَكِّنُ من القيامِ بكلِّ أنواعِ المفارقات والإشاعات عبره. وبمعنى آخر، فهو يمثل "الموضوعانيةَ". وقد نَشَبَت صراعاتٌ مريرة بسبب هذا التمييز. إذ يجب عدم تقييم الصراع بين الكنيسة والعِلم كمجردِ نزاعٍ على "الحقيقة". حيث تستتر نضالاتٌ وكفاحاتٌ اجتماعية عظمى وراءه. فما حصلَ هو بأحدِ معانيه ضربٌ من ضروبِ الصراع بين المجتمع القديم المشحون بالأخلاق، والمجتمعِ الرأسمالي العاري الساعي لنزع الستارِ الأخلاقي عن ذاته. أي أنَّ المسألةَ ليست مجردَ نزاعٍ بين الكنيسة والعِلم. بل إنّ موضوعَ الحديثِ هنا، وبشكلٍ أعم، هو صراعٌ بين النظام الذي حَظَر الاستغلال، ولَعَنَه، واعتبرَه جرماً لا يُغتفَر، وذلك بالتأسيسِ على القِيمِ التي صانَها وجدانُ المجتمع وضميرُه طيلةَ سياقِ التاريخ؛ وبين المشروعِ الاجتماعي

الرأسمالي الجديدِ الساعي لفتحِ الأبواب على مصاريعها أمام استغلالِ المجتمعِ والتسلطِ عليه، دون الاعترافِ بأيِّ رادعٍ أو عيبٍ أو لعنة. و"الاتجاه الموضوعانيّ" هو المصطلح المفتاح لهذا المشروع.

- تتخفى تحت مفهومِ "الموضوعانية" ذاك الذي ينادي به "الفكرُ التحليليُّ" فكرةٌ مفادها: ما من "قيمةٍ" لا يمكن إخضاعها للعملية. إذ يمكن استغلال كلِّ ما في الطبيعة من حيٍّ وجماد، والتحكم بها وتملُّكها، بحيث لا يقتصرُ الأمرُ على كدحِ الإنسان فحسب، بل ويمكن البحث والتنقيب فيها، والتمتع بحقِّ استغلالها بكافةِ الأشكال. وفيما عدا الذواتِ المنتقاة، يحق النظر إلى كلِّ شيءٍ على أنه ميكانيكيّ وآليّ، وبالتالي، يحقُّ التحكم به واستغلاله بلا رحمةٍ أو رأفة.

- أما الفردُ المواطنُ ومجتمعُ الدولة القومية، المنظَّمان كذاتَين أساسيّتَين في مواجهة الطبيعة والمجتمع، فهما "ابتكاران جديدان" يتميزان بطاقةٍ جنونيةٍ قادرةٍ على فعلِ كلِّ شيءٍ بصفتِهما إلهَين جديدَين غيرَ مُقَنَّعَين؛ بدءاً من ارتكابِ الإبادات الجماعية، ووصولاً إلى إقحامِ البيئة في حالةٍ لا تُطاق.

- وهكذا، بات "اللوياثانُ» القديمُ مسعوراً، وكأنه ما من شيءٍ إلا ويستطيع التحكمَ به أو تمزيقه إرباً إرباً. من المهم الاستيعاب جيداً أنّ النظرَ إلى المنظورِ الموضوعانيِّ الشيئيِّ على أنه مصطلحٌ نزيهٌ وشفافٌ إلى أبعدِ حدٍّ في الأسلوب العلمي، قد تَسَبَّبَ بكوارثَ مُهلِكة، وانحرافاتٍ كبرى، بل وارتكابِ مجازرَ مرَوِّعةٍ تضاهي ما قامت به محاكمُ التفتيش القرَوَسطية. يجب التشديد، وبعناية، على أنّ الموضوعانيةَ الشيئانيةَ ليست مصطلحاً علمياً نزيهاً على الإطلاق.

- لا يمكننا إيضاح أسبابِ عُطب وإفلاس وشلل علم الاجتماع في راهننا، ما لم نستوعب أنّ «الأسلوب العلمي» يعدّ وسيلةٌ لأكبرِ تقسيمٍ طبقي بحدِّ ذاته.

- لـ»الأسلوب العلمي الموضوعاني» دورٌ معيِّن وحاسم في إفلاسِ «الاشتراكيةِ العلمية»، التي زُعِمَ أنها علمُ الاجتماعِ النموذجيُّ والأفضل؛ والتي اعتَبَرتُها كذلك في فترةٍ من الفترات.

- التفسخُ، ومن ثم الانهيارُ الذي لَحِقَ بالاشتراكية العلمية وبكافةِ مشتقاتها، أو مرورُها بفترةِ تحوُّلٍ من رأسماليةِ الدولة المباشرةِ إلى الرأسماليةِ الخاصة، بعد اجتيازها مرحلةً طويلةً من التطبيق العمليِّ وتشييدِ النظام الاجتماعي؛ إنما يرجع في أساسه إلى «الأسلوب العلمي» ومفهومِه في «التشيؤ». وإلا، ما مِن شكٍّ بتاتاً في مدى صدقِ وحُسن نوايا المناضلين على دربِ الاشتراكيةِ بإيمانٍ راسخٍ وجهودٍ حثيثة.

- إنّ البنى العلمية كافةَ التي تُنيطُ التمييزَ بين الذات والموضوع بدورٍ أساسيّ، هي أسيرةُ استقلالياتها، لدرجةِ أنها تزعم بتفوقها على ضروبِ القيمِ كافةً والمُثُل المجتمعية.

- لربما أنّ الانحرافَ الأكبر الحاصلَ باسم العلم مخفيٌّ في هذه المزاعم. ولربما لَم يشهد التاريخُ التحامَ العلم مع النظام المهيمن في أيِّ عصرٍ مثلما هو عليه في العصر الرأسمالي. فدنيا العلم، بدءاً من أسلوبه إلى مضمونه، هي أعظمُ قوةٍ إنشائيةٍ لدى النظام، وهي القوةُ التي تَصونُه وتُؤَمِّنُ شرعيتَه أيضاً.

- إنَّ الأسلوبَ العلمي للعصر الرأسمالي، وبالتالي، كافةَ العلوم الناشئة ضمنه بناءً على هذه الخلفية، تُشكِّل القوةَ الأساسيةَ التي تُؤَمِّنُ وتؤدي إلى تعزيزِ آليةِ الربح في النظامِ من جهة، وإلى تكريسِ الحروبِ والأزماتِ والآلامِ والمخاضاتِ والمجاعةِ والبطالةِ ودمارِ البيئةِ والانفجارِ السكانيّ، بحيث شَمَلَت

”يكمنُ الجانبُ الأخطر للأسلوبِ الدوغمائيّ في فرضِه على البشريةِ مفهومَ الطبيعةِ الجامدة والخاملة غيرِ القادرة على الحركة إلا بأوامر الإلهِ المقدسِ من الخارج، عوضاً عن مفهومِ الطبيعةِ الحيوية المتطورة ذاتياً وتدريجياً. والنتيجةُ الأهمُّ الناجمةُ عن ذلك ضمن الميدان الاجتماعي، تتمثل في النظر إلى وجودِ البنى الخاملةِ عينها، وإلى حُكمِ الراعي للرعيةِ من الخارج على أنه أمرٌ جدٌّ طبيعي“

كافةَ قطاعاتِ المجتمع وحلقاتِهِ الداخليةِ والخارجية. وما عبارةُ «العلمُ قوة» الموجَزَة سوى تعبيرٍ عن الافتخار بهذه الحقيقة.

- قد يقال: وما الضَّيرُ من ذلك؟ إنّ النظامَ المتحصن بدرعِ النزاهة والشرعية، يكون قد عَبَّرَ عن أكثرِ المواقفِ طبيعيةً عندما ينادي بهذه الأحكام بكلِّ سهولة.

- إذا كانت الحداثةُ الرأسمالية في راهننا تُنذِرُ باستحالةِ الاستمرار في كافة مجالاتها الأساسية، فلـ»الأسلوب العلمي» الذي ترتكز إليه النصيبُ الأكبرُ في ذلك. لذا، فالأمر المهمُّ والمصيري هنا هو توجيه النقد إلى الأسلوب الذي يشكل الدعامةَ الركن للنظام، وإلى «الضوابط العلمية» المطروحة.

- إنَّ نقطةَ الضعف الأساسيةَ في الانتقادات الموجَّهةِ إلى كافة الأنظمة، بما فيها انتقاداتُ الاشتراكية، تكمن في لجوئها إلى نفسِ الأسلوبِ الذي ترتكز إليه تلك الأنظمةُ في تحقيقِ وجودها.

- الحقيقةَ تشيرُ إلى أنّ انتقادَ الواقعِ الاجتماعي الناشئِ اعتماداً على نفسِ الأسلوب الذي يستند إليه هذا الواقع، لا يُنقِذ النُّقّادَ من الوقوعِ في نتيجةٍ مشابهة.

- من المعروفِ جداً أنَّ السائرين على نفسِ الدروب المرسومةِ سلفاً، لا يمكنهم سوى الوصولِ إلى القرى أو المدن التي تؤدي إليها تلك الدروب. وهذا تماماً ما حصل لمناهضي النظامِ القائم، بما فيهم أصحابُ الاشتراكيةِ العلمية.

الذات والموضوع

- إنني أُبدي اهتماماً بالغاً في تقييماتي للتمييز بين الذات والموضوع بشكلٍ أساسي، إزاء تناوُلِ الخصائصِ والمزايا الطبقيةِ والاجتماعية.

- ذلك أنَّ هذَين المصطلحَين الباديَين وكأنهما نزيهان، هما السببُ الأنطولوجيُّ (الوجوديُّ) لنشوءِ الحداثة التي غدت مستحيلةَ الاستمرار.

- لا علاقةَ لهذَين المصطلحَين بالمنجزاتِ العلمية كما يُعتَقَد، وليسا مُنَزَّهَين عن التطبعِ بالميزات النسبية. بل إنهما مشحونان بمفهومٍ ثبوتيٍّ وقالبيٍّ بصدد الطبيعة والذات، بقدر ما هو عليه الأسلوبُ الوثوقيّ الدوغمائي السائدُ في العصور الوسطى بأقل تقدير.

- السعيُ لفهمِ الحياة عبْرَ التمييز العلني بين الذات والموضوع، يؤدي بالحياة إلى الاختناق المادي، ويجعلها رجعيةً ومُهَمَّشةً أكثر مما كانت عليه حياة الإنسان في العصور الوسطى.

- حياةُ الإنسان التي كتَمَ الأسلوبُ العلميُّ

أنفاسَها، وحَرمَها من الحرية؛ قد تشتتت إرباً إرباً في الحداثة الرأسمالية، اعتماداً على التمييز بين الذات والموضوع، وتعرَّضَت كافة مناحيها لتصدُّعاتٍ متأصلة.

- إنَّ القيمة العظمى المفقودةَ مع تجزُّؤِ التكاملِ إلى أدقٍّ خلاياه الأوليةِ بسبب "الضوابطِ العلمية"، هي تكامُلُ ووحدةُ الحياة الاجتماعية المسجَّلةِ ضمن الأبعادِ الزمكانية.

- ما من شيءٍ في راهننا أخطرُ من "الحياةِ المحصورة"، ومن مأساةِ الحياة المبتورة من جوهرها ومقوِّماتها الزَّمَكانية. إننا وجهاً لوجه أمام أشدِّ المصائرِ بؤساً.

- السرطنةُ المجتمعية ليست تصوراً استعارياً من صُنعِ الخيال، بل هي التفسيرُ الأمثل للنظام القائم فيما يتعلقُ بالحياة.

- انتقاداتي هذه لا تعني أنني أقترحُ أسلوباً جديداً. كما أنه لا يمكن الاستنتاجُ من كلّ ذلك أنني أقترحُ عدميةَ الأسلوب. ذلك أني متيقظٌ للخصائص التي تعبِّر عنها السبلُ والأساليبُ والقوانين الملتزَمُ بها في حياةِ الإنسان، بل وفي حياةِ الطبيعة بأحيائها وجماداتها. كما أُولي قيمةً ثمينةً للطريقة والأسلوب.

- بينما يَكُون مفهومُ الأسلوبِ والقانون مشحوناً على الدوام بمخاطِرِ المضمون الحتمي المطلق، فإني مضطرٌّ للتشديد على أنّ الإصرارَ والثبوتَ في ذلك يُفضي إلى خطرِ إنكارِ التطور والحرية.

- لا أتصور وجودَ كَونٍ بلا أساليبَ أو قوانين. لكنني لا أؤمن أيضاً بضرورةِ اتخاذِ ميكانيكيةِ ديكارت أساساً، والتي تنظر إلى الكون كَنَسَقٍ رياضيٍّ محض. ولديّ شكوكٌ عميقة تشيرُ إلى أنّ المنطقَ المرتكزَ إلى الرياضياتِ والقانونِ هو منطقٌ مَرَضيّ. بل وألاحظُ شبهاً كبيراً بين الرهبان السومريين الذين اخترعوا الرياضيات والقانون، وبين مؤسِّسي الذهنيةِ العلمية. إني على قناعةٍ بأنَّ كلَيهما يمثِّلان المدنية عينها.

- مناهَضةُ الأسلوب لا تعني إنكارَه كلياً، ولا البحثَ عن أسلوبٍ بديل. من الضروريِّ القولُ: إنّ الانفتاحَ أكثر لإمكانيةِ التفسير الأقرب إلى خيارِ الحياة الحرة، يتميز بمعانيَ أسمى. ولَئِنْ كانت الغايةُ هي بلوغُ معنى الحياة، فعلى الأسلوبِ حينها أنْ يكونَ وسيلةً تُفضي إلى ذلك. فالدولةُ الكبرى والإنتاجُ الصناعيُّ الضخمُ لوحدهما، قد ألحقا الحروبَ والدمارَ بالبشرية، بدلاً من السعادةِ والرفاه.

- لدى اتحادِ الإنتاجِ مع القوة، يتزايد الابتعادُ عن المعنى. وفي جميع الأوقات يأتي أصحابُ الادخار في مقدمة الشرائح البليدة التي لا تُبدي التفهُّمَ للحياة.

- في حين يُنظَر إلى الادخار بعينِ الشكِّ والريبة دائماً داخلَ المجتمع. إنّ الخلاصَ من مشكلةِ الأسلوب، أو تخطيها والتغلبَ عليها، يتضمن معانيَ متأصلة، حيث يستوجب محاسبةَ العصرِ والمدنية المُعاشَين. ولطالما نصادف أمثلةً ضاربةً للنظر عن ذلك على مرِّ الأزمنة التاريخية. سيذهب أيُّ بحثٍ عن المخرج هباءً، ما لَم توجَّهْ الانتقاداتُ الراديكالية والجذريةُ إلى الرأسمالية وأساليبها وضوابطها العلميةِ التي تَمْهُرُ جميعَ مؤسساتِها وقوالبها العصرية بطابَعِها؛ وما لَم نتوجهْ بالتالي إلى إعادةِ هيكلةِ العلم الذي يُمَكِّنُ من الدنوِّ أكثر فأكثر من الحياة الحرة.

- لا أنوي تقديمَ أيةِّ مساهَمةٍ لثنائيةِ الحداثة – ماوراء الحداثة. ومع احترامي للعديد من المواقفِ البارزة في هذا السياق، ولكن، يتعينُ عليّ الإشارةُ إلى أنّ القناعةَ القائلةَ ببُعدِ تلك المواقفِ عن صُلبِ المُشكِلة، لا تنفكُّ رائجةً حتى الآن. ولا زلتُ أرى ما بعد الحداثةِ

استمراراً للحداثة بأغلفةٍ وأقنعةٍ جديدة.

- إني مضطرٌّ لتقديمِ شروحي باسمِ مصطلح "نَسَق الحقيقة". فعوضاً عن البحث عن أسلوبٍ بديل، فإنني أبحث من خلالِه عن سبيلٍ للنفاذِ من القضايا المستشريةِ الناجمةِ عن الحياة التي أُبعِدَت عن قيمِ الحرية، وأُثقِلَت بالزيفِ والضلال.

- لا ريب أنه لطالما جرى البحثُ عن الحقيقة في المجتمع البشري، وبرزَت العديدُ من الخيارات كجوابٍ لهذه الأبحاث، بدءاً من الميثولوجيات إلى الأديان، ومن الفلسفة إلى العلوم الراهنة. ومثلما لا يمكن التفكيرُ بالعيش في حياةٍ خارجَ إطارِ هذه الخيارات، فلا يمكن إنكارُ وجودِ واقعٍ مؤلم وهزليٍّ يفيد بأنَّ هذا الكَمَّ المتراكمَ من القضايا العالقةِ نابعٌ من تلك الخَيارات. أي، ثمة ثنائيةٌ تقول: العيشُ معها وبدونها محال.

- لكنَّ الحداثةَ التي نحياها ذات فوارق فريدةٍ من نوعها، حيث بلغَت حدودَ استحالةِ الاستمرار في العديد من الميادين.

- إذا ما سعينا لتعدادها بشكلٍ خاطفٍ سنلاحظ: التضخمَ السكانيّ المفرط، نفادَ الموارد، دمارَ البيئة، التصدعاتِ الاجتماعيةَ المتعاظمةَ بلا حدود، الروابطَ الأخلاقيةَ المنحلَّة، انقطاعَ الحياة عن الزمان والمكان، الحياةَ المفتقدةَ لجاذبيتها وشاعريتها تحت وطأةِ التوتراتِ الكبرى، أكداسَ الأسلحة النوويةِ القادرة على إحالة الدنيا إلى صحراءٍ قاحلة، وضروبَ الحروبِ الجديدة اللامتناهية والمستفحلة في البنية الاجتماعية برمتها. كلُّ ذلك يُذَكِّر بيومِ القيامة والمحشر الحقيقي.

- إنّ الوصولَ إلى هذه المرحلة بِحَدِّ ذاته مؤشِّرٌ واضحٌ على إفلاسِ أنساق حقيقتنا القائمة. أنا لا أَعرِضُ لوحةً تشاؤمية، ولكننا لا نستطيع البقاءَ صامتين، ولا نتمالكُ أنفسنا عن الصراخ بأعلى صوتٍ إزاء الحياة المنتهية داخلَنا وأمامنا. علينا ألا نفقد الأمل، وألا نخنق أنفسنا بذرفِ الدموع. ولكن، علينا البحثُ عن الحل.

- هل كان بحثنا عن الحقيقة عملاً تافهاً أم فارغاً؟ أم أننا كنا نمر بعصرِ القوى الظلامية؟ أين، ومتى ارتُكِبَت الأخطاءُ الفادحة؟ أين، ومتى تشبثنا بالأفكارِ الدوغمائية الجامدة؟

- أنا واثقٌ من أنّ الحداثةَ الرأسمالية انتهلَت النسبةَ الكبرى من قوتها من تكويناتِ المجتمع المخادِعة والمضلِّلة. لا يمكن إنكارُ حصولِ كفاحاتٍ باسلةٍ تجاه ذلك، ولكن، واضحٌ للعيانِ ما حلَّ بالنظمِ التي يُزعَمُ أنها موفَّقةٌ وظافرة. إذن، والحال هذه، هل هذا العالَمُ هو النهائيُّ والأبدي، مثلما يدَّعي النظامُ القائم؟ أَمِن غيرِ الممكنِ وجودُ عالَمٍ آخر؟ إني منتبهٌ لتكراري الأسئلة المطروحة يومياً. ولكن، يجبُ عدم الاستهتار بجهودِ الكشف عنِ الوجه الباطني للكثير من الظواهر، بدءاً من الوقوعِ في أخطاءِ الأسلوب في العديد من النقاط، إلى الأخطاءِ الموجودة في الضوابط العلمية، ومن التفسيراتِ القائمة بشأنِ السلطة والاقتصاد إلى المفاهيم والتمأسسات السلطوية المتحكمةِ بالحقوق وعِلمِ الجمال. وفي هذا السياق أرى في ذاتي القدرةَ على الشروع بتجربةٍ معينة، بل وأعتبر ذلك وظيفةً عليَّ القيامُ بها، أو دَيناً عليَّ الإيفاءُ به إزاء قيم الحرية.

- وكتمهيدٍ للبدء بالموضوع، أشير بجملةٍ واحدةٍ إلى أنّ التقسيماتِ القالبيةَ الثنائيةَ الأساسيةَ المتحكمةَ بفكرِ الإنسان قد أضعفت المعنى وحرَّفته، من قبيل: (ذاتاني–موضوعاني، مثالي–مادي، ديالكتيكي–ميتافيزيقي، فلسفي–علمي، وميثولوجي–ديني). والتجذراتُ الحاصلة في هذه الثنائيات والقرائن، هي حصيلةٌ لأخطاءِ الأسلوب الأساسيِّ الذي أفضى إلى ظهورِ الحداثة الرأسمالية.

- قد دَعَمَ أصحابُ السلطة والاستغلال تطوُّرَ أو تطويرَ الأفكار والعقائد في هذا الاتجاه طيلةَ تاريخ المدنية، لتؤديَ دوراً بارزاً كأداةٍ لديمومةِ وشرعنة النظم التي أسسوها، وحُقِّقَ ذروتها مع الرأسمالية. وتفسيرُ هذه الثنائياتِ كتاريخٍ مجرَّد، هو الأساسُ في دَرِّ النفعِ للنظمِ السلطوية والاستغلالية القائمةِ عملياً.

- لو لم يُطْبَقْ الخناقُ على ذهنيةِ البشرية بهذه القرائن، لَما كان بوسعِ أيِّ نظامٍ سلطويٍّ أو استغلاليٍّ أنْ يَكُونَ مؤثراً لهذه الدرجة. فاستمرارُ مَحوَرَةِ الصراعاتِ الذهنية حول هذه الثنائيات، يؤول إلى الجشع النَّهِمِ في مزيدٍ من السلطة والاستغلال.

- وبقدرِ نجاحِ الباحثين عن الحقيقة في مضمارِ هذه الثنائيات، فقد تمكَّنوا من احتلالِ مكانةٍ رفيعةٍ في مصافِّ أصحابِ السلطة وداخلَ بؤرِ الاستغلال.

- وهكذا، أُضفتِ الواقعيةُ العظمى على مقولة "الحقيقةُ سلطة، والسلطةُ حقيقة". إنَّ نَسَق الحقيقة المذكورَ هنا هو الحليفُ الوفيُّ والأمينُ لنظامِ الاستغلال السياسي. أما محصلةُ هذا التحالف، فهي المزيدُ من القمع والاستغلال. وهذا بدوره يؤول إلى فقدانِ وضياعِ الحياة الحرة الفاضلة.

- إذن، والحالُ هذه، فأولُ عملٍ جادٍّ علينا فعلُهُ مِن حيث الأسلوب، هو التخلي عن نَسَق الحقيقة ذاك. وفي الحقيقة، يتطلب الأمرُ موقفاً سلبياً، أي، التصرفَ السلبيَّ على جميع الأصعدة إزاء نَسَق الحقيقة التابع للنظام القائم! لا أقصد هنا اتخاذَ جبهةٍ فظّةٍ ضده، بل أعني ضرورةَ اتخاذِ الموقفِ المعارِض عبرَ تحليلِ نسقِ الحقيقةِ لذاك النظام.

- لا يمكنُ الإمساكُ بمربطِ الفرسِ في النظام القائم، أو البدءُ بحَلِّهِ وتفكيكه؛ إلا عبر مقاوماتٍ باسلةٍ قيِّمة، وبتطويرِ جهودِ إنشاءِ

> **"إنّ علاقة التسلّط والاستغلال تشيرُ إلى الحاجةِ إلى القوالب المحصّنة عن المساءلة. أي أنّ القدسيةَ وكلامَ الله والحصانةَ وغيرها من القيم المسَلّم بها، وكذلك القوالبُ الجامدةُ الممنوحة؛ كلُّها أمورٌ تتعلق بمواراةِ الاستغلال والسلطة، وبصونِ المصالح الطبقية، وبشرعنةِ الهرميةِ والسلطة. فبقدرِ ما يَسُود الحكمُ الصارمُ في مفهومٍ ما، يَكُونُ الاستبدادُ والطغيان والاستغلال مخفياً فيه بالمِثل"**

المجموعات المعارِضة، ليس تجاه شِباكِ وأجهزةِ السلطة فقط، بل وتجاه بؤرِ الاستغلال في كافة أماكنها.

- جميعُ التكوينات الاجتماعية هي ثمرةُ الذهنية. وعلى نقيضِ ما يقال، فالأيدي والأقدامُ لا تُنشِئُ المجتمع. ولو كان كذلك، لَكان العالَمُ الذي أمامَنا مختلفاً كلَّ الاختلاف.

- ظهرَت جميعُ الأحداثِ المهمّةِ ومراحلِ التطورِ والبنى الموجودةِ في التاريخ كثمرةٍ من ثمارِ الذهنيات المؤثِّرةِ والعزائمِ التي لا تلين. وأحدُ أهمِّ الأخطاء الجسيمة للأسلوب الماركسي، يكمن في تعويلِه على البروليتاري القابع تحت وطأةِ القمع والاضطهاد والاستغلال اليومي لإنشاءِ المجتمعِ الجديد، دون أن يوجِّه الثورةَ ويُعمِّقَها في الميادين الذهنية. لقد عجزَ الماركسيون عن رؤيةِ أن البروليتاريَّ عبدٌ مَغزُوٌّ ومُستَعبَد من جديد. بل وقعوا بأنفسهم في

”إنّ الأسلوبَ العلمي للعصر الرأسمالي، وبالتالي، كافةَ العلوم الناشئة ضمنه بناءً على هذه الخلفية، تُشكّل القوةَ الأساسيةَ التي تُؤَمّنُ وتؤدي إلى تعزيزِ آليةِ الربح في النظامِ من جهة، وإلى تكريسِ الحروبِ والأزماتِ والآلامِ والمخاضاتِ والمجاعةِ والبطالةِ ودمارِ البيئةِ والانفجارِ السكانيّ، بحيث شَمَلَت كافةَ قطاعاتِ المجتمع وحلقاته الداخليةِ والخارجية. وما عبارةُ «العلمُ قوة»، الموجَزَة سوى تعبيرٍ عن الافتخار بهذه الحقيقة.“

سفسطةِ "العاملِ الحر". وبإضافةِ الأخطاء الأخرى، تكون قد اتضحت نتائجُ هذا الخطأ.

- إذن، ومع إيلاء المعاني لمنجزاتِ الإنسانية في العلم، كيف يجب أنْ تَكُونَ الذهنيةُ التي علينا اكتسابها؟ للرد الصريح على هذا السؤال، علينا بمزيدٍ من كشف النقاب من الأعماق عن المُقارَبَتَين الذهنيَّتَين النابعَتَين من الذاتانية والموضوعانية، والمؤدِّيَتَين في النتيجة إلى نفسِ المصب. أوّلهما: هو أنه، وعلى عكسِ ما رُوِّجَ كثيراً، فالموضوعانية ليست تعبيراً عن قوانينِ الطبيعة والمجتمع مثلما هي عليه. ولدى البحثِ والتمحيص بإمعان، سيُرى أن القوننةَ الموضوعيةَ هي الشكلُ العصريُّ لعبارةِ «كلامِ الرب» القديمة. إذ يصدح صدى القوى الخارقةِ للطبيعة والمجتمع في هذه الموضوعانية على الدوام. وبمزيدٍ من النبش والسبر، سيُدرَك أنّ هذا الصوتَ يعود لحاكميةِ وسيطرةِ الطاغي الجبّارِ والاستغلاليِّ المستبِد. إنّ العقلَ الموضوعي ونَسَقَ أصواتِهِ الصداحة ذو عُرىً وثيقةٍ مع نُظمِ المدنية القائمة، حيث رُوِّضت تلك الأصواتُ على يدِ تلك النظم، وأصبحَت مألوفةً للآذان. وحتى لو جُنِيَت معلوماتٌ جديدةٌ من الموضوعات، فهي تُلحَقُ على الفور بأماكنِها المخصَّصةِ لها ضمن النظام القائم. علينا، وبكلِّ تأكيد، معرفةُ أنّ كلَّ صاحبِ اكتشافٍ تقنيٍّ جديد، يُكَبَّلُ سلفاً أو لاحقاً بألفِ قيدٍ وقيد على يدِ النظام القائم. وفي حالِ الإصرار على العكس، فسيتعرضُ لغضبِ آلهةِ النظام، مثلما نشهد في الأمثلة التاريخية، بدءاً من آدمَ حتى إبراهيم، ومن ماني إلى منصورِ الحلاج، ومن بولس الطرسوسي إلى جوردانو برونو. فلدى دُنُوِّ أصحابِ المواقفِ الموضوعانية من الحقيقة والعدل أكثر، فسيواجِهون ألفَ عدوٍّ وعدو. ستكون الموضوعانية ثمينةً للغاية، إذا كانت حقاً تعني الشيءَ الذي تراه عينُ القلب ويَرصده الإدراك. وإذ ما ارتبطَت بقيمِ الحياة الحرة، فستؤدي إلى الحكمة الحقيقية. ولكن، يجب حينها تَحَمُّلُ نتائج أنْ يكون المرءُ مُحارباً في سبيل الفكر، مثلما كان منصور الحلاج وجوردانو برونو.

- يجب التبيانُ بعنايةٍ وحساسية أنه بالمقدور استخلاصُ نتيجة ذات اتجاهَين من الموضوعانية بالنسبة لقوانين العلم. فالتمييزُ بين الاتجاه الذي يمثل النظامَ الحاكم المتأسِّس، والاتجاه الذي يمثل الحقيقة؛ يتطلب انهماكاً عظيماً وصموداً عتيداً. أمّا نمطُ الفكر الموضوعيِّ العائد غالباً للفكر التحليلي، فسيؤدي مَهَمَّةَ الديناصورِ الثاني في التاريخ، ما لم تتوثقْ عُراه مع الأفكارِ الحدسية الآنية المتأتية من الذكاء العاطفي.

- فالوحشُ المولِّدُ للقنبلة الذرّية ليس سوى نسخةٌ معدَّلة من اللوياثان القديم مجهَّزاً ببنية الفكر التحليلي للحداثة الرأسمالية. وهو نفسُه المسؤولُ عن هذه اللوحة السوداوية السلبية التي تَحَدَّثنا عنها. وإذا ما أمعنّا النظرَ في هذا الإله الجديد غيرِ المَقَنَّع،

والمتجلي في هيئة الدولة القومية. سنلاحظ عن كثب ما يقتدر عليه الفكرُ التحليلي الموضوعي.

الذاتانيّة

- أما الذاتانيةُ القابعة في القطب المقابل للموضوعانية. فتدَّعي الوصولَ إلى الحقيقة عبر مفارقاتِ الإدراك الحسي دونَ الحاجة إلى الموضوع الشيء. إنها ضربٌ من الأفلاطونية. ولدى تركِها لوحدها. فسيظهر على الفور جانبُها المخادِعُ والثبوتيُّ القالبيّ. مثلما حالُ الموضوعانية: الحقيقةُ هي بقدرِ ما نحسه وندركه. وهذا ما يصل من أحد جوانبه إلى مذهبِ الوجودية (الأنطولوجيا). فهي تَعتبِرُ الإنسانَ موجوداً بقدرِ ما يخلق نفسَه. ورغمَ تأسيسِ العديد من المدارس الفكرية باسمها. فهي –مثلما الموضوعانية– لا تتخلَّف عن احتلالِ مكانها داخلَ أروقةِ النظام القائم. أما سقوطها في «الذاتية» (نزعة إنكار الموضوع) بمفهومها إزاء الطبيعة والمجتمع. فيؤدي إلى جعلها دعامةً وطيدةً للفردية.

- فالمفهومُ الذي يجعل الفرد في الحداثة أنانياً. مرتبط عن كثب بالذاتانية. فتمهيدها الطريقَ للأنانية عوضاً عن ظهورِ الـ«أنا» السليمة. متعلقٌ بالحافزِ الأساسيِّ الذي يُفضي إلى المجتمع الاستهلاكي.

- الذاتانيةُ مسؤولةٌ أيضاً عن الفكر الدوغمائي المنحرف الذي مفاده «الحقيقةُ بقدرِ الأنا».

- والنظامُ الرأسمالي مَدِينٌ بالكثير لهذه البنية الفكرية. فهذا النمطُ الفكري المنعكسُ على كافة الميادين الفنية. وعلى رأسها الآداب. قد انتهى به المطافُ إلى ابتداعِ عالَمٍ افتراضي. حيث بسطَ نفوذه على المجتمع برمّته بوساطةِ صناعة الفن. فأمَّن بأضعافٍ مضاعفةٍ المشروعيةَ التي يحتاجها النظامُ القائم. الذي أبقى على المجتمع يئن تحت وطأةِ هجماتِ العالَمِ الافتراضي لحظياً. لِيُترَكَ متخبطاً على الدوام في انعدامِ القدرة على التفكير الذاتي.

- هكذا أُسقِطَت الحقيقةُ إلى مستوى عالَمِ التَّشَبُّهِ والمحاكاة لتزولَ معاني الفرق بين الأصل والشبه.

- الجانبُ الإيجابي للذاتانية كإدراك حسي هو ارتباطُها عن قُربٍ بالفكر العاطفي. أي أنّ استكشافَ الإحساسات والحدسيات في الإدراك الحسي يُعتبَر جانباً قوياً.

- جرت المحاولاتُ في مذهبِ التصوف وفي حِكمة الشرق الأوسط لبلوغ التكامل بين المجتمع والطبيعة عبر أسلوبِ الإدراك الحسي. فقُطِعَت مسافاتٌ شاسعة في هذا الشأن. بحيث لا يزال بالمقدور تفعيلُها والاستفادةُ منها اليومَ أيضاً كمنبعٍ لا ينضب. تتميزُ ذاتانيةُ الشرق المثالية بتفوّقها على موضوعانية الغرب الشيئية بمعالجتها الأخلاقية للمجتمع والطبيعة.

- هذا ولطالما أُصيبَت الذاتانيةُ أيضاً بعدوى عكسِ ذاتها على أنها صوتُ الإله. مثلما كانت عليه حالُ الموضوعانية. وكلتاهما تتلاقيان في جانبهما هذا.

- فانطلاقاً من مواقفهما إزاء الطبيعة والمجتمع بالاعتماد على فكرةِ الإله الداخلي والمتعالي. لن تتخلصا من التحولِ إلى أداةٍ مسخَّرةٍ لخدمةِ الملوك المتسترين والعراة. الذين هم ليسوا سوى آلهةٌ مقنَّعة وغيرُ مقّنَّعةٍ في النظام القائم. كما ولن تُنقِذا ذاتَيهما من الالتحاق بهذا النظام. (كلّ سؤال من الأفضل وضع علامتَي الترقيم «؟!»)

مكانة الموضوعانية

- تحتلُّ الموضوعانيةُ مكانةً راسخةً في يومنا الراهن. أو بالأحرى في ظلِّ الحداثة الرأسمالية. عبرَ المدارس والجامعاتِ الوضعية؛ في حين تحتل الذاتانيةُ مكانةً وطيدة عبر كافةِ ضروبِ

المؤسسات الروحانية والدينَيوية؛ لتنتجا المشروعيةَ للنظام من جانبَين مختلفَين. كما وتؤديان بذلك دورَ المِزْيَتَة والمَتْشْحَمَة تجاه النظام، عوضاً من أنْ تَكُونَ كلٌّ واحدةٍ منهما أسلوباً أو نَسَقاً للحقيقة. وباعتبارهما تشكلان البنيةَ الكادريةَ والمؤسساتيةَ لشرعنةِ السلطة والاستغلال، فهما تتميزان بالفاعلية المماثلة لِما تقوم به مؤسساتُ العنف والاستغلال.

- إننا مرةً أخرى أمام قوى النظام المتكاملة مع مقولة «السلطةُ حقيقة، والعِلمُ قوة».

- أما البحثُ عن الحقيقة، فليس سوى اسمٍ يطلَق على لعبةٍ متجسدةٍ في ثالوثِ رأس المال – العِلم – السياسة، والذي يمكن تسميته بـ»الشركة». وكلُّ بحثٍ آخر عن الحقيقة خارجَ إطارِ هذه اللعبة، إما هو عدوٌّ النظام القائم، ويجب القضاءَ عليه؛ أو يجب جذبُه لأروقةِ النظام، والعمل على صهره في بوتقته.

- وإزاء الفقدان الكبير للمعنى، فنحن مُطَوَّقون بحصارِ المدنية المادية البالغةِ أعلى مستوياتِها.

- فكيف لنا النفاذُ والانعتاق من طوق قِوى رأس المال – العِلم – السياسة؟ إنّ هذا السؤالَ، الذي طالما بَحَثَ فلاسفةُ الحرية عن جوابٍ له، بدءاً من نيتشه إلى ميشيل فوكو؛ ليس من النوع الذي يمكن الإجابة عليه بهذه السهولة.

- علينا تفهُّم هؤلاء الفلاسفة الذين توصّلوا إلى أحكامٍ على شاكلةِ «المجتمع المخصيّ» و»موت الإنسان» إزاء الحداثة. (فمعسكراتُ الموت، القنبلةُ الذرّية، حروبُ التطهير الإثني، دمارُ البيئة، البطالةُ الجماعية، تضييقُ الخناق على الحياة بشكل متطرف، تفشي السرطان وغيره من الأمراض كالأيدز؛) إنما تدل على صحةِ تلك الأحكام، بل وتجعل من البحوث عن الحقيقة المضادة مَهَمَّةً ضرورية ومُلِحّةً.

- مرّةً أخرى أعيدُ وأوضحُ أنّ تياراتِ الاشتراكية العلميةِ والديمقراطية الاجتماعيةِ والتحررية الوطنية، التي يُنظَر إليها كنظرياتٍ معارِضةٍ عظمى، قد حَدَّدَت أماكنَها منذ زمنٍ طويلٍ كمذاهبَ في كنف الحداثة، وبدأت بتأديةِ مهامها بموجب ذلك. ومن السهل الإدراكُ أنّ العديدَ من البحوثِ ما وراء الحداثيّة ما هي إلا تياراتٌ فكريةٌ حداثيّةٌ قد غيَّرَت من هيئتها.

- عندما تبلغُ النظمُ ذروتَها، تبدأُ بالتحللِ والتهاوي. وأعوامُ السبعينيات تُمَثِّلُ مرحلةَ بدءِ سقوطِ وانحدارِ الحداثة الرأسمالية، ورواجِ فقدانِ الثقة بها حصيلةَ تجزؤها وتراجعها الواضح في الأسلوب.

- لهذه المرحلةِ علاقةٌ وثيقةٌ ببدءِ ظهورِ الفكر الأيكولوجي، والتيارات الفامينية، والحركات الإثنية – الثقافية ودخولها حيّزَ التنفيذ. فتفكُّكُ وتجزؤُ الأسلوبِ العلمي، أظهرَ للعيان وجودَ عوالم أخرى مختلفة، وأبرزَ قيمةَ الشروحِ الحرة. من المهم للغاية استقبالُ هذه المرحلة، التي يمكن نعتُها بمرحلةِ الفوضى، بإدراكٍ غنيٍّ ووعيٍ راقٍ؛ والنظرُ إلى مختلَفِ المجموعات الفكريّة البارزة حسب واقعها، كبؤرةٍ للمقاومة في أحشاءِ جميعِ بؤرِ السلطة.

- إنّ تقييمَ هذه المرحلةِ التاريخية بالمُثمِرة من حيث بروزِ الأساليبِ الجديدة وتصوُّراتِ الحقيقة المختلفة، يُزيد من فرصةِ إعادةِ بناءِ المجتمع على مستوى المجموعات. فتجسيدُ يوتوبيات الحرية والمساواة بشكلٍ ملموسٍ في البنى الاجتماعية المنشأة، قد أصبح من بين المهامِّ العمليةِ اليومية التي تفرضُ نفسها بقوة. وما يلزم لذلك، هو معرفةُ القيمةِ العلمية للطريق المسلوك، والتحلي بقوةِ إرادةِ الحرية. إننا نتحدث عن المرحلة التي يدنو فيها عشقُ الحقيقة من الحياةِ الحرة. ما نقصده باختصار: الحقيقةُ عشق، والعشقُ

حياةٌ حرة!

- إذن، والحال هذه، لا يمكننا الوصولُ إلى المعلومات اللازمة، ولا إنشاءُ عالَمِنا الاجتماعي والقوى الرياديةِ الجديدة له؛ ما لَم نتعقبِ الحياةَ الحرة بعشقٍ وهيام، سواء من حيث الأسلوب، أو كنَسَقٍ للحقيقة. لنبحثْ عن قُرب في تحصيلِ المعرفة وإنشاءِ البنى الريادية على ضوءِ فرضياتنا هذه.

- لنبدأْ في بحثنا برفضِ ريادةِ كلٍّ من بيكون وديكارت. وبعدَ دحضِ ثنائيةِ (الذات العاقلة – الموضوع الشيء)، وثنائيةِ (الروح – البدن) فإنّ اتخاذَ الإنسانِ معياراً أساسياً سيكون بدايةً مناسِبةً من جميع النواحي.

- ومثلما لا نتحدث هنا عن عالَمٍ إنسانيٍّ المركز، فنحن لا نتبع أسلوبَ الفلسفة الإنسانية أيضاً. بل موضوعُ بحثنا هو مجموعُ الحقائق المتركزة في الإنسان.

- إنّ الذراتِ التي تُعتَبَرُ بنية المادة، تتميز بوجودٍ وتكوينٍ غنيَّين للغاية في الإنسان، سواء من جهة تعدادها أو ترتيبها.

- يتميز الإنسان بأفضليةِ تمثيله لكافةِ البنى النباتيةِ والحيوانية في العالَم البيولوجي.

- أسَّسَ الإنسانُ أرقى أشكالِ الحياة الاجتماعية.

- يتمتع الإنسانُ بعالَمٍ ذهنيٍّ مرنٍ للغاية وحرٍّ للغاية.

- يمكنُ للإنسانِ العيشُ بشكلٍ ميتافيزيقي.

- واضحٌ جلياً أنَّ تَواجُدَ كافةِ هذه الخصائص والمزايا بشكلٍ متداخلٍ ومتكاملٍ في آنٍ معاً داخلَ الإنسان، يجعلُ منه مصدراً لا نِدَّ له للمعلوماتِ المعرفية. وإدراكُ هذا المصدرِ ضمن تكاملِه الكليّ، يكافئ استيعابَ الكونِ المعروف. أو إنه –بأقل تقدير– بمثابةِ بدايةٍ صحيحة لفهمِ الكون.

”أحدُ أهمّ الأخطاء الجسيمة للأسلوب الماركسي، يكمن في تعويله على البروليتاري القابع تحت وطأةِ القمع والاضطهاد والاستغلال اليومي لإنشاء المجتمع الجديد، دون أن يوجّه الثورةَ ويُعمّقَها في الميادين الذهنية. لقد عجزَ الماركسيون عن رؤيةِ أن البروليتاريّ عبدٌ مَغزُوٌّ ومُستَعبَد من جديد. بل وقعوا بأنفسهم في سفسطةِ «العاملِ الحر». وبإضافةِ الأخطاء الأخرى، تكون قد اتضحت نتائجُ هذا الخطأ.“

المادّة والمعنى والطاقة

- قبل كلِّ شيء، يمكننا من خلالِ الإنسانِ تشخيصُ التكويناتِ الكائنةِ داخلَ وفيما بين الذرات التي هي أصلُ المادة، وكذلك رصدُ الروابط بين تلك التكويناتِ وبين الحيوية بأفضلِ الأشكال. وبمعنى ما، يمكننا تصوُّرُ الإنسان كترتيبٍ منتظمٍ ومُتَّسِقٍ للمادة الحيوية المفكِّرة. لا شك في أنه، ومثلما أنّ هذا التشخيصَ لا يَعتَبِر الإنسانَ مجردَ مُجَمّع من المادة، فهو لا ينظر إلى المادة أيضاً كبُنيةٍ خاليةٍ تماماً من الحِسّ الحيّ. في حين أنّ عَقْدَ الروابطِ بين المادة التي تتمتعُ بحسٍّ حيٍّ خاصٍّ بها، وبين حقيقةِ الإنسان التي يتعدى كونَه مجمّعاً من المادة الصرف، يُعَدُّ مشكلةً عصيبةً ومستعصيّة على صعيدِ المعنى.

- هذا ومن الضروريِّ البحثُ عن منبع الميتافيزيقيا في هذا النمطِ من الوعي. في حين أنّ تركيزَنا على هكذا طرازٍ من الوعي يدلُّ على مرونةٍ لا

محدودة، وقد يتخطى ثنائيةَ (المادة – المعنى).

- ربما كانت غايةُ كلِّ ما هو حيٌّ وغيرُ حيٍّ هي تجاوُزُ هذه الثنائية. فبينما تَكُون غايةُ المادة اكتسابَ المعنى، يكون هدفُ المعنى تجاوزَ المادة.

- قد يَكُون ممكناً رؤيةُ أولى أنفاسِ العشق في هذه الثنائية. وربما يَكُون مبدأُ "الدفع – الجذب" بِحَدِّ ذاته قد طرأ عليه التَغيُّر، ليتحول إلى ثنائية المادة – المعنى. وربما كان القصدُ هو هذه الثنائيات، عندما قيل بوجودِ العشق في أصلِ الكون وأساسه. وكأن هذا العشقَ يرتكز إلى أمتنِ دعائمه لدى الإنسان.

- مقصدُ حديثي هو اعتقادي بأنّ البحثَ في المادة داخلَ الإنسان هو الأسلوبُ الأقرب إلى الصحة. ولكن، يبدو من غيرِ الممكنِ الوصولُ إلى التفسيرِ الأقرب إلى الصحة للمادة داخلَ مختبرات الحداثة المعزولة بإحكام.

- في حين أنّ العلاقةَ بين الناظر والمنظورِ إليه في فيزياء كوانتوم لا تعترفُ إطلاقاً بالقياسِ الأكيدِ والمجزوم به. فمثلما يُجري الناظرُ تغييراتٍ على المادة، بمقدورِ المنظورِ إليه أيضاً إفلاتُ نفسِه من عينِ الناظر ضمن شروطِ المختبرات.

- إذن، فالإدراكُ الصحيح غيرُ ممكنٍ لدى الإنسان، إلّا بالاستبطان. إذ، ما مِن مختبَرٍ أعظمُ وأفضلُ إحكاماً من الإنسان. ومثلما كَشَفَ ديموقريطس الذرّةَ بهذا الأسلوب، فهو بذلك يَكُون قد حدَّدَ الأسلوبَ الصحيح والسليم منذ زمنٍ طويل. ما نقصده ليس عدمَ فائدةِ المختبرات، بل نرمي إلى القولِ: إنّ مكانَ المبادئ الأساسيةِ فيما يخص الإنسانَ موجودٌ في الإدراك الحسي.

- يمكننا توسيع نطاقِ مبدئنا هذا أكثر، حيث من المستطاع رصدُ كافةِ القوانين الفيزيائية والكيميائية بمستوى أقرب إلى الكمال داخل الإنسان.

- إذ ما من مختبرٍ فيزيائيٍّ أو كيميائي يمكنه الوصولُ إلى مستوى الانتظام والترتيبِ الغني الموجودِ في بنيةِ الإنسان. إذن، بالمقدور الوصولُ ضمن بنيةِ الإنسان إلى المعلومةِ الفيزيائية أو الكيميائية الأقرب إلى الصحة.

- كما يمكننا من خلالِ بنيةِ الإنسان استيعابُ كيفيةِ جريانِ التحول بين المادة والطاقة، وكذلك التفاعلاتِ الكيميائية الأوسعِ والأغنى الحاصلة. علاوةً على أنّ أغنى ضروبِ استنتاجِ المعاني السليمة فيما يتعلق بالعلاقة المتبادلة بين المادة والطاقة يتحققُ داخل الإنسان.

- إضافةً إلى إمكانية التِماسِ الوحدةِ بين المادة – الطاقة – الفكر في دماغِ الإنسان. وهذا ما يوجِّهنا نحو تساؤل صعبٍ للغاية: تُرى، هل هذه الوحدة الجاريةُ في الإنسان خاصيةٌ من خصائص الكون؟

- تتأكدُ صحةُ مبدئنا الأوليِّ من خلال تَمَتُّعِ الإنسانِ الذي اتَّخذناه أساساً للبلوغِ إلى الحقيقةِ بآفاقٍ واسعةٍ إلى أبعدِ حدٍّ على صعيدِ الوعي والإدراك. بالتالي، يمكن اعتبارُ هذا المبدأ طريقاً أساسيّة للحصول على المعرفة، ومبدأً نَسَقِياً سليماً في بلوغِ ماهيةِ الحقيقة.

الإدارة الذاتية بين الأنموذج الرأسمالي والأنموذج الاشتراكيّ

فادي عاكوم
كاتب وصحفي

تتفرد تجربة الإدارة الذاتية في روج آفا وشمال سوريا من عدة نواحٍ. ورغم أن التفرّد الأبرز الذي يلاقي الأضواء هو الإدارة نفسها والحكم وفق مبدأ الأخوّة بين الشعوب, ومشاركة جميع المكونات العرقية والدينية والسياسية. إلا أن أمراً آخر تتفرد به التجربة ألا وهو أنها بحد ذاتها تجمع بين الأنموذجين الرأسمالي والاشتراكي, بطريقة تتلاءم مع أرض الواقع المستجد في ظل الأجواء التي تعيشها المنطقة.

فالرأسمالية **"نظام اقتصادي وسياسي يتم بموجبه التحكم في التجارة والصناعة في بلد ما بواسطة ملّاك القطاع الخاص من أجل الربح بدلاً من الدولة. بحيث يتم امتلاك السلع الرأسمالية من قبل الأفراد أو الشركات الخاصة. ويستند إنتاج السلع**

والخدمات على العرض والطلب في السوق العام وعلى اقتصاد السوق, وليس على التخطيط المركزي أو الاقتصاد الموجه. ومن أنقى صور الرأسمالية هي السوق الحرة حيث لا يتواجد أية قيود على الأفراد من ناحية تحديد مكان الاستثمار, والسلع التي يجب إنتاجها أو كيفية بيعها. كما يتم ممارسة هذا النظام الرأسمالي من قبل معظم الدول الحديثة, ولكنه يُعتبر نظاماً مختلطاً يشمل التنظيم الحكومي للأعمال والصناعة".

وهو ما يتم تطبيقه حالياً من قبل الإدارة الذاتية المدعومة من قبل أكبر دولة رأسمالية في العالم وهي الولايات المتحدة الأميركية. إن كان من ناحية التمويل المباشر أو من خلال إيجاد أسس لأسواق جديدة من خلال دعم بعض المشاريع والشركات الصغيرة والمتوسطة. بعد التأكد طبعاً من طريقة الإدارة, وأن الأرباح لن تصبح في أيادٍ غير آمنة, أو أنها قد تصل إلى الإرهابيين أو ما تبقّى منهم. كما أنه وبغياب الدولة السورية ومؤسساتها الحكومية الإدارية والحكومية فإن دورة رأس المال غير خاضعة للتخطيط المركزي على الإطلاق, بل تخضع لاقتصاد السوق ومدى ارتفاع وانخفاض العرض والطلب. كما أن الزراعة أيضاً وبوصفها أهم اقتصاديات المنطقة تُعتبر سائرة على الأسس الرأسمالية, حيث يعمل ملّاك الأراضي والمستأجرون على حدّ سواء على زيادة الإنتاجية لتحقيق أعلى نسبة من الأرباح. مما أدى إلى خلق بيئة تنافسية تسير بموازاة أوضاع السوق, وليس من خلال الضوابط والشروط المفروضة من الدولة الإدارية التي تقوم بالتخطيط العام لزيادة المحاصيل أو تنويعها حسب السياسة المالية والاقتصادية العامة للبلاد.

وبالانتقال إلى الاشتراكية فإنه من الممكن تشبيه الاشتراكية المطبقة في روج آفا بأنها مزيج بين الاشتراكية الديمقراطية والاشتراكية التحررية. فالأولى تبحث عن السبل الصحيحة للانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية من خلال نظام حكم ديمقراطي مع رفض للمركزية الديمقراطية, علماً بأن الانتخاب يمثل الدعامة الأساسية لها, وهو ما يتم تطبيقه في الإدارة الذاتية. حيث تلعب الانتخابات دوراً أساسياً في العمليات الإدارية والسياسية والحزبية والعسكرية. أما الثانية - أي الاشتراكية التحررية - فتعتمد على المجتمع البعيد عن البيروقراطية والدولة الأم, أي أنه مجتمع غير هرمي. مع دعمها لتشكيل مؤسسة لتقوم بعمل الدولة أو الحكومة المركزية وهو ما يتشابه أيضاً مع النظام الفيدرالي في العديد من الجوانب. علماً أن داعمي هذا النوع من الاشتراكية هم التيارات الاشتراكية الماركسية أوالقريبة منها, والاستقلال الذاتي ومجلس الشيوعية واليسار اللاسلطوي والكومينالية والبارتسيبية والديمقراطية الشاملة. وهي اتجاهات تتفق بشكل كبير مع الأفكار اليسارية التي تبنت أفكار الزعيم أوجلان التي تقود المرحلة في منطقة الشمال السوري.

كما أن الانتخاب المباشر لجميع أصحاب المسؤولية - إن صحّ القول في روج آفا وشمال سوريا, وممارسة ديمقراطية اشتراكية ربما للمرة الأولى في تاريخ هذه المنطقة بعد السلطوية الممارَسة من قبل الحزب الحاكم من خلال تعيين المقربين والموالين له في مواقع القرار والإدارة لضمان إبقاء زمام القرار بيده - يُعتبر من أصدق أنواع الاشتراكية الحديثة. فالتجربة الأوجلانية في سوريا نجحت كل النجاح ولا عزاء لمن اتهم الكرد بالعنصرية والعمل على تهجير العرب وتغيير الواقع الديموغرافي في منطقة روج آفا بالشمال السوري. فها هي انتخابات الكومينات تؤكد الاتجاه الصحيح الذي يسلكه أهالي تلك المنطقة. من خلال اختيار المجموعات والأشخاص الذين سيسيّرون أمورهم ويراقبون أحوالهم المعيشية والتنموية والأمنية. وذلك بعد موجة كبيرة من الأكاذيب التي طالت الانتخابات هذه نفسها والتي وصلت إلى حدّ وصفها بانتخابات

بعض الأنظمة العربية التي تنتهي بنتيجة نعم بنسبة ٩٩,٩٩٪.

والكومينات لمن لا يعرفها؛ هي عبارة عن لجان مهمتها إدارة المنطقة الإدارية المحددة لها، وذلك لمختلف النواحي الاقتصادية والتنموية والأمنية والتربوية، بمعنى أن أهل كل ناحية سيديرون منطقتهم بأنفسهم، لتتشكل لجنة عليا من الكومينات للتنسيق فيما بينها، مرتبطة بإدارة عليا لاقتسام الثروات وتأمين الاحتياجات الخاصة والعاجلة، وحسب التوزيع الديموغرافي في سوريا وفي منطقة الشمال تحديداً، فإن هذه اللجان ستكون متنوعة الأعراق والطوائف، فالتداخل كبير جداً في العديد من النواحي والبلدات والقرى والمدن، بحيث يجعل من المستحيل تكوين كومين واحد من لون عرقي أو طائفي واحد، حتى إن التقسيم الإداري للجان راعى هذا الأمر حسب النسبة والتناسب لكل الأعراق والطوائف المسيحية والإسلامية، باختصار؛ الجميع ممثَّل وصوت الجميع موجود.

ليست كومينات سوريا هي الأولى من نوعها في العالم، فالأمر تاريخي ويعود ربما إلى بدايات التكوين البشري، عندما قرر الإنسان العيش بجماعات منفصلة يدير بعض أبنائها الأمور الحياتية اليومية، وفي منطقة الشرق الأوسط ظهرت في العام ٥٠٠ تقريباً في منطقة شرق كردستان وتحديداً في مدينة همدان على يد "مازدك"، ثم أتت تجربة أخرى على يد الإسماعيليين عام ١٠٨١ على يد حسن صباح، ثم مع القرامطة عام ٨٧٠ إلى عام ١٠٧٠، ثم في العام ١٤٢٠ على يد الشيخ بدر الدين، أما في أوروبا فقد شهدت دول أوروبية عديدة تجربة الكومينات, كاليونان وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا, وكانت آخر التجارب التجربة الروسية الاشتراكية عام ١٩١٧، بالإضافة إلى أن حركة التحرر الفكري والعمالي التي اجتاحت أوروبا في العام ١٩٦٩ كانت تهدف لإقامة نظام الكومينات كحل جذري لمشاكل الشعب والحصول على الحقوق الكاملة.

وقد ينبري البعض للقول إن هذه الانتخابات فُرضت من القوى الكردية المسيطرة على الأرض، ويتناسى في الوقت نفسه أن هذه القوى الكردية نفسها قامت بتسليم المناطق التي حررتها هي من تنظيم داعش الإرهابي إلى مجالس محلية لإدارتها، كمجلس مدينة الطبقة والرقة ومنبج، ورغم الإمكانات المحدودة لغياب الأموال اللازمة لإنعاش هذه المناطق إلا أن التجربة ناجحة جداً، وعكست روح الأخوّة بين الشعوب بشكل حقيقي ومباشر، وبالمحصّلة نستطيع القول إن الكومينات في روج آفا ليست إلا كومينات سورية وطنية، تؤسس لمرحلة ما بعد الحرب، والتي بسبب مآسيها ودمارها والشق الاجتماعي الكبير الذي أحدثته، ستكون الكومينات الدواء الناجح لإعادة الأوضاع إلى طبيعتها ولو بالحد الأدنى، مع ملاحظة أن الكومينات لا تعني الانفصال عن الدولة الأم، بل على العكس فإن هذه الطريقة من إدارة المناطق ربما تعزز روح الانتماء إلى الدولة الأم، بعد زوال أسباب النقمة الشعبية بسبب الإقصاء وسياسة الإفقار والاضطهاد الممنهج.

علماً أن المجالس المحلية والمجالس المختصة التي تدير كافة شؤون المنطقة السياسية والزراعية والصناعية والثقافية والمالية, هي شكل من النقابية التي تُعتبر فرعاً أو نوعاً من أنواع الاشتراكية التي تعمل من خلال اتحادات تجارية أو صناعية ترفض اشتراكية الدولة أو استخدام الدولة لإقامة الاشتراكية|، إذ أن المفهوم الأساسي للنقابية هي إيجاد مجتمع اشتراكي يعتمد على النقابات الاتحادية أو نقابات عمالية لتملك وتدير وسائل الإنتاج.

ومما سبق لا بد من السؤال: إلى أي مدى تستطيع هذه التجربة المختلطة الاستمرار؟ والجواب: إن استمرارها مرهون بعوامل سياسية وديموغرافية ومجتمعية، فتقلبات السياسات الدولية والإقليمية تفرض نفسها

على هذه التجربة واستمراريتها. والأوضاع في سوريا تحديداً معرّضة لتقلبات كبيرة مرهونة بتحالفات جديدة أو فكّ ارتباطات قديمة. منها العامل الأميركي والعامل الروسي وهما الأساس, بالإضافة إلى العامل الإيراني الذي يُعتبر العامل الأقوى خلال هذه الفترة نظراً لتوسّع نطاقه. وطبعاً العامل التركي الذي فرض نفسه في نفس المنطقة تقريباً بحجة حماية الحدود من خلال جماعات متطرفة راديكالية. وأي حل سيطرأ سيكون في الوقت الحالي بعيداً عن مصلحة الإدارة الذاتية. كون تركيا والدولة المركزية السورية ترفضان هذه التجربة. فبالنسبة لتركيا لأن الأمر سيشكل خطراً أمنياً بالنسبة لها وتجربة قد تتعرض لها في الداخل التركي نفسه مع نجاحها. والدولة السورية لا تريد لهذه المنطقة النجاح أو البقاء كما هي حالياً لاعتبارات سياسية كون التجربة قد تتم المطالبة بها كحل لجميع المناطق السورية, بحيث تتحول سوريا إلى اتحاد فيدرالي يفقد رأس السلطة هيبته ويفقد الحرس القديم قدراته جميعاً. كما أن علاقة كرد سوريا بالدولة الأم علاقة توصف بأنها سيئة جداً بسبب القمع السابق, وتقريباً اللا اعتراف بأي حق من الحقوق. وبالتالي فإن العلاقة الحالية ستكون على مبدأ الاحترام المتبادل والاعتراف بحقوق الشعب الكردي كاملة دون أي نقصان, وهو ما سيواجَه برفض قوي في دوائر القرار السوري.

أما العاملان المجتمعي والديموغرافي فسيكون لهما تأثير كبير خلال الفترة المقبلة لإفشال تجربة الإدارة الذاتية. من خلال تحريض بعض الموتورين في العشائر والقبائل العربية ضد نهج وسياسة الإدارة الذاتية من خلال منطلق التبعية القومية. ومحاولة الكرد السيطرة على المكون العربي. وهي أداة للأسف متاحة لكل من النظام السوري وتركيا على حدّ سواء. وقد قاما بعدة محاولات سابقة للتحريض. وتم الترويج لها إعلامياً من قبل الإعلام الحكومي السوري والتركي ومنصّات أخوانية وراديكالية بشكل كبير. إلا أن التلاعب بالمنطق القومي والعشائري قد ينقلب على المتلاعبين به. خصوصاً وأن العديد من الخلافات تسود العلاقة بينها, وقد نجحت الإدارة الذاتية في إيجاد صيغ توافقية لحل خلافات عدة. لكن في حال انفلات الأمور دون وجود طرف قوي قادر على السيطرة قد ينقلب السحر على الساحر ليس فقط في سوريا بل في بلدان مجاورة, كون غالبية هذه العشائر والقبائل تمتد بجذورها إلى الخارج مما سيتسبب بمشكلة كبرى طارئة سيعجز الجميع عن التحكم بها.

وربما تكون تجربة الإدارة الذاتية جديدة لكن سبقتها تجربة الإدارة المدنية في الجبل بلبنان. والتي عرفتها تلك المنطقة خلال الحرب الأهلية اللبنانية. ورغم استنساخها في مناطق أخرى كالشمال وبيروت والجنوب ولكن تم إجهاضها. وذلك بسبب الصبغة الدرزية المشابهة للصبغة الكردية. وبقيت النسخة الشيعية المدعومة من تنظيم حزب الله المدعوم بشكل علني من الحرس الثوري الإيراني. ولذا فإن هذه التجربة أثبتت نجاحها مهما اختلفنا حول أحقيتها أو عدمها. كونها ما تزال مستمرة وربما تكون حبل الخلاص للأزمة اللبنانية. ونفس الأمر ينطبق على الإدارة الذاتية في سوريا. فلو تم التسويق لها بالشكل الصحيح فستصبح التجربة التي ستنقذ سوريا من تبعات ما بعد الحرب المدمرة. مع الإشارة إلى أنه رغم ابتعاد شبح التقسيم والإدارات الذاتية طيلة العقود الثلاثة الماضية؛ أي بعد انتهاء الحرب الأهلية. ما تزال المطالبات تظهر بين الحين والآخر للعودة إلى هذه الطريقة التي قد تنقذ لبنان من حرب أهلية جديدة, والتي ستكون مدمّرة هذه المرة. بالإضافة إلى كون اللامركزية في الحكم والإدارات المحلية بإمكانها أن تكون ركيزة أكيدة لإنقاذ الاقتصاد المنهار بشكل شبه كلي وتوقف أي نوع من أنواع الواردات لخزينة الدولة.

لكن القلق وهي سمة العقل الكردي والخوف من المستقبل يسيطران على تجربة الإدارة الذاتية، ومن تجربة شخصية مع ممثلي الإدارة الذاتية في أكثر من دولة وجدت أن القلق هو المسيطر على التخطيط والتنفيذ، وهو أمر مشروع وطبيعي بسبب ما مرّ ويمرّ به أبناء القومية الكردية قديماً وحديثاً، باعتبارهم عرضة للمخططات الدولية التي من ناحية قد تضحّي بهم وبمشروعهم تنفيذاً لمخطط تقسيمي أو توسعي دولي، إلا أن الخوف الأكبر هو الخوف من نجاح التجربة وبقائها لفترة طويلة تجعل منها عبرة أو عنواناً لتجارب مشابهة قد تطالب بها بعض الجماعات السياسية أو العرقية أو الطائفية في المنطقة، وهو أمر لا ولن توافق عليه الأنظمة بطبيعة الحال. لكن المحافظة على التجربة الحالية تكون بمزيج من الاشتراكية والرأسمالية بطريقة تراعي المحيط السياسي أو لا تخيف المحيط السياسي، فسوريا في الوقت الحالي تعاني من الانقسامات العرقية والطائفية بشكل أساسي، وبطبيعة الحال فإن الحل الشامل فيها سيكون محفوفاً بالمخاطر ومزروعاً بالألغام إلى أقصى الحدود، خصوصاً وأن كانتونات طائفية ظهرت بسبب انتشار الحرس الثوري الإيراني بأكثر من منطقة، والتي قد تتحول إلى حق المطالبة بالمثل إذا ما بقيت تجربة الإدارة الذاتية قائمة، وهو أمر سيعمق الأزمة السورية أكثر، وقد يطيح بأي حل من الحلول المطروحة.

وحتى من الناحية الاقتصادية فإن تجربة الإدارة الذاتية تفرض نفسها بطريقة لا يمكن تجاهلها على الإطلاق، فسوريا بحاجة الآن إلى معجزة مالية لإنقاذ الاقتصاد المنهار كلياً، بالإضافة إلى ملفّي البنى التحتية والإعمار، فالدولة المركزية لا تستطيع الإتيان بحلول سريعة على الإطلاق، حتى أن الدول الداعمة لها مثل روسيا وإيران لن تستطيعا الدخول في هذه المغامرة المالية لأسباب اقتصادية وحسابات مالية خاصة بهما، وبالتالي فإن التركيز على الناحية الاقتصادية في منطقة الإدارة الذاتية باعتبار التجربة قادرة على إعادة إحياء الزراعات العديدة التي تزخر بها المنطقة، والمحافظة على الموارد النفطية وإيجاد فرص العمل وتخفيف نسبة البطالة إلى أقل نسبة ممكنة، من شأن هذا الأمر أن يصبح دافعاً لإبقاء التجربة بل لتعميمها أيضاً على الصعيد المناطقي الجغرافي بشكل يزيح عن الدولة المركزية عبئاً كبيراً ويعجّل بإعادة دورة رأس المال شبه المنعدمة، والأهم في هذه الفترة وقف حالات الفساد التي من الطبيعي أن تظهر بين الحين والآخر، وإنزال أشدّ العقوبات بالذين تثبت تُهم الفساد ضدهم و لأن الفساد كفيل بافساد وتعطيل التجربة بل يعجل بالقضاء عليها كليا إذا لم يتم التصدي له، خصوصاً وأنه كلما مرّ الوقت فإن حجم الأموال المتداولة سيكبر ومعه المشاريع الكبيرة والصغيرة والمتوسطة، ولو تمت العودة إلى الأفكار الأوجلانية بحذافيرها لتطبيقها مع التجربة الرأسمالية - الاشتراكية فالنتيجة ستكون كبيرة جداً ومشرّفة لجميع مكونات مناطق الإدارة الذاتية دون استثناء.

وأخيراً يبقى القول إنه يجب الاهتمام إعلامياً بالتجارب الاقتصادية والزراعية والنجاحات الحاصلة، لتكون أنموذجاً يجب السير به وتطويره، وليس فقط التركيز على الجانب العسكري وملاحقة من تبقّى من عناصر داعش، أيّ أن الترويج الإعلامي ينبغي أن يشمل أخوّة الشعوب والإدارة الاقتصادية والمالية لمناطق الإدارة الذاتية، بالإضافة إلى جهود وتضحيات قوات سوريا الديمقراطية، والعمل على مواجهة الأكاذيب والشائعات بطريقة لحظية لصدّها ووقف انتشارها بأسرع وقت ممكن، لأنها تتحول إلى كرة ثلج تكبر وتتحول عند البعض إلى حقائق يجري التداول بها لتقويض التجربة وتشويهها.

«العباءة» في ذاكرة الشرق

هشام مهنّا

في الخلود إلى الذاكرة، تتراءى الأشياء الجميلة،كما يتساقط البَرد ربيعاً، وكما العشق الذي لا يعرف لونه، في نهاية الصبا وبداية الشباب.

أشياؤنا الجميلة نحتفي بها دائما، بيد أنّنا لم نعد نجدها إلّا في دفاتر الزمن التي طواها القدر، وتساقطت منه كوريقات الخريف. خريفٌ نديٌّ بعبق المطر والأمل. أشياءُ جميلة احتفظت بها الذاكرة، وكانت «العباءة «إحداها.

يقول اللغويون :العباءة: كساءٌ مشقوقٌ واسعٌ بلا كُمّين يلبس فوق الثياب وجمعها عباءات وأَعْبِئَة وتعرف الخاصة بالرجال منها ببعض البلدان باسم «البِشْت» بكسر الباء وإسكان السين وتسمى بمصر» البردة» كما تسمى العباءة الأنثوية ببلدان أخرى «العباية» و «الدفة».

يذكر بعض الباحثون بأن العباءة وجدت في خزانات ألبسة النساء أثناء التنقيب لأول مرة في بلاد مابين النهرين، بعمرٍ يقارب أربعة آلاف عام.

ويقول المؤرخون: إنّ العباءة كانت حِكراً على الثريات من

النساء، ولا يجوز للفقيرات منهنّ لبسها. ويقول البعض: إنها واكبت ظهور الإسلام ولازالت تعتبر الزيّ الرسميّ المفروض في بعض البلدان الإسلامية ، كالمملكة العربية السعودية ، تأثراً بالشريعة الإسلامية السمحاء، حيث يُفرض على النساء لبسها في الأماكن العامة وباللون الأسود. يرتدي العباءة أهل «الشام»، و»العراق»، والخليج العربي، و»مصر»، والمغرب العربي، و»إيران» والقبائل التي تقطن جنوب «تركيا».

تصنع العباءة من الصوف والحرير،وتخاط أطرافها بخيوط حريرية ذهبية اللون، ويصنع بعضها من الوبر، وبعضها الآخر من الفرو، وتنسب للدول فيقال عباءة مغربية، وعباءة سورية، وعباءة عراقية، وعباءة خليجية، وينسب بعضها الآخر للأسواق، فيقال عباءة «سعدونية» نسبة لشارع «السعدون» في العاصمة العراقية «بغداد».

وتعتبر مدينتا «دمشق» و»حلب» أعرق مدينتين في صناعة العباءة وخياطتها، إذ كان جلها يدوي، لا سيما مايخصص منها للملوك، والأمراء، وشيوخ العشائر، والأعيان.

للعباءة ألوان شتى فمنها الأسود والبني والأبيض - كما في «الأردن «- وغالب الألوان الرسمية، إلّا أنّ غالبها لونه أسود، ويعيد المؤرخون ذلك إلى قول ربيعة بن عامر التميمي المعروف باسم «مسكين الدارمي»:

قل للمليحة في الخمار الأسود
ماذا فعلت بزاهدٍ متعبّد
قد كان شمر للصلاة إزاره
حتى وقفت له بباب المسجدِ
ردّي إليه صلاته وصيامه
لا تقتليه بحق دين محمدِ

وهي الأبيات التي شدا بها المطرب الراحل «ناظم الغزالي» ويعود سبب نظمها إلى التجاء أحد تجّار الكوفة إليه في العصر الأموي الذي عاش فيه طالباً منه مساعدته، وكان «الدارمي» عابداً زاهداً بعد أن جاء التاجر من «المدينة المنورة» حاملاً معه خُمراً كتجارة لبيعها هناك، حيث نفدت كلّ الألوان منها؛ عدا الأسود، فنظم له هذه الأبيات، وطلب إليه نشرها بين أهل المدينة، فعلمت الناس أنّ «الدارمي» ترك الزهد، وأخذ يتغزل بالمليحة ذات الخمار الأسود، فنفدت البضاعةكلها مع تداول الأبيات، وتركت تلك الأبيات محبّة اللون الأسود للعباءات في قلوب الناس منذ ذلك الحين.

تنسب العباءة لمن يلبسها أيضاً من الملوك إلى الرعاة، فيقال عباءة ملكية نسبة للملوك، ويقال عباءة رعيانية، نسبة للرعاة، ويقال أيضاً عباءة حساوية،كما يعرف بعضها من الخاص بالنساء بنسب ذي طابع ديني فيقال "عباءة فاطمية"، و"عباءة زينبية". وتلبس العباءة من كلا الجنسين، ولكلّ منهما زيه ولونه وطراز خياطته.

العباءة رمز النضوج، والعقلانية، والحكمة، والثقة، لذلك تعتبر رمزاً للتوكيل المطلق، لذلك تجدهم يقولون بالمثل الدارج: "ألبستك عباءة في الموضوع الفلاني" أي: أوكلتك فيه، وأقبل فيما تراه وأحتمل نتائجه، بأريحية، ويقول ذلك أحد طرفَي الخصومة لمن يراه أهلاً لحلّ النزاع، أي أنّي أثق بعقلانيتك ورؤاك وحياديتك، وحكمتك، وكلّ ذلك ترمز له العباءة، ثم يتحمّل من ألبس العباءة النتائج القانونية لذلك التوكيل المرمز، ولا مفرّ له من ذلك أسوة بالتوكيل الرسمي، وذلك في القضاء الرديف، الذي يقوم به "العارفة" أو القاضي القبلي، والذي رأت فيه "الليدي أند بلنت" الرحالة الإنكليزية التي كتبت عن الشرق كتابيها "عشائر بدو الفرات" "الحج إلى نجد" أنّه من أفضل أشكال القضاء وأسرعها في حل النزاعات.

للعباءة أعرافها وتقاليدها، فلايجوز لأحد أفراد العشيرة ارتداء عباءة مشابهة لعباءة شيخ العشيرة، وذلك بهدف التمييز.

ورد ذكر العباءة في الموروث الشعبي لا سيما في وادي الفرات بشقيه العراقي والسوري، لما تمتلكه العباءة في قلوب قاطنيه، فنجد الشاعر البدوي المعروف عبد الله الفاضل الحسني العنزي، والذي تركه أهله يصارع وباء "الجدري" خوفاً من العدوى منه يقول:

- هلي راحوا وخلوني بصيرة
- وفقدت الدليل مع البصيرة

- عقب لبس "الحساوي" من البصيرة
- على عيني يحاوتني الغراب"

و«الحساوي» هنا جمع للعباءة الحساوية، ويضع هنا مقارنة ما بين المرتبة التي كان بها، والمرتبة التي آل إليها، وفي ذلك إشارة إلى العزّة ورفعة الشأن، وعلو المرتبة، ويرمز لذلك بارتداء العباءة، كما ورد ذكرها في لون «الدارمي» أو ما يعرف باسم «النايل» المقلوب:

- كلهم عبيهم سود وشلون أعرفه
- حتى السمك بالمي يبكي على ولفه

فلا يمكنها أن تميّزه من بين أولئك الذين يرتدون عباءات سود، فكلهم يرتدونها من ذات اللون، وهي تبحث عنه، وترى بذلك حالة طبيعية، لأن كلٌ يبحث عن حبيبه، حتى السمك الذي يعيش في الماء هو كذلك.

أما في ريف الفرات السوري فقد ورد ذكر العباءة في لوني "النايل" و"النعي"

ففي "النايل" قيل:

- ريت المطر لا مطر بلل عبي الجوخ
- وريت الزرع لا طلع أبعد محاري الشيوخ

فقد تساقطت الأمطار وبللت العباءات التي يرتدونها، ونضجت أعشاب الرعي، وخرج الأحبة إليها لترعى أغنامهم، وباتوا بعيدين عنه.

أما في" النعي" ذلك الشعر الخاص بالنساء، والذي تُذكر فيه مناقب الميت، فقد قيل عن العباءة:

- البس عباتك واطلع طلوع
- راس الغربة بيك مرفوع

ارتدِ عباءتك وامشِ الطريق المرتفع،فلقد كنت فخراً لمن تزوجت خارج تخوم القبيلة، حيث كان يفوح عطر سمعتك العطرة هناك.

وقيل أيضاً:

- البس عباتك واطلع ايدك
- الحاكم البالرقة يريدك

أي ارتدِ عباءتك واخرج يدك من كمها فقد طلبك حاكم المدينة.

ومن خلال تتبعنا لهذا الزي الرزين والأنيق، نستهدي إلى الموجبات التي دفعت الناس إليه، ونرى بأن الرجال يبدؤون بارتدائه بُعيد سن الأربعين لسببين:

الأول: يحتاج ارتداء العباءة لرزانة ،وهدوء وثبات وقلة حركة، لا تتوفر في ريعان الصبا، وبداية الشباب.

الثاني: يفقد تقدم العمر قوام الجسم شيئاً من جماليته، وتبدأ عيوب الجسد بالظهور، لاسيما فيمايتعلق منها بالرقبة والظهر، لذلك تجد العمر يلزم الرجل بارتداء العباءة، ليبدو كما كان عليه بالشباب.

أما الأنثى فترتدي العباءة في ذلك المجتمع المحافظ إلى حدٍ ما، والذي تطفو عليه المسحة الإسلامية؛ لإخفاء مفاتن الجسد ومعالمه.

تراجعت اليوم صناعة العباءة الرجالية، ولم تعد تتوفر بتلك الميزات التي كانت تحملها؛ بسبب التمدّن والتأثر بالثقافة الغربية التي جعلت اللباس الرسمي موحّداً في أغلب دول العالم، وأمسى العالم أقرب إلى القرية التي يعرف قاطنوها بعضهم، ولم تعد تتوفر المواد الأولية لصناعتها، ورحل الصُّنّاع المهرة، الذين كانوا يجيدون صناعتها، وبذلك انحسرت تلك الصناعة، ولم يعد يرتديها إلا القلة، أولئك الذين يحنّون إلى التراث والزي الشعبي لآبائهم، فيما تطورت العباءة الخاصة بالنساء، وأخذت تُصنع من أقمشة عالمية، ودخلت دور الأزياء، لكن بعد إجراء بعض التعديلات عليها، لكن غالبها حافظ على غايته المتمثلة بإخفاء المفاتن، ولا زال اللون الأسود هو الأكثر شيوعاً.

كذا العباءة بالشرق، رمزٌ للنقاء والنضوج، وسترٌ للعيوب، ووقاية من فتن الجمال، تتأصل بالتاريخ، تليدة كجباله وسهوله وفراته، ونيله وبحاره الدافئة، وينابيعه الحلوة منها والكبريتة، كآثاره،كشِعره، كحكاياته التي لاتنتهي، والتي جعلت منه مسرحاً لنزاع المصالح، فالكل هناك يبحث عن موطئ قدم له فيه، والكل يفتقد مسكاً في غزالة شاردة في مراعيها، لم ترد بعد إلى الينبوع الذي ينتظرونها قربه، يخبئون ذاتهم، بموجة ترتسم بلون الحب، الذي يخدعونها فيه ليصطادوها، ويتمتعوا بمذاق لحمها اللذيذ ويتعطروا بشذى مسكها الفواح.

القبائل العربية الأصيلة اليهودية

جاسم الهويدي

عَرفت اليمن وشبه جزيرة العرب دياناتٍ سماوية عديدة وعباداتٍ مختلفة, وذلك أن قبائلها وشعوبها عبدوا الطواطم والكواكب وبعض النجوم, فملكة سبأ بلقيس بنت شراحبيل كانت تسجد للشمس, وقد جاء في القرآن الكريم على لسان سليمان والهدهد: (مالي لا أرى الهدهد لأذبحنّه أو يأتيني بخبر يقين) قال الهدهد: (**جئتك من سبأ بنبأ .... وجدت امرأة تملكهم ويسجدون للشمس من دون الله**).

وعَرفت شبه جزيرة العرب وقبائلها ديانة إبراهيم الخليل بن تارح (أو آزر) وابنه إسماعيل, وهي الديانة الحنيفية (الأحناف), وكانوا يسجدون على جباههم على الأرض, ومنهم ورقة بن نوفل وزيد بن نفيل وأمية

بن أبي الصلت, كما عَرفت أيضاً الديانة المسيحية؛ فقبائل زبيد في (نجران وعسير وأبها) كانت مسيحية وشيوخها (آل عبد المدان ومنهم الحارث بن الحصين بن عبد المدان وقد وفدوا إلى المدينة المنورة وقابلوا النبيّ محمداً صلى الله عليه وسلم).

وكان ملك نجران ذو نواس يهودياً, أما الجد فهو سبأ, وقد ورد اسم سبأ في القرآن مرتين: الأولى «جئتك من سبأ بنبأ» والثانية «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية, جنتان عن يمين السد وشماله», وفي تفاسير القرآن عند علماء المسلمين أن سبأ معناه الجدّ وهو رجل له عشرة من الأولاد منهم (حِمْير- كهلان - جذام - غسان - لخم - عاملة - مراد - الأشعريون -إلخ), هاجر منهم غسان واستوطن بصرى الشام وحوران, بينما استوطن عاملة في لبنان ولخم (المناذرة) في الحيرة وجذام في بلاد الشام, وذلك بعد تهدّم سد مأرب.

أما حِمير فهو (تُبّع) الذي لبس التاج وأصبح ملكاً لخمسين عاماً ودانت له الأرض, ومن أحفاده حسان بن تبان ذي الأذعار الذي أراد أن يهدم الكعبة في مكة ثم تراجع, والكثرة القبلية عند كهلان والغزو لكهلان ٠

قبائل حِمْير

اعتنقت كثير من القبائل الحميرية الديانة اليهودية وكذلك من القبائل الكهلانية من اعتنق تلك الديانة, وتُعدّ الطائفة اليهودية اليمنية أقدم طوائف اليهود في العالم.

ويُقال إن أرميا أرسل (٧٥) ألف شخص من سبط لاوي إلى اليمن, و رواية أخرى تقول إن الوجود اليهودي في اليمن يعود إلى حملة إيلوس غالوس على مملكة سبأ إذ كان الجيش الروماني يحتوي على(٥٠٠) جندي من اليهود مرسلين من قبل أغريباس الأول لمساعدة الرومان, فبقَوا في اليمن بعد انسحاب الرومان ولعبوا دوراً مهماً في نشر الديانة اليهودية بين القبائل اليمنية, فالملك اليمني (يوسف أسار) المعروف ب (ذو نواس بن شراحبيل) اعتنق الديانة اليهودية, ويُعتبر من ضمن أقوى الملوك الذين حكموا اليمن من عام ٤٦٨م - ٥٢٧م, ويُعرف بالحميري نسبة إلى قبيلة حمير السبئية, وهو صاحب مذبحة نجران واسمه عبراني صريح, وقد رأى أن استقرار حكم مملكة حمير يتوقف على القضاء على الأحباش الذين استجلبوا المسيحية إلى اليمن, فاضطهد الأحباش المسيحيين اضطهاداً شديداً, عند ذلك ثارت حفيظة بيزنطة وعقدت العزم على مساندة الأحباش ضدّ ذي نواس, وكانت اليمن منقسمة ما بين يهود و وثنيين, فمنذ القرن الرابع الميلادي بدأ الأحباش والرومان بشن حملات عسكرية نحو اليمن للتبشير بالمسيحية, إلا أنهم قوبلوا بمقاومة من قبائل اليمن, فقد كانت الأحباش مسيحية أرثوذكسية شرقية, ويتركزون في ساحل تهامة والمخا ومدينة زبيد, وقد احتلوا ظفار و(يريم) عاصمة مملكة حمير اليهودية, بينما كان الحميريون يهوديو الديانة, وهم خليط بين قبائل حميرية وعبرانيين, وبقيت الديانة الوثنية لدى قبائل البدو.

شنّ ذو نواس حملات عسكرية على الأحباش المسيحيين الغزاة في نجران وظفار ويريم, وكانت أشهر وقائعه في مدينة المخا على البحر الأحمر قرب مدينة الحديدة, وكانت المملكة الحميرية قد أعيدت إلى أرض الواقع, وكان ذو نواس يلقب نفسه «ملك كل الشعوب» وساندته في حملاته قبائل اليمن الكبرى (همدان - كندة - مذحج - ومراد وأعرابهم وأبناء منطقة غيمان شرق صنعاء وبيت ذي يزن وخولان), و شنّ هجمات على نجران وعلى طول ساحل تهامة وهي من القبائل الكهلانية, أي تنتسب إلى كهلان أخ حمير, وأغلبهم اعتنقوا الديانة اليهودية. يقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

نحن بنو كهلان أرباب العُلا

نسل الملوك عمومتي من حمير

فإذاً: قبائل حمير أغلبها كانت تدين بالديانة اليهودية وكذلك قبائل كهلان التي منها مذحج واسمه (مالك بن أدد وأخوه طي واسمه جلهمة بن أدد).

وفي تاريخ عام ١٩٨٥م كانت نجمة داوود محفورة على أبواب مدينة «شبام» وقد رأيتُها بعيني, فهي من آثار يهود مدينة شبام في اليمن.

٢- يهود ينحدرون من بني إسرائيل, فسلالة إبراهيم أعقبها إسحق ومنه يعقوب (إسرائيل) الذي أعقب يوسف وأخوته الأحد عشر ومنهم: (لاوي - يهوذا - بنيامين) ومنهم تنحدر قبائل بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة إلى أكثر من عشرين قبيلة استوطنت الحجاز, ومن قبائلهم غطفان وكنانة.

فبنو قينقاع هم أبناء عمشيل بن منيش بن يوحنان بن بنيامين بن هارون بن نفتالي بن نافس بن حي بن موسى بن منشا بن .... إلى يوسف بن يعقوب «إسرائيل» وعاشوا في المدينة المنورة وكانوا صاغة ذهب وحدادة وهم يهود عرب أقاموا في حصن كبير داخل يثرب (المدينة المنورة) من قبل البعثة, وكانوا قد حكموا المدينة المنورة ولهم سوق كبير في حصنهم فوجودهم في يثرب يعود إلى زمن النبي موسى, وقول آخر إلى زمن (نبوخذ نصر).

يقول ياقوت الحموي: (ثم إن الروم ظهروا على الشام واحتلوها فقتلوا من بني إسرائيل خلقاً كثيراً, فخرج بنو قريظة والنضير وهدل هاربين يريدون الحجاز الذي فيه بنو إسرائيل ليسكنوا معهم). ومن ملوك بني قينقاع (فنحاص بن عازوا) وهو أحد علمائهم وكذلك رفاعة بن زيد, لكن بعد الاعتداء على امرأة مسلمة من قبل أحد صاغة الذهب حوصروا من قبل المسلمين في حصنهم ثم أخرجوا إلى الشام وخيبر, وللعلم أن الأوس والخزرج هاجروا إلى يثرب في القرن الخامس الميلادي واليهود فيها وهم متحكمون في اقتصاد الحجاز وتحالفوا معهم.

ذكر السمهودي: «إن قبائل اليهود في يثرب كانوا أكثر من عشرين قبيلة منهم بنو عكرمة – وبنو ثعلبة - وبنو محمر – زعورا - قينقاع - النضير - قريظة - هدل - عوف - القصنيص - بنو ماسلة» وقد سكنوا أطراف يثرب وحكموها في زمن بعيد وكان ملوكها الفطيون, وآخرهم الفيطوان جوني بن شريف بن كعب, وأفل حكمهم في زمن الغساسنة على يد الحارث بن جبلة, ويُنسب يهود بني قريظة وبني النضير إلى الكاهنين, أي إلى جدهم واسمه الكاهن بن هارون بن عمران.

وقال السمهودي: «إن يهود بني قينقاع من يوسف بن يعقوب, بينما بني هدل هم بنو عمّ القوم أي من نسل داوود, لأن داوود فيه الملك والرياسة إلى اليوم, وبنو ثعلبة هم رهط ملكهم الفطيون) فقد ذكر ابن الأثير أنهم من بني إسرائيل من نسل داوود والملك في الديانة اليهودية لايجوز إلا في نسل داوود كما نصّ الكتاب المقدس (لأن الله قال الملك الذي يجلس على عرش إسرائيل يكون دائماً من نسل داوود).

المصادر:

.ابن الاثير

.جمهرة النسب لابن الكلبي

.الكتاب المقدس- التوراة

.القرآن الكريم

.معجم البلدان - ياقوت الحموي

.سبائك الذهب .السويدي البغدادي

لقاء مقتضب مع الدّكتور المصري القدير (وديع فلسطين)

في مقابلة مقتضبة مجلتنا "مجلّة الشرق الأوسط الدّيمقراطيّ» مع الكاتب والصحفيّ المصريّ؛ وديع فلسطين، وهو طاعن في السن، حيث ولد في عام 1923، لقد بات لا يستطيع الكلام كثيراً لِكِبر سنّه، له كتب عدّة في الفن والفكر والسياسة.

يعرج الدّكتور المصريّ "وديع فلسطين" على أهمّ المتغيّرات التي طرأت على المجتمعات العربيّة، خلال فترة الانتداب البريطانيّ لمصر ولغيرها من البلدان العربيّة، فيقول: "بتنا في عصر يأكل الكبير فيه الصغير، فأخذنا الكثير من حضارة الغرب في العصور المختلفة. فقد حُكِمنا من قبل الطبقة العليا "الباشوات"، ممّن طوّروا الحياة في مصر لتتلاءم مع حضارة الغرب، فشكّلوا لدينا برلمان وحكومة وأعيان "باشوات"، وأضافوا قيماً جديدة لحضارتنا».

ثمّ يتطرّق "فلسطين" إلى مسألة هامّة لا تزال تردّدها العديد من النّخب الثّقافيّة والسياسيّة في بلدان الشرق، حول العلاقة مع الدّول الغربيّة، وحول الذين يشعرون بحالة من الدّونيّة حيال الغرب المتفوّق علميّاً وحضاريّاً، فيقول: "ولأنّنا كنّا صغاراً؛ فأخذنا على الكبار، أي على الغرب، ولا يعيبنا أنّنا صغار، فما العمل؟ فحتّى الجامعات الغربيّة تقدّمت على الجامعات الشّرقيّة، المصريّة مثلاً، في الأبحاث والدّراسات وإعداد الكوادر الأكاديميّة، فكنّا ننهل، ولا نزال، من الحضارة الغربيّة الكثير من العلوم والمعارف».

ويضع الدّكتور "فلسطين" نوعاً من المحاججة الفكريّة بين تطوّر الحضارتين الشّرقيّة والغربيّة، بالقول: "ولا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال أن نضع مقارنة متوازنة بين الحضارتين، فلقد تجاوزت الـ/١٠٠/ سنة من عمري، وواكبت مراحل عديدة في مصر، ففي بداية العصر الذي عشت فيه، كنّا جدّاً متخلّفين، ولم نكن نملك من الأدوات المعرفيّة والثّقافيّة الشيء الكثير لدخول العلم والتقدّم والتكنولوجيا، فالمتخلّف تجده دائماً ينهل من المتقدّم عليه".

ثمّ يذكر "فلسطين دور مصر في صناعة الحضارة الإنسانيّة، ويضيف: "كانت مصر في مرحلة هامّة من التّاريخ القديم مركز إشعاع فكري وحضاريّ لا يجاريها أيّ من الحضارات التي مرّت على المنطقة، حيث شهدت مصر "بلاد النيل" حضارة متقدّمة على بلاد الشّام، خاصّة في زمن الفراعنة».

وينتقل "فلسطين" إلى وصف عصر النّهضة الفكريّة لمصر في بداية القرن العشرين، بالقول: "ومن حسن حظّي أنّني عشت في زمن روّاد الفكر، أمثال طه حسين وعبّاس محمود العقّاد وعبد القادر المازنيّ، وتعرّفت عليهم عن قُرب، وتأثّرت بأفكارهم أيضاً، فقد كانوا أساتذة لي وأخذت عنهم كثيراً في مسيرة حياتي، طبعاً أنا أتحدّث هنا كفرد وليس كأمّة أو كمجتمع».

وفي سؤال للمجلّة حول الدّور الذي لعبه الدّين في تكوين الحضارة في الشرق، وأمحفّز أم مثبّط له، أجاب الدّكتور "فلسطين": "حقيقة نحن أحياناً كثيرة نظلم الدّين، فالتطوّرات العالميّة والنّهضة الفكريّة والعلميّة شيء، والدّين شيء آخر تماماً، فالدّين مكانه في المساجد والكنائس وغيرها، وهو يؤدّي واجبه في تهذيب النّفس، وهو في أساس العلاقة بين الفرد والله، وهو – أي الدّين – لم يُعرقل تقدّم المجتمع، كما أنّه لم يساهم في تطويره أيضاً، وهو منفصل عن الحياة الثّقافيّة والسّياسيّة، بل يقتصر دوره على حثّ النّاس لأداء طقوس العبادة من صلاة وصيام وغيرها، ولا أعتبر أنّ الدّين كان مثبّطاً أو سبباً في تأخّر وتراجع الحضارة العربيّة عن رُكْبِ الحضارة الغربيّة واللّحاق بمنجزات الفكر والثّقافة والعلم، والحضارة الغربيّة سبقتنا في الابتكارات والاختراعات العلميّة والفكريّة، فأخذنا عنهم تلك الإنجازات».

وحول تقييمه مكانة سوريّا في العالم العربيّ ومعاصرتها للحضارة العالميّة وكذلك لبنان، وصف الدّكتور "فلسطين" ذلك بالقول: "عشتُ في سوريا خلال فترات مختلفة، ولم أشعر إطلاقاً أنّها متخلّفة عن الحضارة الغربيّة، وكذلك الأمر في لبنان، حيث أنّ الجامعة الأمريكيّة في بيروت لعبت دوراً كبيراً في نقل العلوم والمعارف إلى الطلبة، مثل مصر، وكذلك لاحظت وجود مجامع للغة العربيّة في كلّ من سوريّا والأردنّ وفي مصر أيضاً، فهي لم تهتمّ فقط بتطوير اللّغة العربيّة والحفاظ عليها، بل ساهمت في مجالات أخرى كحقول ترجمة العلوم والمعارف الغربيّة إلى اللّغة العربيّة، فكانت جزءاً من البناء الحضاريّ في الشرق».

وحول سؤال آخر للمجلّة، بأنّه هل حصل أيّ تلاقح فكريّ وثقافيّ خلال الحملات الغربيّة على الشّرق، مثل الحروب الصليبيّة وحملة نابليون والاحتلالات المختلفة لبلدان الشّرق، ردّ "فلسطين" بالقول: "حملة نابليون فيها ما هو إيجابيّ وكذلك ما هو سلبيّ، والتعميم في هذه الحالة صعب جدّاً، ففي فترة من الفترات شاهدنا الدّور الذي لعبته «هدى شعراوي»، وهي سيّدة لعبت دوراً كبيراً في نشر وبناء الثّقافة المصريّة، كذلك شاهدنا العديد من النسوة أساتذة في الجامعات المصريّة، والتي قلّما نجد مثلها في أيامنا هذه».

عن جديد التجاذبات الخارجية في الأزمة اليمنية

عبدالله محمد الدهمشي

يثير حصاد الحروب في اليمن وعليها تساؤلات المصير الذي تدخل به هذه الحروب عامها السابع في 25 مارس، وذلك في محاولات من واضعي هذه التساؤلات لاستشراف مستقبل الأزمة التي تحولت بفعل الحروب، واستمرارها إلى مأساة إنسانية غير مسبوقة في عصرنا هذا، وكذلك لاستشراف تأثير هذا المستقبل على الأطراف المتورطة في هذه الحروب وعلى المنطقة العربية ككل.

تشير ملامح السياسة الأمريكية الجديدة والمدعومة من الاتّحاد الأوروبي إلى أنّ مستقبل الأزمة اليمنية يتحدّد الآن سياسيّاً بأولوية وقف العمليات القتالية والخروج من تداعيات المأساة الإنسانية إلى مفاوضات مباشرة بين أطراف الحرب تقود إلى حل سياسي للأزمة ينهي الصراع المدمر ويحقق لليمنيين تطلعاتهم إلى السلام والاستقرار.

وهنا تثور التساؤلات الآتية: هل ستتوقف الحرب بفعل تحرّك سياسي يصل بالأزمة اليمنية إلى مفاوضات جادة وحقيقية في مساعيها لإحلال السلام الشامل والمستدام في اليمن؟ وماهي مرتكزات هذا الحل السياسي وآلياته؟ وكيف يمكن تخطي العوائق القائمة وتهيئة المناخ المناسب لتحققه في الواقع؟ وإذا كان غير متاح لنا في الظروف الراهنة تقديم إجابات واقعية لهذه الأسئلة فإن علينا أن نحاول قراءة المؤشرات الدالة على هذه الإجابات في الاتجاهات السياسية التي ارتسمت على خارطة الجديد المعلن عنه في السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية تجاه الأزمة اليمنية.

لابد أوّلاً من تلخيص الجديد في السياسة الأمريكية تجاه الأزمة اليمنية حيث تعهد الرئيس جو بايدن بإنهاء الدعم الأمريكي للعمليات القتالية التي ينفذها تحالف دعم الشرعية الذي تقوده السعودية بما في ذلك مبيعات الأسلحة ذات الصلة وتعيين تيم ليندركينج مبعوثاً أمريكياً خاصاً باليمن وإبطال القرار المتأخر لإدارة ترامب بتصنيف الحوثيين جماعة إرهابية ومع أن النتائج المترتبة على سياسة بايدن تجاه اليمن ستعتمد على التفاصيل اللاحقة لهذه السياسة، إلّا أنّها في السياق العام على قدر كبير من الغموض الذي دفع الحوثيين إلى التصعيد العسكري، والتقدم ميدانيّاً نحو مأرب، ومهاجمة السعودية دون أي خوف من تكاليف هذا التصعيد وتأثيره على الموقف الأوروبي الأمريكي تجاه الحوثيين.

لابد ثانياً من معرفة مؤشرات السياسة الأوروبية المؤيدة لواشنطن في أولوية وقف الحرب في اليمن، والتي عبّر عنها البيان الذي صدر بأغلبية كبيرة من أعضاء البرلمان الأوروبي في ١١ فبراير ٢٠٢١م، ودعا إلى فرض حظر على مبيعات الأسلحة إلى كل من السعودية والإمارات، وإحالة الوضع في اليمن إلى محكمة الجنايات الدولية بسبب انتهاكات القانون الدولي الإنساني، وحقوق الإنسان، كما دعا البيان إلى سحب القوات الأجنبية من اليمن، وإذا كان بيان البرلمان الأوروبي قد ندّد بتوافر الكمّ الهائل من الأسلحة للحوثيين، فإنّه قد ركّز على تحالف دعم الشرعية الذي تقوده السعودية، مما يجعل الموقف الأوروبي مسانداً لواشنطن في توجيه الضغوط نحو الحكومة اليمنية المعترف بها دوليّاً، والتحالف الداعم لها عسكريا وإعفاء الحوثيين من أية ضغوط.

لابدّ ثالثاً من معرفة مؤشرات السياسة الإيرانية الجديدة تجاه الأزمة اليمنية، باعتبارها الطرف المعادل للتجاذبات الخارجية للأزمة، والتي استبقت جديد الموقفين: الأوروبي والأمريكي بتعيين حسن إيرلو سفيراً فوق العادة ومطلق الصلاحيات لطهران لدى الحوثيين في ١٧ أكتوبر ٢٠٢٠م، وبهذا تكون طهران قد تقدّمت في مضمار التجاذبات الخارجية، وما اتجهت إليه من مقاربات دبلوماسية، لتكون اليمن ركيزة أساسية في المساومات المرتقبة بين طهران وواشنطن.

إذا كانت التجاذبات الخارجية أساسا متجذرا في نشأة الأزمة اليمنية فإن التوجه نحو إيقاف الحرب هو الجديد الذي لم تفرضه الأزمة اليمنية وحدها، وإنما كانت ركيزته الأساس في التوجهات الجديدة لإدارة بايدن نحو السعودية، والتي تحدّدت الآن من قبل واشنطن في قضية مقتل الصحفي جمال خاشقجي في تركيا عام ٢٠١٨م، وبهذا تصبح اليمن ساحة للمناورات الأمريكية مع كل من الرياض وطهران.

تبرز مكامن الخلل في جديد المناورات الأمريكية بملف الأزمة اليمنية في حقيقة مفادها أن توقف الحروب في اليمن وعليها، لاترتهن بالمطلق إلى الضغوط الخارجية الواقعية والمحتملة على أحد أطرافها، إذ لا بدّ أن تتوازن الضغوط في فاعليتها على كلّ الأطراف، من هنا كان التصعيد الحوثي في المسار العسكري تجاه مأرب والسعودية تعبيرا عن رغبتهم في تعزيز سيطرتهم العسكرية على المحافظة الغنية بالنفط والطاقة، لتعزيز أوراقهم القوية في طاولة المفاوضات، وتأكيد أن مفاتيح المساومات الدبلوماسية في اليمن موجودة في طهران، وهذا ما تؤكده التصريحات الإعلامية للقيادات الحوثية التي تفيد أنّ الجماعة غير معنية بالأحاديث الدبلوماسية عن الحل السياسي، وأنّ القتال مستمر في مأرب ونحو السعودية حتى تحرير ليس مأرب فقط، وإنما كلّ اليمن، ووقف مايصفه

الحوثيون بالعدوان السعودي.

هنا تبدو خارطة الأزمة اليمنية، والتي تحوّلت بحكم ست سنوات من الحرب إلى مأساة إنسانية مستمرة ومتزايدة مثقلة بالأسئلة المفتوحة دائماً على الغموض والمجهول، والتي تؤكد في كل مقدماتها، وفي كل محاولات الإجابة عليها أنّ الأزمة اليمنية مرهونة بالمطلق للتجاذبات الخارجية، لا من حيث الافتراضات النظرية، لكن من واقع السيطرة العسكرية على الجغرافيا السياسية، حين لم تتوقف هذه التجاذبات على ثنائية الصراع بين طهران والرياض، وإنّما فرضت واقعاً تسيطر عليه معادلات صراع ظاهرة وخفية بين الإمارات وجماعة الإخوان، وما يمتدّ بهما إلى الدوحة وأنقرة.

من هذه الخارطة التقريبية لجديد السياسات الخارجية ذات الصلة بالأزمة اليمنية يمكن القول: إنّ التجاذبات مستمرة في مسارات هذه الأزمة، وبما يفتح خارطة الاحتمالات على مسارَين هما:

الأول: استمرار الحوثيين في القتال طمعاً في توسيع سيطرتهم العسكرية شمال اليمن، وتحديداً في تحقيق أولوية استراتيجية متمثلة في السيطرة على مأرب وفي حال نجاحهم سيكون للمجلس الانتقالي رؤية أخرى للوضع في الجنوب وخصوصا في شبوة.

الثاني: توقف الحوثيين عن مسار القتال من واقع اللحظة الراهنة، والدخول في مفاوضات مفتوحة على المجهول، نظراً لغياب المشروع النظري للحل السياسي حتى اللحظة، وتنافر الموقف من العرض الأممي المقترح تحت مسمّى الإعلان المشترك بسبب رفض الحوثيين المرجعيات الثلاث التي يصرّ عليها تحالف الشرعية.

والمرجعيات الثلاث هي المرتكزات الجامعة للأزمة اليمنية منذ عام ٢٠١١م والمتمثلة بالمبادرة الخليجية التي فرضت على اليمنيين فترة انتقالية، ووصاية أمميّة ثم مخرجات الحوار الوطني الشامل، ثم التأييد الدولي المتجسد بقرارات مجلس الأمن الدولي ذات الصلة بالأزمة اليمنية.

وعليه فإنّ الأزمة اليمنية ستدخل مرحلة طويلة من المراوحة بين اللا سلم واللا حرب، وبما يؤثر سلباً على الهوية الوطنية، وكيانها السياسي وعلى دول تحالف دعم الشرعية، وخصوصا ما تبقّى منها في المواجهة، وهي السعودية والإمارات والسودان، والتي من المؤكد أنّها ستواجه ضغوطاً كبيرة وكثيرة سياسيّاً واقتصاديّاً وعسكريّاً، وذلك من أجل إجبارها على القبول بالحوثيين ليس فقط كشركاء في مستقبل اليمن، ولكن البقاء كمصدر تهديد دائم للداخل اليمني ومحيطه الجغرافي.

إن المقاربة الواقعية لدوافع التصعيد الحوثي الراهن عسكريّاً تجاه مأرب والسعودية تكشف عن سيناريو مكرر في اتفاق استوكهولم نهاية ٢٠١٨م، حيث تمكّن الحوثيون من البقاء في أهم المنافذ البحرية لليمن على الأحمر، وهو ميناء الحديدة، وإذا أخذنا في الحسبان توجهات قوى دولية لإعادة تشطير اليمن فإن الوصول بالصراع الراهن الى معادلة شمال جنوب تجعلنا نتوقع اكتمال سيطرة الحوثيين على جغرافيا الشمال مقابل سيطرة المجلس الانتقالي على جغرافيا الجنوب، وهنا تكتمل المعادلة بنشوء دولة شيعية في الخاصرة الجنوبية للسعودية.

وهكذا لن تتوقف الحروب، ولن يتقدم السلام في المدى المنظور باليمن، وستكثر معارك كسر العظم من قبل كلّ الأطراف ضد بعضها، ذلك أنّ المشهد الذي بدأت ملامحه ترتسم الآن على خارطة الأزمة اليمنية يقول بحقائق التاريخ إن السياسة الأمريكية، وبالتبعية لها السياسة الأوروبية، ترتكز فيما يخص الجزيرة العربية على أولويات استراتيجية، وإن تبدلت في إدارتها السياسات، فأمريكا وأوروبا تركزان على ضمان تدفق النفط، وتأمين ممراته، ثم إنفاق الجزء الأكبر من عائداته على صفقات الأسلحة، دون أن ننسى الأولوية الثابتة لديها؛ والمتمثلة بضمان أمن إسرائيل.

دراسة في إعلان الأمم المتحددة بشأن حقوق الشعوب الأصلية

يمان محمد عيسى

- أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراها رقم ٦١ - ٢٩٥ المؤرخ في ١٣ أيلول لعام ٢٠٠٧ والذي اعتمدت بموجبه إعلانها بشأن حقوق الشعوب الأصلية – حيث أكدت مساواة الشعوب الأصلية مع جميع الشعوب الأخرى وأن اختلاف الشعوب يجب أن يحترم لأن الاختلاف فيه تنوع وثراء الحضارات والثقافات التي هي تراث الإنسانية المشتركة وأن غلبة أو تفوق أصل قومي أو اختلاف عنصري أو سياسي أو ثقافي على غيره هي بمثابة ممارسات عنصرية وزائفة علميا و باطلة قانونا ومُدانة أخلاقيا وهي من الظلم الاجتماعي ويجب التحرر من كل أشكال التمييز وحيث أن الحقوق الطبيعية للشعوب الأصلية والمستمدة من هياكلها السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و ثقافتها وتقاليدها وتاريخها وفلسفاتها هي حاجة ملحة يجب أن تحترم وأن تعيش

هذه الحالة في أراضيها وأقاليمها ومواردها ورحب الاعلان العالمي بتنظيم الشعوب الأصلية لنفسها لتحسين أوضاعها على كافة المستويات حيث أن سيطرة الشعوب الأصلية على التطورات التي تمسها وتمس أراضيها وأقاليمها ومواردها ستمكنها من المحافظة على مؤسساتها وثقافاتها وتقاليدها وتعزيزها.

حيث أن حالة هذه الشعوب تختلف من منطقة إلى أخرى لذلك ينبغي مراعاة ما للخصائص الوطنية والإقليمية والتاريخية والثقافية من أهمية.

وقد جاءت مواد الإعلان العالمي بهذا الشأن لتوضح هذه المفاهيم و تقننها.

- حيث بينت المواد من ١ - حتى - ٨ :حق الشعوب الأصلية في التمتع بجميع حقوق الإنسان والتحرر من كافة أشكال التمييز وحق تقرير المصير و الاستقلال الذاتي أو الحكم الذاتي فيما يتعلق بشؤونها الداخلية والمحلية وحقها في الحفاظ على مؤسساتها بكافة أشكالها مع احتفاظها بحق المشاركة إذا اختارت ذلك في الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية للدولة.

والحق في الجنسية لكل فرد ونص الاعلان بشكل واضح وصريح في مادته الثامنة على حق الشعوب الاصلية وافرادها في عدم التعرض للدمج القسري او تدمير ثقافة هذه الشعوب وعلى الدول وضع آليات لمنع أي عمل يؤدي إلى نزع ملكية أراضيها أو أقاليمها أو مواردها أو النقل القسري والإدماج القسري وحتى الدعاية التي تشجع على التمييز أو الإثني و التحريض عليه وأي عمل آخر يؤدي حرمانها من سلامتها أو قيمتها الثقافية أو هواياتها الأثنية .

- كما نص الإعلان في مواده على حق الشعوب الاصلية في الانتماء إلى مجتمع أصلي أو أمة أصلية وفقاً لعادات وتقاليد المجتمع أو الأمة المعنية، ويشمل ذلك الحفاظ على مظاهر ثقافاتها في الماضي والحاضر والمستقبل وحمايتها وتطويرها. كالأماكن الأثرية والتاريخية والمصنوعات والرسومات والاحتفالات وكافة أشكال الفنون. وأنّ لهذه الشعوب الحق في تنمية وتعليم تقاليدها وعاداتها وطقوسها الروحية والمجاهرة بها والحفاظ على أماكنها الدينية . وحيث أن لكل شعب هويته وثقافته وتقاليده فمن حقه إقامة نظام تعليمي والسيطرة عليه وتوفير التعليم بلغة هذا الشعب ومن الحق أن يعبر هذا التعليم عن جلال وتنوع الثقافة والتقاليد والتاريخ لهذا الشعب . ولهذه الشعوب الحق في إنشاء وسائل الاعلام الخاصة بها وبلغاتها. وضمن حرية التعبير.

- وأيّد إعلان الأمم المتحدة حق الشعوب الأصلية في الأراضي والأقاليم والموارد التي تمتلكها وتشغلها بصفة تقليدية وتمنح بذلك اعترافا دولياً إضافة للاعتراف بقوانينها وتقاليدها وعاداتها .

ومن ذلك فقد انتهى الاعلان العالمي عن القيام بأي أنشطة عسكرية في أراضي الشعوب الأصلية أو أقاليمها إلا ما يساعد في حرية هذه الشعوب بعد المشاورة والموافقة من الشعوب نفسها. وبما أن للشعوب الأصلية الحق في تحديد هويتها و انتمائها وفقا لعاداتها وتقاليدها فإن لها الحق – ولا سيما الشعوب التي تفصل بينها حدود دولية – في الحفاظ على اتصالاتها وعلاقاتها وتطويرها .

- وحيث أن إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الشعوب الأصلية جاء ليبين حقوق هذه الشعوب ويكشف استحقاقاتها التاريخية والثقافية بكافة أشكالها .فمن الواجب على جميع الدول احترام حقوق وتميز هذه الشعوب كأمة موجودة على أرضها ولها ثقافتها الخاصة وعاداتها وتقاليدها وتراثها. وهذا أقل ما يمكن أن يقال.

- مقتطفات من مكتبة حقوق الانسان (جامعة مينيسوتا)

الشرق الأوسط الديمقراطي

إنّ تَرْك ذهن الإنسان بلا يوتوبيا، بلا ميثولوجيا (بلا ملاحم، بلا أساطير) كتَرْكِ البدن بلا ماء. وهنا ندرك بشكلٍ أفضل أنّ ذهن الإنسان، الذي هو مجموعُ أذهان جميعِ الكائنات الحية، لا يمكن اختزاله بغناه الشاملِ ذاك إلى حدودِ العقلية التحليلية التي تلجأ فقط إلى لغةِ الرياضيات. إنّ هذا السلوك يخالِفُ طبيعةَ الحياة. فمثلما أنّ أذهانَ الملايين من الكائناتِ الحيةِ لا تعرف الرياضيات، فلا يمكن حصر ذهن الإنسان، الذي هو مجموعُ تلك الأذهان الحية، في الرياضيات. علماً أنّ الرياضيات التي تعدّ اختراعاً سومرياً، قد استُعمِلت في البدايةِ لحسابِ فائض الإنتاج كوظيفةٍ أساسية. ولكن يكاد منطقُ الإنسانِ يُختَزَلُ اليوم إلى مستوى آلةٍ حاسبة. إذن، والحال هذه، كيف، وبِمَ يمكننا استيعاب أذهانِ الملايين من الأحياء؟! وحركةِ الجُسَيمات ما تحت الذرّية، والأجسامِ الفلَكية غيرِ القابلة للقياس؟ واضحٌ أنّ قوةَ علوم الرياضيات لا تكفي لفهم هذين الكونين الأصغر والأكبر. أو على الأقل، من الضروري أنْ نترك البابَ مفتوحاً لأساليبَ جديدةٍ بشأنِ المعاني، كي لا نخنق أنفسنا سلفاً بالعقائد الجامدة.

فصلية فكرية تحليلية حرة تعنى بشؤون الشرق الأوسط

رقم الاعتماد

لدى نقابة الصحفين العراقيين 148

رقم الإيداع

دار الكتب و الوثائق في بغداد 868 لسنة 2005

لدى وزارة الثقافة المصرية

دار الكتب و الوثائق في القاهرة

رقم 24217